الدعوات الإصلاحية

الدعوة في العصر الحديث

تمهيد

لقد اجتاحت العالم الإسلامي موجة عاتية من التخلف والجمود والتقليد تحت سلطان الخلافة العثمانية في عصرها الأخير، وانتهت الحياة الإسلامية إلى قوالب جامدة وميتة في كافة مجالات الحياة، سواء في مجال العقيدة والتصورات، أو في مجالات السلوك والشعائر أو في تطبيق الشرائع والأحكام، كما غلبت الصوفية المشوهة وصبغت أحوال الناس بالسلبية والتواكل، وماتت عملية الاجتهاد والبحث وحلت محلها الرغبة في التقليد.

كل هذا أدى إلى تخلف شامل في النواحي العقلية والعلمية وما يتبع ذلك من الاضمحلال في الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت الخلافة العثمانية في عصرها الأخير تشبه الرجل المريض الذي وصل إلى مرحلة الاحتضار.

في هذه الظروف القاسية الشديدة كانت أوربا قد سارت شوطاً غير قليل في نهضتها الحديثة، وأدركت أن دولة الإسلام لن تحتمل إلا ضربة واحدة لكي تتحطم، وما على أوربا إلا أن تبدأ بهذه الضربة القوية في أول فرصة سانحة.

وهكذا تجمعت كل العوامل الداخلية من أنباء المسلمين، والتي تنخر في عظام الأمة الإسلامية، والعوامل الخارجية من الاستعمار، الذي يتربص بهذه الأمة لكي يوجه إليها ضربته الأخيرة.

ولو نظرنا إلى أوربا نجد أنها نجحت في القضاء على هذه الخلافة، ثم اقتسمت تركة الرجل المريض فيما بينها، وهكذا وقع العالم الإسلامي والعربي بين مخالب الاستعمار الأوربي،ولكن الله عز وجل الذي رعى هذه الأمة وأخرجها من الظلمات إلى النور وهيأها لكي تكون خير أمة أخرجت للناس، شاء لها أن تصحو من رقادها،

وأن تستيقظ من خمولها وكسلها، وأن تقوم فيها حركات للبعث الإسلامي تحاول أن تعيد إلى المسلمين وإلى البشرية كلها ما أضاعته قرون الغفلة والضياع والانحراف عن الطريق المستقيم، وتنير لهم هذا الطريق من جديد ليروا الحق كما جاء من عند الله عز وجل.

وهذه الحركات ما هي إلا محاولات جادة لإيقاظ الأمة الإسلامية من غفلتها، واستئناف الحياة الإسلامية مرة أخرى على أساس منهج الله عز وجل من تطبيق كتاب الله القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن خلال حالة الانحطاط التي وصل إليها العالم الإسلامي وما أعقب ذلك من غزو فكرى وثقافي. حدثت ردود فعل متباينة ظهرت في مجرى الحياة الفكرية والثقافية في البلاد الإسلامية، وقد تمثلت ردود الفعل في البلاد الإسلامية في مواجهة الغزو الأوربي في تيارات ثلاثة:

التيار الأول:

الذي يدعو إلى اعتناق الفلسفة التي قام عليها الغرب والأخذ الكامل بمناهج حياتها في كل مجالات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وفق سياسة التعليم والثقافة والفن والتقاليد والعادات.

وهذا التيار يطلق عليه (التغريب) أي أخذ الحياة الأوربية الغربية بحلوها ومرها، خيرها وشرها.

من الذي يمثل هذا التيار؟

تمثل هذا التيار في النخبة الحاكمة والسياسيين والمفكرين والأدباء وأهل الفن، يتبعهم فريق كبير من المثقفين، الذين تلقوا علومهم في أوربا أو على النسق الأوربي.

وهؤلاء يبتعدون عن الإسلام في كل شيء، ويبعدونه عن كل شيء فلا دخل له في شئون الحياة العامة من سياسة واجتماع واقتصاد وتربية وتعليم وثقافة، حيث إن الإسلام عند هؤلاء لا يخرج عن المسجد والزاوية، وهؤلاء لهم السيطرة والتامة حيث إن الأمر بأيديهم يحكمون الناس كما يريدون.

التيار الثاني:

هو الذي اعتزل عن الحياة الحديثة متقوقعا على نفسه، يدعو إلى التمسك بالإسلام ولكن في صورة غير صافية، أثرت فيها آفات التقليد الأعمى والجمود والانحراف عن المفهوم الإسلامي الأصيل.

من الذي يمثل هذا التيار؟

تمثل هذا التيار في قوم لم يفهموا الإسلام فهما حقيقياً وإنما قدموه خليطاً مشوها من التزمت والجهل بأمور الحياة والوقوف أمام تيار الحياة المتقدمة والتحضر موقف الرفض، بل والإنكار الشديد لكل ما هو جديد.

ما هي النتيجة بالنسبة لهذا التيار؟

لقد انعزل هذا التيار بعيداً عن التأثير في مجرى الحياة المتقدمة المتدفقة بالحيوية والنشاط، وانفضت الجماهير تدريجياً بعيداً عن هذا التيار، بل انقرض في معظم البلاد الإسلامية هذا الصنف من الناس.

التيار الثالث:

هذا التيار يعتبر رد فعل صحيح وسليم لهذا الغزو الفكري، وهو الذي تمثل في حركات البعث الإسلامي الجديد، ودعا الناس إلى العودة إلى أصول الإسلام النقية

والتلقي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأخذ المفهوم الإسلامي للحياة من هذين المصدرين الرئيسين، وقد قامت حركات البعث الإسلامي ببيان الإسلام على أنه الدين الذي اختاره الله عز وجل للبشرية جمعاء وهو الذي يوجه الإنسان إلى عمارة الأرض، والعمل للآخرة، وأن هذا الدين أمد الإنسان بكل ما يصلح حياته في كل جوانبها، كما أن الله عز وجل شرع له قانونه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والثقافي على أساس من التصور الصحيح.

ما هي الشروط التي يجب توافرها في هذه الحركات؟

هذه الشروط هي:

الشرط الأول:

لا بد أن يتوافر لهذه الحركات الإدراك الشامل لهذا الدين، إدراك العقيدة، إدراك المنهج الذي تتحقق به هذه العقيدة.

الشرط الثاني:

لابد من الالتزام الكامل بمقتضيات هذا الدين عقيدة ومنهجا.

الشرط الثالث:

لابد من إدراك واقع البشرية الآن وخاصة واقع المجتمعات الإسلامية ومدى بعدها وانسلاخها من قيم الإسلام وجريها وراء إغواء الجاهلية وتضليلها.

الشرط الرابع:

لابد من التعرف على الجاهلية من حولنا ودراسة عقائد هذه الجاهلية ومناهجها وأساليب حياتها، كما ينبغي التعرف على الرسائل التي تكيد بها الجاهلية للإسلام وأهله ومتابعة مخططاتها في كافة المجالات.

الشرط الخامس:

لا بد من اتخاذ الوسائل المكافئة لأساليب الجاهلية في حرب الإسلام والمسلمين استجابة لنداء الحق عز وجل إذ يقول:﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾.

وإذا توافرت هذه الشروط فإن الأمل يكون كبيراً في أن تنجح هذه الحركات بمشيئة الله عز وجل في الوصول إلى إعادة سلطان الإسلام مرة أخرى، وإلي عودة هذه الجماهير الشاردة إلى حظيرة الإلوهية من جديد والله عز وجل يقول: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾[النور:55].

وسوف ندرس بإيجاز بعض حركات البعث الإسلامي التي كان لها دور كبير في دعوة الناس إلى الإسلام عقيدة وشريعة، والجهاد في سبيل نشر هذه الدعوة.

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

نبذة عن نجد قبل دعوة الشيخ:

خضع الناس في نجد وما حولها لحكم الأمراء من غير قانون ولا شريعة إلا ما قضت به أهواؤهم وشهواتهم، وقلما تجد فيهم الأمير الصالح الذي يعمل في سبيل إسعاد أمته، ورفعة شأنهم.

ظهر فيهم الطمع وفشا فيهم الجشع فكثر الغزو والسلب والنهب والقتل وشاع الخوف وانعدم الأمن والأمان. ونتج عن ذلك أن تفرق الناس بعد أن كانوا مجتمعين، وتباغضوا بعد أن كانوا متحابين، واقتتلوا بعد أن كانوا متصالحين.

وانقسمت نجد إلى عدة ولايات وعلى كل ولاية أمير:

ففي الإحساء أمير، وفي العيينة أمير، وفي الرياض أمير، وفي الدرعية أمير، وكثرة الأمراء تجعلهم في حروب مستمرة ودائمة من أجل القتل والسلب والنهب وغزو بعضهم بعضاً حينما يتيسر ذلك وصار الإنسان لا يدري متى يغتال أو يسلب أو ينهب.

ومن هنا ترك الناس التجارة وأهملوا الزراعة خوفاً على أنفسهم ممن يأخذون أموالهم وينهبون أمتعتهم وحاجياتهم، وأصبحت لقمة العيش من هذا الطريق هي شغلهم الشاغل.

كذلك ماتت الفضيلة في الناس وانتشرت الرذيلة، وساد الجهل وأصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وتبدل الحال من الحسن إلى الأسوأ، ومات العلم وانطفأ نوره، وأصبحت القصص والأساطير هي السائدة في حياتهم والمسيطرة على عقولهم،

وأضف إلى ذلك الحياة الدينية والضلال في العقيدة بسبب البدع والمنكرات التي انتشرت بينهم.

لقد كانت نجد تعيش حياة الجاهلية والإخلاد إلى الأرض، ظهر فيها الشرك بالله، والتقرب إليه بالوسطاء الذين أشركوهم معه تعالى في العبادة، وقاموا نحوهم ببعض العبادات، ورسخت في أذهانهم فكرة مقدرة هؤلاء على النفع والضر، وكثر مع ذلك عدد الأدعياء والأولياء والجهلاء، كذلك استغاثوا بالأموات واعتقدوا فيهم القدرة على الخير والشر والنفع والضر واعتبروا ذلك من أصول الدين وأركان الإسلام وهو في الحقيقة ضلال وشرك والخلاصة: لم تكن في نجد وما حولها أمة إسلامية صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الإخوة في الله، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على أساس العلم والحكمة ولا دين صحيح ولا عقيدة سليمة.

صاحب الدعوة:

هو الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على من المشارفة، أحد فروع الوهبة من قبيلة تميم، ولد رحمه الله في بلدة العيينة شمال غرب الرياض عام 1115 هـ 1703م ونشأ بها، وقد كان الشيخ حاد الذهن، ذكي، نبيه، فطن، فصيح اللسان، سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشرة أعوام.

بيئته:

كانت البيئة التي نشأ فيها بيئة علمية دينية صالحة، فجده، سليمان بن على عالم من علماء نجد في عصره، انتهت إليه الفتيا في نجد، وأبوه عبد الوهاب بن سليمان

من علماء بلده، تولى قضاء بلدتي العيينة ثم حريملاء، وعمه إبراهيم بن سليمان كان عالماً قديرا.

ذ1تلقيه العلم أولاً:

تلقى الشيخ العلم في البداية على يد والده حيث درس عليه كتب الفقه الحنبلي، ثم أخذ يزيد في معلوماته بالقراء الخاصة، حيث أخذ يقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول وقد ساعده حبه للقراءة وشغفه بها أن يطلع على كل ما يقع في يده من كتب الدين.

ولما كانت كتب الحنابلة متداولة بين علماء نجد نتيجة لانتشار هذا المذهب في نجد، فقد اهتم الشيخ بقراءتها وخاصة قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد تأثر الشيخ محمد عبد الوهاب بالإمامين الجليلين ابن تيمية وابن القيم ومن هنا نقول: ما هي العوامل التي أثرت في نشأة الشيخ نشأة دينية علمية؟

1- استعداده الشخصي وما اتصف به من الذكاء والفطنة وسرعة الحفظ وحبه للقراءة وكثرتها.

2- أساتذته سواء من تلقى عنهم العلم مباشرة أو تأثر بمؤلفاتهم كابن تيمية وابن القيم.

3- أسرته العلمية حيث كان أبوه وعمه وجده من علماء نجد.

4- ظروف مجتمعة وما كان يعيش فيه من انحراف عن مبادئ الإسلام الصحيح في كثير من أموره دفع بالشيخ إلى بعض في دراسة العلوم الإسلامية ليعرف حقيقة الأمر.

5- رحلاته العلمية وأثرها الواضح على اتجاهه العلمي الإصلاحي بعد ذلك.

رحلاته العلمية:

لما أكمل الشيخ تعليمه في بلدة العيينة على أساتذته وبقراءاته الشخصية عزم على الارتحال إلى البلدان المجاورة طلباً للعلم والزيادة فيه كعادة السلف الصالح فبدأ بحج بيت الله الحرام ثم اتجه من مكة إلى المدينة وأقام فيها حينا، أخذ العلم فيها على الشيخ (عبد الله بن سيف النجدي)كما أخذ العلم في المدينة على الشيخ (محمد حياة السندي).

ثم خرج الشيخ من المدينة ماراً ببلاد نجد إلى البصرة فتلقى العلم فيها على عدد من العلماء منهم الشيخ (محمد المجموعي)، درس عليه في النحو واللغة والحديث والفقه، وفي البصرة كان يدعو الناس إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله ويقول لهم: إن محبة الأولياء والصالحين باتباع هديهم وآثارهم وليس باتخاذهم آلهة من دون الله مما جعل الشيخ يتعرض لمضايقات كثيرة من الناس، فاضطره ذلك إلى الخروج من البصرة في العراق قاصداً بلاد الشام، وقد ضاعت منه نفقته في الطريق فقفل راجعاً إلى نجد، ومر في طريقه بالإحساء ونزل على الشيخ (عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الإحسائي) وأخذ عنه في التفسير والحديث ثم اتجه من الإحساء إلى حريملاء)، وكان أبوه قد انتقل إليها من العيينة لخلاف مع حاكمها.

ومن هنا يظهر لنا:

1- أن البلاد التي زارها الشيخ في هذه الرحلات هي: مكة المكرمة، المدينة المنورة، البصرة، الأحساء.

2-وأن المشايخ الذين أخذ عنهم هم: الشيخ عبد الله بن إبراهيم ابن سيف والشيخ محمد حياة السندي في المدينة المنورة بالشيخ محمد المجموعي في البصرة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الأحسائي في الإحساء.

3- وأن العلوم التي تلقاها عن هؤلاء المشايخ هي: علم الدين من تفسير وحديث وفقه وعلوم الآلة من نحو وصرف وبلاغة، وغير ذلك من العلوم التي كانت موجودة في زمانه.

مراحل الدعوة:

لقد مرت الدعوة بعدة مراحل كان لها أكبر الأثر في تكوينها لحركة إصلاحية هامة، ليس في منطقة الجزيرة العربية فحسب بل في العالم الإسلامي بأسره.

فعندما وصل الشيخ إلى حريملاء أخذ يجهر بدعوته وينكر ما يفعله الجهال من البدع والشرك في الأقوال والأفعال، ولكن والده منعه من ذلك خوفاً عليه من ثورة العامة فاتجه الشيخ البحث والتحصيل وألف كتاب (التوحيد) ولما توفي والده أعلن دعوته من جديد، وقرر أن حريملاء لا تصلح لنشر الدعوة لعدم وجود الأمن فيها وهذا لانقسام أهلها وانقسام الحكم فيها حتى جعل أهلها يقررون قتل الشيخ فعزم على العودة إلى العيينة مسقط رأسه فأهلها يعرفهم وحكمها مستقر أكثر من حريملاء وقد فتح حاكم العيينة صدره للدعوة ووعد الشيخ بنصرته ونشر دعوته، وهنا مهد الشيخ لانتقال دعوته من مرحلة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلى المرحلة العملية في تطبيق مبادئ الدعوة وتمثل ذلك في أمور ثلاثة:

1- هدم القباب المقامة على القبور مثل قبر (زيد بن الخطاب) في الجبيلة، وقد بدأ هو في هدم القبة ثم تبعه أصحابه.

2- قطع الأشجار التي يتبرك بها العامة مثل شجرة (الذيب) في العيينة قطعها الشيخ بنفسه.

3- رحم الزانية التي جاءت إلى الشيخ وأقرت بالزنا، وطلبت إقامة حد الله عليها، فلما تيقن الشيخ من توفر شروط إقامة الحد عليها، أمر بها فرجمت لأنها محصنة.

لقد انبهر الناس من هذه الأعمال، لأنها بالنسبة لهم أشياء جديدة لم يعتادوها من قبل فانقسم الناس إلى قسمين: قسم مؤيد وقسم معارض القسم المؤيد آمن بذلك وأقر به والقسم المعارض أنكر ذلك وحاربه وكان حاكم الأحساء من المعارضين والمنكرين فأوعز إلى حاكم العيينة من خلال نفوذه عليه أن يطرد الشيخ من بلده وإلا قطع عنه راتبه السنوي فأذعن الحاكم للأمر وأمر الشيخ بالخروج إلى أي بلد يشاء فاختار الدرعية لقربها من ناحية وسيرة حاكمها الحسنة من ناحية أخرى.

وقد أحسن حاكم الدرعية (محمد بن سعود) استقباله والترحيب به ووعده بأن يمنعه مما يمنع منه نساءه وأولاده، ثم أخذ الشيخ يشرح للأمير محمد بن سعود دعوته وما تدعو إليه حتى اقتنع بها، فتعاهدا معاً على نشر مبادئ الدعوة المباركة.

وقد بقى الشيخ في الدرعية سنتين يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان يرسل برسائله ومناظراته إلى أهل البلدان المجاورة ورؤسائهم وعلمائهم، فمنهم من قبل واتبع الحق، ومنهم من أبى وعارض ولكن الحال لم يستمر على ذلك فقد قام المعارضون على الشيخ ودعوته بالعدوان وأعلنوا تكفير الشيخ وأتباعه وإباحة دمائهم، فأمر الشيخ حينئذ أتباعه بالجهاد دفاعاً عن النفس أمام أولئك المعارضين من ناحية، وكسر الطوق وإزاحة حجر العثرة أمام نشر الدعوة من ناحية وهنا انتقلت الدعوة إلى مرحلة جديدة ثالثة هي: مرحلة الجهاد لحمل الناس على الحق وتهيئة الجو

الصالح لنشر الدعوة، والعودة بالمسلمين إلى منهج الله وشرعه واتباعه عقيدة ومنهج حياة.

أهداف الدعوة:

تهدف دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى:

1- تصحيح العقيدة الإسلامية وتطهيرها مما علق بها من أدران الشرك والبدع والخرافات، وذلك عن طريق تنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق بحيث يعترف المخلوق بسلطان الخالق عليه في جميع الأمور.

2- الدعوة إلى العودة إلى الإسلام الذي كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك عن طريق تركيز النشاط الإنساني للقيام بتطبيق أحكام الإسلام وحدوده وشعائره الظاهرة والباطنة.

3- إقامة مجتمع إسلامي متكامل يؤمن بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة.

مصادر الدعوة:

1- القرآن الكريم وهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، واهتمامه بالقرآن الكريم يرجع إلى حفظه له وهو لم يبلغ العاشرة من عمره، ونجد ذلك أيضاً من خلال مؤلفاته ورسائله.

2- السنة النبوية وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وكما اهتم الشيخ منذ صغره بالقرآن الكريم اهتم أيضاً بالسنة النبوية واهتم بدراسة الحديث النبوي.

3- آثار السلف الصالح: والشيخ يهتم اهتماما كبيراً بالآثار الصحيحة التي وردت عن سلف الأمة الإسلامية المشهود لهم بالصلاح والعلم والتقوى، وأهمهم طبقة التابعين وتابعيهم لهم بالصلاح والعلم والتقوى وأهمهم طبقة التابعين وتابعيهم بإحسان، وخاصة الأئمة الأربعة المشهورون وهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل.

وقد تأثر الشيخ بثلاثة من علماء السلف الصالح تأثرا كبيراً وهم: (أحمد بن حنبل، وأحمد بن تيمية، ومحمد بن قيم الجوزية) وتأثره بهم في الورع والتقوى والزهد والبعد عن المناصب من ناحية وفي محاربتهم للبدع والمنكرات والشرك.

حقيقة الدعوة:

اختلفت آراء الباحثين والمؤرخين في حقيقة دعوة الشيخ، هل هى حركة دينية أو سياسية أم للأمرين معاً؟

فمنهم من قال: إنها حركة إصلاح دينى خالص، غايتها القضاء على ما أصاب الدين من شوائب الشرك والوثنية.

وآخرون يرون: أنها حركة سياسية اتخذت الإصلاح الدينى وسيلة لتحقيق أهدافها والتى من أهمها إنشاء دولة مستقلة في الجزيرة العربية منفصلة عن الخلافة العثمانية.

وفريق ثالث يرى أنها حركة دينية سياسية، بدليل ما قامت به من إصلاح دينى وما أسسته من حكومة مستقلة عن الخلافة العثمانية.

ولو نظرنا إلى هذه الآراء نجد أن الرأي الثالث أقرب الآراء إلى تفهم الحقيقة لتلك الدعوة.

والحق أن أقرب وصف لدعوة الشيخ أن نقول إنها حركة إصلاحية هدفها العودة بالمسلمين إلى ما كانوا عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين من تمسك بالإسلام وتعاليمه وتحكيمه في جميع شئونهم الدينية والسياسية، إنها دعوة إلى الإسلام الذي كان عليه المسلمون الأوائل والذي قادوا به العالم وسادوا ولما كان الإسلام بطبيعته دينا ودولة، كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوة جامعة للأمور الدينية والسياسية معاً- وبهذا تدرك أن الإصلاح الذي نادت به الدعوة لم يكن الغرض منه دينياً فقط كما زعم البعض حقيقة إن الدعوة اهتمت بالإصلاح الديني أكثر من اهتمامها بالإصلاح السياسي، وهذا يرجع إلى أن الانحراف الديني في العالم في ذلك الوقت يفوق تدهوره السياسي، وفوق هذا وذلك فإن إصلاح العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين أساس كل إصلاح، ومهما يكن الأمر فإن الدعوة لم تقف في يوم من الأيام حائلا أمام الأخذ بما ينفع في التقدم الحضاري بشرط ألا يخالف الإسلام وأحكامه.

أثر الدعوة في العالم الإسلامي

عوائق انتشار الدعوة:

واجهت الدعوة في باكورة حياتها بعض معوقات الانتشار، وكان ذلك راجعاً إلى عاملين هامين:

الأول: دور خصومها على اختلافهم في تشويه مبادئها أمام العالم الإسلامي حتى سموها (المذهب الوهابي) ليوهموا الناس أنها مذهب جديد على الإسلام وأهله، وقد اشترك في هذا التشويه عدة جهات سياسية هى: الأتراك العثمانيون-حكم محمد على في مصر – الإنجليز- وكل هؤلاء رأوا في الدعوة الوهابية خطراً على أغراضهم السياسية.وهناك أشخاص لهم أغراض شخصية كالذين يرتزقون من تحت القباب التى هدمها أتباع الدعوة، وكذلك بعض أصحاب الطرق الصوفية، وكل هؤلاء سوف تفقدهم الدعوة مراكزهم الدينية والاجتماعية بالإضافة إلى موارد أموالهم.

الثاني: أسلوب بعض رجال الدعوة الذين كثيراً ما أساءوا إلى مبادئ الدعوة نفسها بتصرفاتهم التى لا تتفق البتة مع أفكار الدعوة ومبادئها ومع أن هؤلاء قلة إلا أن أعداء الدعوة استغلوا تصرفهم على حساب الدعوة وأفكارها.

عوامل انتشار الدعوة:

برغم هذه المعوقات فقد آتت الدعوة ثمارها بعد أن نظر إليها المسلمون بعقول واعية مستنيرة، فانتشرت مبادئها وأتباعها في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي الكبير، فكانت دعوة إصلاحية فريدة من نوعها عن الحركات الإصلاحية، هذه الميزة تدفعنا إلى البحث عن عوامل نجاحها وأسباب انتشارها وخاصة في آسيا وأفريقيا.

هذه العوامل هى:

1- طبيعة مبادئ الدعوة:

فهى مبادئ واضحة المعالم، تناسب الفطرة السليمة سهلة الفهم، بعيدة عن التعقيدات والأمور الفلسفية، ولا عجب في ذلك فهى الدعوة إلى الإسلام النقى الخالص من شوائب الشرك والبدع.

2- صاحب الدعوة وقوة إيمانه:

فقد بذل الشيخ رحمه الله لدعوته جهوده وقواه وخاطر بحياته ليدفع بدعوته إلى الحياة حتى جمع حولها الأتباع والإخوان.

3- القوة السياسية للدعوة:

وهى التي تمثل أنصار الدعوة من آل سعود. وقد ظهرت هذه القوة منذ الاتفاق الديني السياسي بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود في الدرعية 1157 هـ، فقد كان لهذه القوة أثرها الكبير في التمكين للدعوة وإبلاغ صوتها إلى مشارق الأرض ومغاربها ولولا هذه القوة ما استطاع الشيخ أن يثبت بدعوته طويلاً.

4- بيئة الدعوة:

فالبيئة التي ظهرت بها الدعوة (نجد) بيئة صحراوية هي أصلح تربة هذا العمل، بسطاء متقشفون فيهم صفات المروءة والشجاعة والنجدة، ويوجد فيهم الرجال الذين يصلحون لحمل الأعباء.وأيضا فقد كانت تلك المنطقة بعيدة عن عصا الدولة العثمانية وعن نفوذ رجال الدين والمتصوفة وفقهاء المذاهب المختلفة، الذين يحتلون المناصب في الدولة.

5- دور علماء الدعوة:

وهو من العوامل التي ارتكزت عليها أسس نشر الدعوة في العالم الإسلامي، فعن طريق هؤلاء العلماء وصلت أخبار الدعوة ومبادئها إلى كثير من المناطق والبلدان الإسلامية، إما عن طريق مؤلفات هؤلاء العلماء ورسائلهم أو عن طريق انتقالهم بأنفسهم من بلاد إلى أخرى بهدف نشر الدعوة.

6- عصر الدعوة:

فقد ظهرت الدعوة في وقت من أنسب الأوقات لحركات الإصلاح، وعصر من أخصب العصور لها، حيث بلغ الأمر فيه غايته من الانحراف الديني بانتشار البدع والخرافات بين المسلمين.إضافة إلى ما صاحب ذلك من ضعف سياسي، وتقهقر اجتماعي، وتخلف اقتصادي، كل ذلك جعل من الدعوة المنقذ الوحيد للناس، حيث تدعو إلى الفطرة السليمة والتطبيق الكامل لكل مبادئ الإسلام في عصوره الأولى.

7- موسم ومكان الحج:

يمكن القول بأن هذا العامل من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أرجاء العالم الإسلامي.ذلك أن دخول منطقة الحجاز تحت لواء الدولة السعودية الأولى أعطى الفرصة لسائر الحجاج من جميع الأقطار الإسلامية للتعرف على حقيقة الدعوة السلفية والالتقاء بدعاتها ومناقشتهم فيما يدعون إليه.

8- العلاقة التجارية:

وهو ما يطلق عليه: حركة التجارة الإسلامية بين الدول الإسلامية فقد كان لهذه العلاقات دورها في نشر الدعوة السلفية سواء كانت هذه العلاقات التجارية علاقات

فردية يقوم بها الأفراد بعضهم مع بعض، أو علاقات دولية تقوم بها الدولة السعودية مع غيرها من الدول الإسلامية المجاورة لها أو غير المجاورة.

9- خصوم الدعوة:

وأخيراً يجب ألا ننسى دور خصوم الدعوة وبخاصة المفكرين منهم، فإنهم روجوا للدعوة ولفتوا الأنظار إليها من حيث لا يريدون. يقول الشاعر أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف فضل طيب العود

أثر الدعوة في العالم الإسلامي:

لم يقتصر أثر هذه الدعوة على نجد وما حولها، بل امتد شعاعها إلى جنبات العالم الإسلامي كله يومئذ، وتأثرت بها الهند ومصر والمغرب والعراق والشام والسودان وغيرها من الدول فكانت هي رائدة الحركات الإصلاحية في تلك الدول،وهى المصدر الحقيقي الذي استمدت منه نهضتها، لذلك فإن كثيراً من الحركات الإصلاحية اليوم تعتبر امتداداً طبيعياً للحركة السلفية في الجزيرة العربية.

1- الجزيرة العربية:

استطاعت الدعوة أن تحدث تغييراً في تصورات الناس ومعتقداتهم، وأن تعرفهم بحقائق هذا الدين من مصدره الأصيل وهو القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولها الفضل بعد الله عز وجل في القضاء على الشرك والوثنية وفي توحيد

كلمة الناس وجمع شملهم، وإقامة دولتهم التي تسوسهم بشرع الله وتقودهم تحت راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فانتشر بذلك الأمن وعم الرخاء وشعر الناس بالاستقرار وأسست المعاهد والمدارس والجامعات، وأنفقت الأموال بسخاء من أجل رفع مستوى معيشة الناس وتيسير السبل لهم كذلك أثر الدعوة واضح في المناطق المحيطة بالدولة السعودية لاسيما دول الخليج حيث لا يزال أهل تلك المناطق ينهجون منهج الحركة السلفية في معظم الأحيان.

وفي العالم الإسلامي نرى تأثير هذه الدعوة الإصلاحية فقام في الهند: الداعية الإسلامي الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأتباعه في حركات أزعجت الانجليز وناوأت القا ديانية وفي المغرب: الداعية الإسلامي محمد بن عبد الله العلوى وأتباعه يحاربون البدع والخرافات وتشجب الطرق الصوفية وتزعج المستعمر الفرنسي.

وقام في ليبيا: الداعية الإسلامي محمد بن على السنوسى وأتباعه في حركة أزعجت الإيطاليين وحاربت البدع والمنكرات ودعت إلى الإسلام والعودة إلى تطبيق أحكامه وشرائعه في النفوس.

وقام في جزر سومطرة وجاوة وسولو وجاكرتا: جمعيات ودعوات متعددة لنبذ الشوائب والخرافات التى أدخلت على تعاليم الإسلام والوقوف ضد الهولنديين الكفرة.

وقام في السودان: الداعية الإسلامي الشيخ عثمان بن فودى أحد أفراد قبيلة الفولا وأتباعه يحاربون البدع الشائعة بين الناس ويعملون للقضاء على بقايا الوثنية وعبادة الأوثان، وأقاموا الدولة الإسلامية الفولانية على أساس من الدعوة السلفية.

هذا إلى جانب تأثر الحركات الإسلامي التي نشأت بعد سقوط دولة الخلافة، كالحركة الإسلامية في مصر (جماعة الإخوان المسلمين) وجماعة النور في تركيا،

والجماعة الإسلامية في باكستان، وهى في جملتها تعتبر الامتداد الطبيعي للدعوة السلفية في الجزيرة العربية.

تقويم الدعوة:

ما من شك في أن الدعوة الوهابية هي كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، وهى أول الحركات نشأة في القرن الثاني عشر الهجري وهى تعد بحق رائدة الحركات الإسلامية لأن ما عداها يعتبر امتداداً لها، وهى ذات منهج إسلامي أصيل وعميق، ولقد استوحت مبادئها من القرآن الكريم كتاب رب العالمين وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح رضي الله عنهم كما تحقق في هذه الدعوة المباركة كافة الشروط اللازمة لبعث الأمة الإسلامية والنهوض بها.

هذه الدعوة لم تشدد كما يظن بعض الناس، وإنما التزمت بكل ما جاء به الدين ولم تفرط في شيء منه، وفرق كبير بين التشدد والالتزام.وهى بلا شك دعوة إلى تجريد التوحيد من كل الشوائب التى علقت به، وتحقيق العبودية الخالصة لله رب العالمين وحده، كما أن أهلها عدول ينفون عن أمر الدين تحريف الغالبين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وبهذا نلمح في هذه الدعوة المنهج الحركي والشروط التي ينبغى أن تتوفر في الحركة الإصلاحية الإسلامية.

الحركة السنوسية

مؤسس هذه الحركة هو:

محمد بن على السنوسى الملقب بالسنوسى الكبير.

مولده:

ولد في بلدة مستغانم بمقاطعة وهران الجزائرية سنة 1202 هـ .

نشأته وتعليمه:

مات أبوه وهو صغير، وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وأتقن اللغة العربية، ودرس الفقه والحديث والتفسير ثم تاقت نفسه لطلب مزيد من العلم فرحل إلى مدينة فاس ودخل جامعة القرويين، وزار كثيراً من الزوايا وتعرف على كثير من المشايخ والمريدين، ثم رجع إلى الجزائر، ومنها إلى طرابلس الغرب ثم مدينة بنغازى، وغيرها من المدن التى كانت في طريقه إلى مصر حيث التقى بعلماء الأزهر هناك وقد زار هذه البلاد وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج، ثم رحل إلى مكة ومكث فيها فترة التقى فيها بعلمائها، ولا شك أنه تأثر بالدعوة الوهابية وفتحت أمامه آفاقاً من العلم والمعرفة ودفعته إلى التفكير في العمل الإسلامي، ثم رحل إلى اليمن.

وفي أثناء وجوده في مكة التقى بالإمام العباس بن إدريس شيخ الطريقة الإدريسية ولما مات ورثه الإمام محمد بن على السنوسى فجمع حوله الأتباع وأنشأ لهم زاوية في مكة وأخرى في الطائف وثالثة في المدينة.

– ما أهمية هذه الزوايا عند الإمام السنوسى؟

– مما هو جدير بالذكر أن هذه الزوايا كانت مدارس يتعلم فيها الأتباع العلوم الدينية على مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم ثم غادر السنوسى الحجـــاز إلى عدد من مدن المغرب العربي حيث استقر في الجبل الأخضر في طرابلس الغرب الزاوية البيضاء أم الزوايا السنوسية.

رحلاته في طلب العلم:

رأى الإمام السنوسى أن يطوف البلاد لطلب العلم ولقيا العلماء، والتعرف على أحوال الأمة الإسلامية فزار الشمال الأفريقي، واليمن والشام، وعاد ثانياً إلى الحجاز، ليطمئن على تلاميذه وأتباعه، وقد تم له ما أراد حيث استطاع أن يلـــم بـــأحوال المسلمين وأن يتصل بأصحاب الرأى منهم، وهذا كان بعد احتلال فرنسا للجزائـــر عام 1830م ، فأسس كثيراً من الزوايا لنشر الدعوة الإسلامية وأن يضـــع خطـــة متكاملة لإرجاع المسلمين إلى الطريق الذي فقدوه، وعودتهم إلى المنهج الإســـلامي، والتخلص من النفوذ الأجنبي البغيض ورجع السنوسى إلى بلاده وقد قامت حركـــة الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، تلك الحركة التي لم تدم طـــويلاً وانتهت بتطويق فرنسا لها وإحباطها، وامتد النفوذ الفرنسي إلى معظم بلاد المغرب، وبات العالم الإسلامي يحس إحساساً عميقاً بأن أوربا تحكم الخطة للانقضاض على هذا العالم في جميع مواقعه، وأن الخلافة نفسها في طريقها إلى الزوال.

وبدأ السنوسى حركته فوق رمال الصحراء الكبرى في واحة جغبوب في الجنوب ليتمكن من هناك من بناء قوته الحربية التي كانت الشعلة الهادية في طريق تأســـيس الدولة السنوسية بعد جهاد طويل مع المستعمرين.

هذه هي الظروف التي أهابت بالإمام السنوسى أن ينشء حركته في مواجهة الاستعمار.

عوامل قيام الحركة السنوسية:

إن العوامل التى أدت إلى قيام الحركة السنوسية تشبه العوامل التى ادت إل قيام الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، فالمغرب العربى مثل مشرقه في الظروف التى مهدت للحركات الإصلاحية، ومثل الأسباب.

كانت الأحوال فيه تدعو إلى الرثاء، وتشعر بالحسرة والألم في نفس كل مسلم غيور على دينه ووطنه.

فالدين في غياب عن الناس، والعدل لا مكان له، والبقاء للأقوى وداعى الله لا محل له في قلوب الناس، والصوفية هي صاحبة السلطان على طول المغرب العربي وعرضه، والوطن يخضع للنفوذ الأجنبي والأمة تكاد تذوب بفعل الثقافة الأجنبية والحضارة المادية.

مبادئ الدعوة السنوسية:

ككل حركة بعث إسلامية كان هدف الحركة السنوسية هو: إنقاذ المسلمين من كل ما ران عليهم من الانحلال الفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي وما أدى إليه من التخلف والضعف والهوان، فكانت مبادئ دعوته هي:

1- مطالبة الناس بالعودة إلى صفاء العقيدة ونداوة الإيمان والتمسك بروح الإسلام الحقيقة التى هى إخلاص العبودية لله بإفراده وحده بسلطان الألوهية، واعتمدت خطته على أمرين:

(أ) التربية الطويلة لأتباعه على أساس الإسلام .

ومفهوم التربية عند السنوسى يعد مفهوماً شاملاً متكاملاً وهى تكوين الفـــرد المسلم تكوينا يجعله صالحاً لأداء الدور القيادى للبشرية، ومن أجل ذلك اهتم بتربية الروح والنفس والعقل بالتدريب البدنى والتأهيل للقتـــال في ســـبيل الله، واختـــار السنوسى الزوايا لتكون ركيزة لبناء الإنسان المسلم، فكانت الزوايا مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومراكز للإصلاح الاجتماعي، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكـــر، ومعاهد علمية ثقافية، ودورا للقضاء والتقوى، وميادين للتـــدريب علـــى الرمايـــة والفروسية، ومزاولة مختلف المهن وفلاحة الأرض وزراعتها، ومن ثم كان يتخرج من هذه الزوايا كل عام دعاة يجوبون العالم الإسلامي للدعوة إلى الله تعالى ونشر دينـــه الحق.

(ب) مجاهدة الكفار الذين اعتدوا على أرض المسلمين، وذلك لا يكون إلا بعد إعداد المجاهدين، الذين يجاهدون في سبيل الله عن إيمان ومعرفة وممارســـة للإســـلام والتخلق بأخلاقه.

(ج) الانطلاق في الأرض لتوحيد المسلمين وإعلاء كلمة الله بتنفيذ شرعه وإقامة شعائره، والخضوع لسلطانه.

(د) وضع برنامج إصلاحى يستبعد الصدام المسلح مع الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية وقد أخطأت في بعض الأمور، وتسببت في انحطاط المسلمين.

(هـــ) العودة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية لأخذ العقيدة الصافية، التي تنبثق منها الشرائع والأخلاق.

أثر الحركة السنوسية:

كانت خطة السنوسى خطة ناجحة حقق بها الانتشار لدعوته، وامتدت الزوايا إل كل مكان إلى السودان وتشاد ويرقة، وسيوه وطرابلس، ووصلت إلى الصومال شرقاً والسنغال غرباً وإلى واقع حي تمثل في الحقيقة وحدة حية متكاملة ترمز إلى فكرة الإسلام.

الزاوية هي: مدرسة ومسجد وحصن، وميدان للعمل، ومركز للتجارة، إليها يلجأ طلبة العلم، وفيها يترل أهل الحاجة والمسافرون، ومنها تنطلق كتائب الجهاد، وتتحرك وفود الدعوة وفرق المقاومة وأفواج المزارعين، وفي ساحاتها يتدرب الأتباع على فنون القتال، ووسائل المقاومة.

إن التاريخ ليشهد بالدور البطولي الفذ الذي لعبته الزوايا في نشر الدعوة وعرقلة نفوذ الاستعمار.

وكانت واحة جغبوب في الصحراء الليبية مدرسة لتخريج الدعاة الذين ينطلقون من حافة الصحراء إلى البلاد الوثنية وكان من أثر ذلك أن دخلت قبائل وثنية كثيرة في الإسلام، وأسست ممالك إسلامية مثل سلطنة رابح وأحمد وساموری.

ثم إن المجاهدين السنوسيين اشتركوا في مجاهدة المستعمرين تحقيقاً للهدف الثاني من الحركة السنوسية، ثم أخيرا وصلت الحركة إلى السلطة في ليبيا وتولى أبناء السنوسى الحكم فيها.

تقويم الحركة السنوسية:

لا شك أن حركة السنوسى كانت حركة بعث جديد توافرت لها الشروط اللازمة لمثل هذه الحركات.

فقد كان الإمام يدرك أن الإسلام منهج حياة كاملة للبشرية وشامل لجميع نواحيها الإنسانية سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وفكرية وتربوية وعقلية، وكذلك كان على وعى كبير بأحوال الأمم حوله وبطبيعة العداوات التي تحيط به، كما كان على علم أن المنهج القويم لأي حركة بعث هو في تربية الأفراد على الإسلام وتخليصهم من كل شوائب الشرك ورواسب الجاهلية، وأن يربط بينهم وبين الله برباط وثيق، ثم ينطلق بهم إلى الجهاد، بهذه الروح التي ارتضت الإسلام ديناً ومنهجا.

ثم إنه نجح في دعوته وأدخل قبائل شتى في دين الله أفواجا عن طريق النماذج الصالحة التي جابت هذه البلاد، ثم كانت مساهمة الحركة في كل حركات الجهاد في المغرب، وأخيراً كون دولة في ليبيا على أساس هذه المبادئ الواضحة.

ولقد استفاد السنوسى من حركة عبد القادر الجزائري فتجنب سرعة الصدام بالمستعمرين قبل أن يربى الجنود تربية إسلامية كما استفاد من حركة محمد بن عبد الوهاب في أنه لم يصطدم بقدر.

الحركة المهدية

أسس هذه الحركة الإمام محمد أحمد عبد الله الملقب بالمهدي.

مولده:

ولد الإمام محمد أحمد بن عبد الله المهدي في سنة 1260هـ - 1884 م في جزيرة أبا في النيل الأبيض تابعة لدنقلة.

وقد عرف عن أبيه إلى جانب مهنته في صناعة السفن، والتجارة بها، علمه بالفقه والتفسير، وحرصه على تعليم ابنه القراءة والكتابة، وعلوم القرآن وغيرها، فحفظ الابن القرآن الكريم وهو في الثانية عشرة من عمره.

وأحب الوالد لولده الخير كله، ففقهه في الدين، وأرشده إلى طريق الخير وجنبه سبل الضلال، وصنع له كبار المربين لأبنائهم، الحريصون على تنشئتهم على مكارم الأخلاق ومحاسن الأمور إلا أن والده ووالدته توفيا وهو صغير، فاحتاج إلى العمل مع عمه في السفن مدة قصيرة تساعده على تكميل دراسته وتحصيله العلمي.

رحلاته العلمية:

رحل الإمام المهدي إلى الخرطوم العاصمة ليواصل دراسته هناك فقرأ الفقه والتفسير والتوحيد، والتزم الشيخ بما تعلم من علوم حتى اشتهر بالصلاح والتقوى والزهد في الحياة، وانقطع الشيخ الإمام للعبادة، ودخل باب التصوف ومارسه علماً وعملاً تحت إشراف مشايخ الطرق الصوفية وبصحبة المريدين.

إلى جانب هذا عمل الشيخ في التجارة يبيع ويشترى، وساعده هذا الاحتكاك بالناس، في دعوتهم إلى الله عز وجل حتى كثر مريدوه وأقبل عليه الناس من كل مكان.

ثم بدا للإسلام المهدي أن يدرس عقيدة السلف الصالح رضي الله عنهم وفقه الأئمة، وفتاوى الصالحين، وقد كان ذلك بداية نشاط ملموس خارج نطاق الطرق الصوفية.

هذا وقد لوحظ على المهدي اتجاهه الوجهة السلفية وحرصه على دعوة الناس إليها حتى انصرف كلية إلى نصح العلماء ومشايخ الطرق وزعماء القبائل وكبار موظفي الدولة وغيرهم من المسئولين، فضلاً عن عامة الناس، وكان الناس بين مؤيد ومعارض لدعوته.

واستجاب لدعوته السلفية عامة الناس، ورفض كثير من العلماء، والمشايخ نداءاته المتكررة لهم، ودار صراع بينه وبين بعض أصحاب الطرق أدى هذا الصراع إلى خلافات كبيرة ومريرة.

ولقد كان لدعوته هذه صدى محدوداً بين الجماهير حتى اضطر الإمام إلى تأجيل هجرته إلى مكان يكون له ولدعوته موطناً.

الأسباب التي أدت إلى قيام الحركة المهدية:

قامت الحركة المهدية امتداداً لدعوة التوحيد في الجزيرة العربية، وعايشت الفترة التي وصل فيها المسلمون إلى تلك الحالة من التخلف والاضمحلال في كل شيء.

ولما زار الشيخ جنوب كردفان واستقر رأيه على أن يكون جبل قدير مقراً لدعوته.

وقي كردفان نشر رسالة من تأليفه يدعو فيها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام.

وزاد المهدي منعة بمبايعة وزيره عبد الله التعايشى على القيام بدعوته، وقويت عصبيته بقبيلة البقارة وقد تزوج منها.

ومن خلال رحلاته وتنقلاته رأى أن المسلمين يعانون من الضعف والهوان والتمزق فضلاً عن الانحراف على شئون حياتهم عن المصدر الحقيقي لعزتهم، وتلقى السودان أصداء هذه الأوضاع، وعانى منها كما عانت بقية البلدان العربية الإسلامية، ومن ثم قامت حركة المهدي تطالب بالعودة إلى الإسلام والتخلص من كل النفوذ الأجنبي، والبحث عن الوجود الإسلامي على أسس من المنهج الرباني القويم.

مبادئ الدعوة:

لقد دعا الإمام المهدي إلى العودة إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونبذ آراء الرجال، وحاول التوفيق بين المذاهب الفقهية، وعدم التفرق بسببها ودعا إلى الجهاد في سبيل الله وإعداد القوة لإعلام كلمة الله وتنفيذ شرعه بين العباد.

لقد نجح المهدي في إقامة حركة جهادية تقوم على أسس الإسلام، وجمع السودانيين على مفهم الإسلام الصحيح، ورباهم على أخلاقيات هذا الدين.

ولقد جاهد الاستعمار الانجليزي جهادا مريراً، وانتصر في كل المعارك التي دخلها، وهزم قادة الإنجليز الكبار وغم قلة العدد والعدة، ولكن هذا حدث بفضل التربية الإيمانية والتوكل على الله.

واستطاع أن يسيطر على السودان ويكون دولة عاصمتها الخرطوم وأقام في هذه الدولة شرع الله عز وجل، ونشر العدل وأقام الحدود، ووجه الحياة الاجتماعية وجهة إسلامية.

ومما يذكر للإمام المهدي أنه جمع أموال الأغنياء، وأعداد توزيعها مرة أخرى، وذلك في أسلوب ممتاز من أساليب التربية، حيث تم هذا عن طريق الاقتناع والطواعية وليس عن طريق السلطة.

لقد أثرت الحركة المهدية في مجرى الحياة السياسية والدينية بين الناس، واستطاع المهدي أن يثبت أمام أعدائه، ويشعرهم بكيانه المستقل، بعد تصديه لهم في حروب طاحنة أرقت مضاجعهم حتى اضطروا في النهاية إلى تجريد حملة كبيرة بقيادة كتشنر القائد البريطاني، الذي هزم خليفة المهدي من بعده، عبد الله التعايشى.

ولقد كان عبد الله التعايشى ساعده الأيمن في هذا الجهاد فقد جاهد معه وحمل الأمانة منه بعده، ولكن الإنجليز لم يتركوا دولة الدراويش بعد وفاة المهدي فحملوا عليها حملة كبيرة واستطاعوا أن يدخلوا السودان بعد مقتل عبد الله التعايشى كما أن هذه الحركة آمن بها الكثيرون من القبائل السودانية وغيرهم، ولا يزال لها أتباع وأنصار، ولكن في مجال ضيق وذلك بسبب الأوضاع والأنظمة القائمة في السودان وما جاورها.

تقويم الحركة المهدية:

لقد دعت الحركة المهدية إلى العودة إلى الإسلام والاستمداد من مصادره النقية وهى القرآن الكريم كتاب رب العالمين وسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وطرح كل الخلافات والآراء التي تسببت في فرقة المسلمين وضعفهم وتشتتهم

والأخذ بمنهج الله تعالى في الحياة على أساس أن الإسلام يدعو إلى تعمير هذه الأرض كما يدعو إلى العمل للآخرة، كما أن الإسلام هو الصيغة الربانية للحياة البشرية الذي يهيمن على كل ناحية من نواحى الحياة، ويستجيب لكل حاجات الإنسان ومطالبه في حدود التوازن والسمو من خلال عبادة الله وحده بلا شريك معه.

كما أن المنهج الذي سار عليه الإمام المهدي وهو الدعوة إلى الله وتربية الأتباع تربية إيمانية، ثم الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله، لتوحيد المسلمين تحت قيادة إسلامية راشدة.

أما العوائق الذاتية:

فهي أنها أسرعت إلى الصدام في بيئتها المحلية بالقوى المعادية لها دون أن تحاول أولاً أن توسع مساحة المعركة، ودون أن تقوم بحركة إيقاظ شاملة في العالم الإسلامي كله، يضمن لها رصيدا من التأييد ويجمع لها عناصر القوة، وكان في استطاعة العالم الإسلامي إذا توحد أن يقف في وجه هؤلاء الأعداء ويتغلب عليهم كما حدث دائماً وكان هذا يتوقف على دعامتين:

الأولى: وهى التربية الطويلة العملية على مفهوم الإسلام الصحيح الذي غاب عن وعى المسلمين، وكان هذا بالطبع يحتاج جهداً وزمنا.

الثانية: وهى الاستعداد المادي والتخطيط الدقيق بما يتناسب مع أشكال الصراع الجديدة ووسائلها وذلك بالأخذ بأسباب العلم الحديث وإعداد العدة بما يكافئ أساليب الصراع التي جدت في هذه الفترة من الزمان.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحركات الثلاث كانت تبغي الخلافة الراشدة و لم تكن تنظر إلى الخلافة التركية نظرة الكراهية العنصرية ولا على أساس أنها نوع من

الاستعمار، ولكن كان الهدف هو إصلاح هذا الحكم أو استبداله لمصلحة الإســـلام والمسلمين.

بصرف النظر عن الجنسية أو العنصرية، أو بمعنى أدق أن هذه الحركات لم تدع إلى القومية وإلى العنصرية، ولكن إلى الإسلام بمفهومه الكامل كدعوة عالميـــة، و لم تكره الأتراك بقدر ما كانت تكره أخطاءهم التي تسببت في انحطاط المسلمين.

حركة الشهيد أحمد بن عرفان

تنتسب هذه الحركة إلى رائد الإصلاح والجهاد أحمد بن عرفان الحسنى، مصلح الهند العظيم والمجاهد الكبير، رائد كبرى حركات الإصلاح والتجديد في القرن الثالث عشر الهجرى.

مسرح الحركة:

كانت الهند مسرح العمل لهذه الحركة التاريخية الكبرى في حياة المسلمين الهنود،في القرن الثالث عشر الهجرى، وهى تعتبر أحرج فترة وأدقها في تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند.

وتعتبر الهند من المناطق الحارة ومن أغزر بلاد العالم أمطاراً، يفصلها عن الصين جبال (هيمالايا)، كما يفصلها عن بلاد الأفغان جبال (هندكوش)، وفي جنوب هذه الجبال سهول خصبة، وفي جنوب هذه السهول تمتد هضبة (الدكن)الشهيرة.

دخل الإسلام الهند عن طريق التجار المسلمين سلما، وعن طريق السند حربا بقيادة القائد محمد بن القاسم الثقفى زمن ولاية ابن عمه الحجاج بن يوسف الثقفى إمارة العراق والمشرق.

الظروف التى نشأت فيها الحركة:

كانت الهند تعيش أحلك أيامها وأحرج فترة وأدقها في تاريخ الإسلام والمسلمين وذلك بسبب الاستعمار المسيحي والهندوكي الذي استولى على معظم البلاد مضطهدا وظالما ومبشرا بتعاليم المسيحية المزيفة، وداعيا إلى عبادة الرهبان،وإلى عبادات ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان من نتيجة أبطال المستعمر المسيحي والوثني بالمسلمين الهنود، مسخ حياة الناس السياسية، وفساد عقيدتهم الدينية، وأصاب المجتمع الإسلامي داء عضال تكاد تكون فيه نهايته، فتفسخت الأخلاق، وانهارت القيم، وانتشرت الفوضى، وعمت الرذائل وهتكت ستر الحرمات، فلا يرى في الهند سوى المستبدين الغاشمين والمستهترين بالقيم والأخلاق وبالدين، والمقترفين للمعاصى والمنكرات، لا يهمهم إلا مصالحهم مع أرض الهند، وكأن الهند لم تعرف الفاتحين من المسلمين، وكأن ثمانية قرون ونصف القرن من الحكم الإسلامي أصبحت أثراً بعد عين.

حالة المسلمين في الهند:

لقد فشت فيهم الصوفية بوجهها البدعى الدخيل، وكثرت الزوايا والطرق، وكثر الأدعياء والجهلاء، وظهرت البدع والمنكرات والخرافات وكثرت الفتاوى من مشايخ السوء من المبتدعة وأصحاب القبور، وطمست معالم الدين، واستهان الناس بشعائر الله، وقصر العلماء والأمراء في الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقام بهدفه الأصيل، وهو تنقية الباطن وإصلاح القلوب بصدق التوحيد وإخلاص العبودية لله رب العالمين.

وكانت الهند قد بليت بالاستعمار الأجنبى الذى عمل على إذابة المسلمين وإخضاعهم للسيطرة الهندوكية، ومكن المستعمر للقلة الكافرة أن تتحكم بالكثرة المؤمنة، فحكم السيخ من البنجاب إلى أفغانستان وتمكن الإنجليز من الحدود الساحلية، والمسلمون كالأنعام الضالة، وكقطعان الغنم لا راعى لها ولا حارس ولا تهتدى سبيلاً، وشجع المستعمر الإنجليزي على الفتن والاضطرابات واللقاءات المسلحة بين المسلمين الضعفاء، وبين الهنادكة المؤيدين بسلطانه وصولجانه، وعمل

على طمس الشخصية الإسلامية بتفرقة القبائل والعشائر بين تجمعات الكفرة وصاروا قلة، فلم تعد لهم ذاتية الحكم والسياسية التى كانوا يعيشون فيها أكثر من ألف سنة.

وقد تحدث الشيخ أحمد بن عرفان عن الوضع الذى كان سائداً في بلاده في رسالة وجهها إلى بعض الإخوان، قال:

من مصادفات القدر- أى من قضاء الله وقدره-أن الهند ترزح تحت نير الاستعمار المسيحى والهندوكى منذ عدة أعوام، فقد استولى هذا الاستعمار على معظم البلاد مضطهدا ظالماً، وقامت تقاليد الكفر والشرك على قدم وساق، وأصبحت شعائر الإسلام وتعاليمه مغلوبة، وذلك ما أثار في نفسى قلقاً وحزنا، وبعث فيها دافع الهجرة، وأشعل في قلبى شعلة الجهاد.في ظل هذه الظروف القائمة والأحوال المؤلمة، ومن بين ركام الجهل والظلم الذي فرض على المسلمين في شبه القارة الهندية، قام الإمام أحمد بن عرفان ينفض غبار الذل عن المسلمين الكافرين، وشحن القلوب بحرارة الإيمان ويذكر المسلمين بمحمد بن القاسم، ومحمود الغزنوى، وشهاب الدين الغورى، وقطب الدين المملوكى، وغيرهم من قادة المسلمين الذين رفعوا شأن الإسلام بتطبيق أحكامه ونشر عدله بين الناس ويدعو إلى حركة إسلامية كبرى تحيى القلوب الميتة وتوقظ النفوس الجامدة، وتقيم الدولة الإسلامية التى تحكم الناس بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

مولده:

ولد الإمام أحمد بن عرفان في قرية من قرى (راى دهلى) ينتهي نسبه إلى سيدنا الإمام الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكان مولده في عام 1201هـ-1786 م.

والإمام من أسرة عريقة النسب والعلم والفضل، تربى في زاوية الشيخ (علم الله النقشبندى) وكان أبوه يتولى تربيته بنفسه ويعلمه القرآن والقراءة وحفظ السنة، وآداب الطريقة القائمة على استسلام المريد للشيخ استسلاماً مطلقاً من كل قيد أو شرط.

ولكن الإمام أحمد بن عرفان انصرف عن هذه الطريقة، وتناكرت روحه من روحها واختلفت ورضى بالقرآن والذكر، والعبادة والدعاة والنوافل، والمناجاة مع الله، وأقبل على الرياضة الجسمية وتعلم الرماية والمصارعة، والجرى والسباحة، فتجمعت لديه قوة البدن، مع قوة الإيمان وزاده الله بسطة في العلم والجسم، وهيأه لتحمل المسئولية في تجديد أمر هذا الدين الذى ذهب حلاله وبقى حرامه ولما مات أبوه وهو في الطريقة شيخه، رحل الإمام (دهلى) لتحسين حالته المعيشية، والإنفاق على أسرته، وهناك التقى بالشيخ (عبد العزيز بن ولى الله الدهلوى) فدرس القرآن والتفسير والفقه والحديث وكره بعض المصطلحات التى كان يستعملها علماء ذلك العصر.

وفي مدة قليلة بلغ الإمام مترلة عظيمة في نقوس أساتذته ومدرسيه وظل على هذا الحال حتى عاد إلى بلده،وأقام فيها عامين، ثم رحل إلى دهلى مرة أخرى، فقابله الناس بحفاوة اللغة وأكرموه وأحسنوا إليه وطلبوا مبايعته غير أنه لم يرض بذلك كل الرضى.

وغلب عليه الشوق إلى الجهاد في سبيل الله، فذهب إلى معسكر حاكم ولاية تونك الأمير المجاهد (نواب خان) الذى كان يجاهد الإنجليز، وقاتل معه ست سنين، ولكنه ترك الجندية لما رأى المصالحة بين الإنجليز والأمير، ورجع إلى (دهلى) فالتف

الناس حوله يكتسبون من علومه ومعارفه، وخاصة عقيدة السلف، والدعوة إلى الطريقة السلفية ورجع الإمام إلى وطنه ومسقط رأسه يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن معه ومن اتبعه من المؤمنين، ومر الإمام وهو في طريقه إلى الوطن على مدن كثيرة ودعا أهلها إلى عبادة الله وحده، وظل على هذا الحال حتى يسر الله له الحج إلى بيته الحرام وزيارة مسجد رسوله صلى الله عليه وسلم والسلام على الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولما قضى هذه الفريضة عاد إلى الهند ليقوم بفريضة أخرى هى فريضة الجهاد في سبيل الله وإقامة دولة الإسلام لإنقاذ شريعة الله، وقامت بينه وبين أعداء الله معارك كثيرة أيده الله ونصره فيها وحق على يديه الدولة الإسلامية الخالصة التى كان للإسلام فيها الكلمة النافذة وللسيد أحمد بن عرفان الحكم والإدارة.

وظلت الدولة قائمة إلى أن ثار أهل تلك المناطق عليه وعلى جماعته تدفعهم العصبية القبلية ويحذرهم علماء السوء ومراكب النفاق، فأعملوا فيهم السيف والمدفع واضطروهم إلى الرحيل إلى أرض الله الواسعة إلى كشمير، فوصلوا إلى (بالاكوث) في الطريق إلى كشمير والتقوا بالقائد (شير سنغ) قائد السيخ، وبدأ الحرب معهم على الطريقة الإسلامية يعنى: الدعوة إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وحمى الوطيس واستشهد الإمام السيد أحمد، وصاحبه الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الغنى، وكان ذلك في يوم الجمعة 24 من ذى القعدة عام 1246 هـ-1831 م وانتهت بذلك دولة الإسلام في الهند التى لم تدم سوى بضع سنين.

مبادئ الحركة:

يمكن تحديد مبادئ الدعوة في أمرين:

الأول: الدعوة إلى التوحيد الخالص من جميع مظاهر الشرك والبدع وإلى تطبيق شريعة الله عز وجل.

الثانى: الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، لتحقيق الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في ظل حكومة تحيى نظام الإمارة والإمامة.

وكانت خطته للوصول إلى هدفه هى تكوين جماعة منظمة تخلص ضمائرها من كل أنواع الشرك وألوان البدع، وتخلص في الدعوة إلى الله، وتأخذ على عاتقها قتال الأعداء، وإنشاء دولة إسلامية على غرار الدولة الإسلامية الأولى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

ونظم الإمام هذه الجماعة، وأحسن تربيتها، فكنت لا ترى إلا أيادي متوضئة ووجوهاً ساجدة، وأعينا باكية، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه أمام جمع من المسلمين في الصدر الأول.

خصائص الدعوة:

ومن خصائص دعوته وجماعته التي تلفت النظر أنها كانت تجمع بين جهاد النفس وجهاد العدو، وبين الحب لله والبغض لله، وبين الزهد والعبادة، والحمية الدينية والعزة الإسلامية وبين السيف والمصحف والعقل والعاطفة، وبين التسبيح في المسجد، والبيت في ظلام الليل،وبين التكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل،وبين الدعوة إلى الدين الخالص وتصحيح العقيدة، والتربية الإسلامية الصحيحة

وبين تطبيق الشريعة الإسلامية، وتنفيذ حدود الله وإقامة الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة وتكوين المجتمع الإسلامي المتكامل والعمل بقول الله عز وجل:﴿**وَقَاتِلُوَهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾.[البقرة :193].

حاربوا الشرك بأنواعه، وأماتوا البدع والخرافات، وأحبوا السنن والمندوبات، وجادلوا المشايخ والأدعياء الجهلاء، الذين كانوا يحتجون بتقاليد خرافية وعادات جاهلية، وحملوا على الصوفية المبتدعة ودعوا إلى السلفية الخالصة، وبينوا للناس مفهوم الزهد، ومعنى الشفاعة، والولاية، والشرك، إلى غير ذلك من المفاهيم الإسلامية التي أخطا كثير من المسلمين في فهمها.

وإلى جانب هذه الأعمال الجليلة حاربوا أهل الكفر والضلال، والتقوا مع الإنجليز في حروب سجال، وأذاقوا الهنادكة ويلات الحرب والقتال حتى كونوا نواة الدولة الإسلامية الكبرى، وأسسوا فعلاً دولة شرعية ونفذوا الحدود الشرعية، وطبقوا النظام الإسلامي تطبيقاً دقيقاً،فكان ظهور هذه الدولة في الحدود الهندية الشمالية والغربية وقاية للأمة الإسلامية في شبه القارة الهندية من الانحلال الذى كان يهددها بالفناء، وعصمة لها من الفتن التي أحدقت بها، ومن الشرك والضلال الذى تمكن منها، وحصناً منيعاً من الخطر المحدق بالوجود الإسلامي في تلك المنطقة.

لقد دامت هذه الدولة أربع سنوات، ذكرت الناس بعهد الخلفاء الراشدين، وقامت القبائل الأفغانية المضللة بفتنة وضعت السيوف في رقاب الفئة المؤمنة، وقتل الإمام في (بالاكوت)وهو في طريقه إلى كشمير، وماتت الحكومة الإسلامية وهى لا تزال في مهدها، ولكن الأثر الذي خلفه الإمام الشهيد لم يمت، ولن يموت بإذن الله.

آثار هذه الحركة الإسلامية العظيمة كثيرة وجليلة، ولو لم يكن منها غير تصحيح معتقدات الناس، وتقرير مذهب السلف الصالح، والرد على المبتدعة لكفاها

فخراً وعظمة، فكيف وقد كان من مآثرها الجليلة أنها أحيت ركن الجهاد والحج في الهند، ورغبت في تزويج الأيامى والعوانس، وتاب على أيدي مؤسسها ألوف البشر من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات .

إن هذه الحركة الإسلامية التي قضى على دولتها وهى لا تزال في مهدها قد أثرت في المجتمع الهندى تأثيراً كبيراً، ولا يجوز لنا أن نغفل ذلك الأثر الكبير بسبب أن النتيجة المرجوة وهى إقامة الخلافة الراشدة لم تدم سوى أربع سنوات، ولكن مآثر الحركة ظلت بعد هدم الدولة فالعبرة بالنية والاجتهاد في العمل، وأما النتائج والمكاسب فمن عند الله، والمعول على النوايا والأعمال لا على النتائج والمكاسب.

لقد أحيت هذه الحركة معالم الدين، ودعت إلى التوحيد واتباع السنة وأماتت البدع والمحدثات، ودعت إلى ترك الفسق والفجور، والابتعاد عن الأدعياء وأصحاب القبور.

كذلك أحيت في النفوس حب القتال، وبذل الولد والمال في سبيل الله بعد أن عاش المسلمون حياة الذل والهوان.

كذلك أحيت نظام الإمارة والإمامة وأقامت النظام المالي والقضائي الإسلامي، ونظام الحسبة وتنفيذ الحدود الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. إلى غير ذلك من مهمات الخلافة الإسلامية الصحيحة وسمات المجتمع الإسلامي المثالي.

تقويم الحركة:

لا شك أن حركة الشهيد أحمد بن عرفان نجحت نجاحاً باهراً في تبيين قضية التوحيد، وتخليصه مما علق به من البدع والمنكرات ورده إلى صفائه ونقائه، ورد الناس إليه بعد أن كانوا يشركون بالله ويستغيثون بالمشايخ والأنبياء والأئمة والأولياء

والملائكة والشهداء والجن فينادونها عند الشدائد، لتفريج الكربات ويسألونها بأسمائها لقضاء الحاجات.

وهذا المسلك من الحركة في الدعوة إلى إخلاص العبودية لله هو منهج السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم على الكتاب والسنة.

وقد التزم الإمام الشهيد بالكتاب والسنة التزاماً أميناً، والتزم بهما أتباعه وأصحابه فأقيمت الحدود الشرعية، وأمر بالمعروف، وتخلق مجتمعهم الحركى بأخلاق الإسلام وآدابه، ورضوا بسلطان الله عليهم وحاولوا أن يكونوا صورة كاملة لما كان عليه المسلمين في صدر الإسلام وأن يكون المثل الأعلى لمجتمعهم ما كان عليه المجتمع في صدر الإسلام وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فاقتدى الناس بهم وبايعوا إمام الحركة ودخلوا في دعوته أفواجاً.

وقد أدرك الإمام الواقع الجاهلى الذى يحيط به وأدرك واقع المجتمع الإسلامي الذى يعيش فيه وينتسب إليه فعرف كيف يتحرك ومن أين يبدأ وكيف ينتهى، واطلع على أحوال المسلمين خارج القارة الهندية خاصة في رحلته إلى الحج التى استقى فيها من الحركة السلفية فكرة الجهاد وإخلاص التوحيد.

لذلك فقد استكملت هذه الحركة جميع الشروط التى ينبغى أن تتوفر في الحركة الإسلامية، وكان منهجها الحركى أصيلاً حيث واجهت الواقع الجاهلى والقائمين عليه بواقعية جديدة حركية وحددت علاقتها مع جميع القوى المحيطة بها وضبطت تلك العلاقة على أساس من الكتاب والسنة.والحق أن الحركة صححت تصورات الناس ومعتقداتهم وحرصت على تربية أبنائها على أساس الإسلام في الأخلاق والسلوك والمعاملات وفي كل ناحية من نواحى الحياة.

كما أن شخصية الإمام الشهيد كانت قدوة حسنة وأسوة طيبة، ولقد جاهدت الحركة جهادا طويلاً وقدمت شهداء كثيرين وعلى رأسهم الإمام الشهيد وصاحبه الشيخ إسماعيل الدهلوى، وطائفة من خيار المسلمين، ولكن القوى المحيطة بهم كانت أكبر منهم وأشد: ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.صدق الله العظيم .

حركة الشيخ عثمان بن فودى

خرجت قبائل الفولانيين –الرعاة– من بلاد فوتاتورا الواقعة في منطقة وادى نهر السنغال في القرن التاسع الهجرى وانتشرت في المنطقة الممتدة من السنغال إلى تشاد.

من هؤلاء القوم ظهر رائد من رواد القرن الثالث عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى، غير وجه التاريخ بدعوته الإصلاحية، وأقام للإسلام دولة بحنكته السياسية، وصار له شأن يذكر في كتب التاريخ المعاصر، وكتب طلبة العلم في شخصيته ودعوته رسائل علمية وبحوثا قيمة.

إنه الشيخ عثمان بن فودى.

تسبه ومولده:

هو الشيخ عثمان بن محمد بن صالح بن هارون يكنى بأبى محمد، وبلقب بالشيخ، وقد اشتهر بهذا اللقب وكاد أن يكون علماً له.

ولد في مدينة(قراتا) بأرض تسمى (غوير)سنة 1168 هـ الموافق 1754م.

نشأته:

نشأ الشيخ عثمان في بيت صلاح وتقوى، لأبوين صالحين، شهد بذلك كثير من قبائل الفولانية، وأبوه محمد يلقب بالفودى، ومعناه: الفقيه باللغة الفولانية وأمه حواء وجدته رقية معروفتان بالعلم والمعرفة، وأخوه عبد الله فقيه ومفسر وعالم باللغة العربية والسياسة الشريعة فلا عجب أن ينبت الشيخ نباتاً حسناً، خاصة وأن والده حفظه كتاب الله بنفسه، واعتنى به عناية شديدة منذ صغره فأرسله ليحصل العلوم الدينية عند طائفة من خيرة علماء بلده فدرس الإعراب وعلوم النحو من الشيخ عبد الرحمن ابن حمدان.

وقرأ المختصر في الفقه المالكى على عمه، ودرس التفسير عند الشيخ أحمد بن محمد الأمين، ودرس الحديث عند الشيخ محمد بن راج، وقرأ عليه صحيح البخارى، وقرأ لفريق من العلماء ورواد الفكر في بلاده أمثال الشيخ عبد الكريم التلمسانى.

وارتحل الشيخ عثمان لطلب العلم عند الشيخ جبريل بن عمر في مدينة (أغاذيس) ولازمه سنة كاملة.ثم رأى الشيخ في نفسه قوة الداعية إلى الله، فبدأ بدعوة عشيرته ثم قام برحلات متكررة لنشر الدعوة في أماكن مختلفة من بلاد غوير وما حولها، حتى ذاع صيته وانتشر خبره بين الخاصة والعامة وكثر أتباعه، والملتفون من حوله فأرسل إليه ملك أرض غوير يسأله عن دعوته، فلما حضر بين يديه شرح له الإسلام، وطلب منه التمسك به، وإحياء معالمه وإقامة العدل بين رعيته، فشرح الله صدر الملك إلى هذه الدعوة وأسند إلى الشيخ وظيفة الفتوى في مجلسه، وانتهز الشيخ هذه الفرصة لنشر الإسلام بين الطبقة الحاكمة إلى جانب دعوته العامة من الناس.

ثم توجه الشيخ عثمان إلى بلاد (زانفوى) لحاجة أهلها إلى العلم والمعرفة، ولجهلهم بحقيقة الألوهية وابتعادهم عن مفاهيم الدين.

أقام الشيخ عثمان هناك خمس سنين استطاع أن يحقق مكاسب للدعوة والدعاة،وأن يوسع دائرة نشاطه مما يقوى أتباعه ومريديه، ولكن الحال تغير وتبدل عندما ولى الحكم رجل ضال، خاف من سعة نفوذ الشيخ وأتباعه، فأمر بالتضييق على الشيخ ومن معه، ووضع القوانين الجائرة للحد من نشاط الشيخ، وحاول طمس معالم الدين ومنع دخول الناس في الإسلام.

وزاد الطين بلة الكتب التي أرسلها حاكم البلاد إلى الحكام المجاورين يحثهم فيها على منع الحركة الإسلامية، ويؤلبهم على أعوان الشيخ ومؤيديه، و لم تفد رسائل

الشيخ إليهم لبيان حقيقة دعوته، فأخذ كل حاكم يضطهد من كان بناحيته من أعوان الشيخ مما عجل ببعض الثورات الإسلامية عليهم وهكذا اتسعت دائرة الخلاف بينهم وبين الدعوة إلى الله وخاصة في أرض غوير مكان إقامة الشيخ، مما اضطر الشيخ إلى الهجرة ومن معه إلى (غدو) على الحدود الغربية لمملكة غوير سنة 1218هـ وكانت هذه الهجرة نقطة تحول مهمة في دعوة الشيخ عثمان الإصلاحية، لأنها كانت بداية المعركة الحقيقية مع الضلال وإيذانا بالصراع المسلح الذى انتهى بقلب نظام الحكم في ممالك بلاد (هوسا) وبالنصر على ملك غوير.

عقد الشيخ عثمان الألوية الإسلامية، وبعث بها إلى ممالك الهوسا السبعة وما يتبعها من إمارات، وكانت المعارك تسفر عن نصر كبير للجيوش الإسلامية، وأخذت الممالك تسقط واحدة تلو الأخرى، حتى ذلك ممالك الضلال، ودان الناس للدعوة الإصلاحية.

وفي عام 1224 هـ تم للشيخ عثمان السيطرة على المناطق المهمة في نيجيريا وما حولها، وتم تأسيس الدولة الإسلامية التى سميت بالدولة الفولانية الإسلامية.

وقسم الشيخ عثمان البلاد المفتوحة إلى قسمين:

القسم الشرقى:

وعاصمته (سوكوتو) وأمر عليه ابنه محمد بلو.

أما هو فقد انحاز إلى قرية (سيفاوا) ثم إلى قرية (سوكوتو) ليقضى ما بقى من عمره في الدعوة والإرشاد والتأليف وفي سنة 1232هـ توفى الشيخ عثمان بن فودى وله من العمر ثلاث وستون سنة، غفر الله له ونشر عليه من رحمته.

مبادئ الدعوة:

يمكن تحديد مبادئ دعوة الشيخ عثمان بن فودى وأهدافها من خلال حديثه مع أتباعه وتوجيهاته المستمرة لهم، ورسائله إلى القادة والملوك في مختلف الأمكنة بخلاف رسائله ومؤلفاته التى استعملها في تحقيق أهدافه وتبليغ دعوته.

وكان الشيخ عثمان يهدف إلى الأمور التالية:

1- بيان مسائل الإيمان بالله عز وجل وأسمائه وصفاته وأفعاله مع إقامة الدليل على وحدانية الله وتفرده بالعبادة والمعرفة.

2- بيان ما يتعلق بموضوع النبوات وما إلى ذلك من كتب الأنبياء والوحى والمعجزات، مع إقامة الدليل على بذلك من الكتاب والسنة والعقل والفطرة.

3- بيان ما يتعلق بالكونيات- الجن والملائكة-والسمعيات من بعث ونشور، وجنة ونار مع إقامة الدليل على ذلك من النقل.

4- الدعوة إلى ولاية الله عز وجل ورسوله والمؤمنين ونبذ ولاية الكفار وغيرهم، مع بيان العلاقة مع هؤلاء حسبما ورد في القرآن الكريم وفي إطار من السنة والفقه.

5- إصلاح المجتمع، وإرساء قواعد الدولة الإسلامية وذلك بتربية الأفراد وتأسيسهم على قواعد الدين الحنيف، وذلك لتتحقق العبودية الكاملة لله رب العالمين في الأرض، وترك الشرك بأنواعه، والبدعة بألوانها.

6- الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

7- على المسلمين أن يبايعوا من يصلح للإمامة، ولا يجوز أن يبقى المسلمون بدون خليفة ينفذ شرع الله، ويرسى قواعد العدل بالحكم بما أنزل الله.

8- الجهاد ضد الكفار والمرتدين واجب وذلك حسبما ورد في هديه صلى الله عليه وسلم مع معسكرات الكفر والنفاق.

وهذا نموذج من أقواله في كتابه: إحياء السنة وإخماد البدعة:

إنه يجب على كل عالم ألا يسكت في هذه الأزمنة، لأن البدع قد ظهرت،والأحوال قد تغيرت.

ويجب أن يكون في كل مسجد أو محلة فقيه يعلم الناس دينهم الحنيف، ويجب على كل فقيه يقدر على دعوة الناس أن يخرج إلى ما يجاور بلده ليعلم الناس فرائض شرعهم.

وكل قادر على تغيير المنكر لا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في بيته، بل يلزمه الخروج.

والهجرة في نظره امتداد للدعوة وصون لها، وتحقيق لمستقبلها، وضمان لاستمرارها وهى مهمة إذا خاف الإنسان على دينه أو نفسه.

يقول في رسالة له: الهجرة من بلاد الكفار إلى بلاد الإسلام ومن بلد البدعة إلى السنة، ومن بلد المعصية إلى بلد الطاعة، ومن موضع لا يتمكن المسلم فيه من إقامة دينه إلى بلد العدل واجبة، وإن على المسلمين عزل الحاكم الكافر إذا قدروا عليه ويجب على المسلم الهجرة من أرضه إلى غيره من أرض الله الواسعة.

وسائل دعوة الشيخ عثمان:

أما وسائل دعوته هذه فقد استخلصها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وهى:

1- مسلك الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فقد بدأ الدعوة حين بلغ العشرين من عمره فدرس العلوم الإسلامية المختلفة لطلاب العلم، ووعظ الطبقة الحاكمة وأرشد العامة وشرح حقائق الإسلام.

يقول محمد بلو: عبد الوهاب ابن الشيخ عثمان:

ناصر الدين بمقاله وبيانه، محيى السنة بأفعاله، دائم الهداية والإرشاد، حجة الله على العالم-أى عالم زمانه- متمسك بالكتاب والسنة، سيد وقته، وإمام عصره، وأعجوبة زمانه ذو النورين: العلم والعمل.

كما ألف الشيخ العديد من الرسائل والكتب في مختلف المجالات منها المطبوع وأكثرها مخطوطات مبعثرة في بعض المكتبات ذكر بعض الباحثين أنها مائة وخمسة عشر كتاباً ورسالة منها:

1-كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة،وهو أشهرها وأكبرها.

2-كتاب نصائح الأمة المحمدية(مخطوط).

3-كتاب هداية الطالبين (مخطوط).

4-كتاب بيان وجوب الهجرة على العباد.

5-كتاب إرشاد أهل الإفراط والتفريط (مخطوط).

6-كتاب سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في الزمان.

7-كتاب تنبيه الطلبة على أن الله عز وجل معروف بالفطرة (مخطوط).

8-كتاب سوق الأمة إلى اتباع السنة.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المؤلفات منها ما يختص بمرحلة إعداد الجماعة، وإقناعهم بالهجرة إلى الله عز وجل، ومنها ما يختص بإفهام الولاة واجباتهم نحو دينهم وأمتهم وذلك بعد أن أرسى قواعد الدولة الفولانية المسلمة.

2- مسلك إعداد المجاهلين لقتال أهل الضلال، وهذا حدث عندما خرج الشيخ ومن معه إلى (غدو) على الحدود الغربية لمملكة (غوير) ثم عقد الألوية وبعث بها إلى ممالك الهوسا السبعة وما يتبعها من الولايات والأعمال، وهى ما تعرف اليوم بنيجيريا، وتم للشيخ تأسيس الدولة الإسلامية الراشدة.

أثر الحركة:

إن الإصلاح الديني الذي قام به الفولانيون ومن معهم في نيجيريا كان له أكبر الأثر في نفوس الناس، حيث أديلت ممالك الهوسا، ودان الناس لعقيدة الإسلام، بعد أن كانت عقيدتهم مختلطة ببعض معتقدات الجاهلية.

ولا شك أن الشيخ نجح في إدارة البلاد، كما أظهر خلفاؤه مقدرة فائقة في ذلك بعد وفاته، ونشروا لواء الإسلام وعينوا الأمراء والعمال، واستولوا على زمام الأمور مدة قرن من الزمان.

ولقد تأثر بهذه الحركة الرائدة كثير من الممالك المجاورة مثل مملكة (بورنو) وبعض أطراف بلاد (يوربا).

كما اقتفى أثرها كثير من الحركات الإصلاحية مثل حركة الشيخ أحمد سيكو في منطقة (ماسيتا) التي انتهت بتأسيس حكومة إسلامية على أنقاض الدولة الوثنية سنة 1810م.

وكذلك حركة الحاج عمر بن سعيد في منطقة (فوتاتور) التي انتهت بتأسيس حكومة إسلامية بعد أن كانت منطقة قبائل وثنية وذلك في عام 1854م.

ومما يذكر أن هذه الحركات، استطاعت أن تحل رابطة الأخوة الإيمانية محل التعصب للقبيلة، وأن تنهى الحروب التي كانت تدور بينها، وأن توحد القبائل والممالك في أمة واحدة متماسكة برباط العقيدة المتين.

كما تركت هذه الأمة تراثاً ضخماً من العلم والمعرفة شمل كثيراً من العلوم الإسلامية والمعارف الدينية والدنيوية، ولا يزال الناس في نيجيريا وما جاورها يذكرون هذه الحركة الإصلاحية الرائدة بكل فخر واعتزاز متحدين بذلك لإعاقة وتشويه هذه الحركة الإسلامية الكبرى.

ويكفى شهادة الحاكم البريطانى (اللورد لوغادو) بعد سقوط آخر مدينة في الدولة الإسلامية حيث يقول: لقد سيطر الفولانيون بقيادة عثمان بن فودى على هذه البلاد منذ زمن بعيد، فاستولو على زمام الأمور في حكم هذه البلاد وعينوا الأمراء والولاة، وتمكنوا من إحداث تغييرات هامة سجلها التاريخ لهم إلى أن ضاع كل ذلك منهم وأصبح حقاً من حقوق الحكومة البريطانية.

تقويم الحركة:

لقد نجح الشيخ عثمان بن فودى في تبيين حقائق الإسلام وقضايا التوحيد، فكل مؤلفاته ورسائله تركز تركيزاً شديداً على صحة التصور وسلامة الاعتقاد.

لقد كان الشيخ عثمان سلفى الاعتقاد، محارباً كل أنواع الشرك والبدع والخرافات، كما أن الشيخ كان عالماً تقياً متمسكاً بمذهب الإمام مالك رحمه الله في المسائل الفرعية.

كما حرص على تربية أتباعه بالدعوة إلى الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومحاربة البدع التي أحدثها الناس في الدين.

ولقد جاهد في سبيل الله جهادا طويلاً، ومكن للحكومة الإسلامية مكان الحكومات الوثنية، وقضى على الحركات العصبية والنعرات القومية، لقد مات الشيخ بعد حياة كلها هجرة وجهاد، كما كون حركة وأسس دولة عملت للإسلام مدة طويلة، وأثرت في حياة كثير من السكان في تلك البلاد، ولا يزال لها تأثير كبير حتى اليوم في الدولة النيجيرية وما جاورها رغم ما يلاقيه المسلمون من تمزق وتشتت.

الإخوان المسلمون

من مؤسس هذه الجماعة:

مؤسس هذه الجماعة هو: الشهيد حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي في عام 1928م،1347هـ.

لماذا سميت بهذا الأسم؟

سميت هذه الجماعة بالإخوان المسلمون، لاتفاق أهلها على أنهم إخوة في خدمة الإسلام.

مسرح الحركة:

مصر أكثر بلاد العرب سكانا، وأقربهم إلى الفطرة كانت مسرحاً لجماعة الإخوان المسلمين ولا تزال.

ومصر كغيرها من بلدان العالم العربي خضعت للاستعمار الأجنبي بعد سقوط دولة الخلافة الإسلامية، وتأثرت بموجات العلمانية والإلحاد والتحاكم إلى شرائع وضعية من صنع البشر والحديث عن مصر حديث عن العالم الإسلامي كله،لأن ما ينطبق على مصر ينطبق على غيرها.

ويمكن تلخيص الظروف التي نشأت فيها هذه الجماعة فيما يلي:

1- تم القضاء على دولة الخلافة الإسلامية، ونادى المنادى بالعلمانية وهى إقامة الحياة على غير أساس من الدين.

2- ظهر تيار تغريبى يدعو إلى شعارات ومذهب براقة مصدرها الغرب كالقومية، والوطنية، والديمقراطية، وتم الاعتراف بها مع عدم الاعتراف بسلطان الله تعالى وحكمه.

3- شاعت موجة عاتية من التحلل والإباحية والاستهتار بالقيم الإسلامية والتقاليد والمثل الإسلامية، باسم التحرر العقلى والتحرر الشخصى، ودخلت المرأة ميدان هذا التحرر بالعمل في الفنادق والمطاعم والمقاهى والمكاتب وغيرها عوضاً عن الدور الأصلى لها ولطبيعتها وهو دور الأمومة، وكثرت وسائل الاعلام التى تشغل الناس بالباطل وبتوافه الأمور.

4- إهمال العلوم الدينية،والمعارف الكونية، والاشتغال في فلسفات ونظريات أدت إلى فوضى في سياسة التعليم وتشويه صورة العلم.

ويمكن تلخيص هذه الأوضاع بما نقل عن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى في عشر نقاط سميت، بالموبقات العشر، على حد تعبير الإمام البنا وهى:

1- الاستعمار.

2- الخلافات السياسية والشخصية والمذهبية.

3- الربا.

4- الشركات الأجنبية.

5- التقليد الغربى.

6- القوانين الوضعية.

7- الإلحاد والفوضى الفكرية.

8- الشهوات الإباحية.

9- فساد الخلق وإهمال الفضائل النفسية.

10- ضعف القيادة وفقدان المناهج العلمية.

ولا يغيب عن البال أن هذا الوضع أصبح ظاهرة ملموسة في المجتمع المصرى في الوقت الذي لم تخل فيه مصر من الخير والبركة والفئة المؤمنة، والطائفة المتمسكة بالدين والحق والأخلاق والقيم والمثل الإسلامية.

في ظل هذه الظروف برز صوت يدعو إلى الإيمان بالله وجهاد المستعمر والعودة إلى الخلافة الراشدة، فكان صوت حسن البنا الذي أنشأ جماعة الإخوان المسلمين لتقوم بهذه المهمة الجليلة وهى مهمة الدعوة إلى الله تعالى، ولتكون أملاً ورجاء للمسلمين في دعوة سلطان الله وحكمه بين الناس.

الإمام الشهيد في سطور:

من هو حسن البنا؟ أين ولد؟ وكيف نشأ؟ ما صفاته؟وكيف أسس جماعة الإخوان المسلمين؟ وما مصيره في هذه الحياة الدنيا؟

هذه الأسئلة المتقدمة نجيب عليها فيما يلي:

1- مولده:

ولد الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله بمدينة المحمودية بمحافظة البحيرة شمال غرب القاهرة بمصر عام 1906م.

وكان أبوه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتى من العلماء العاملين هو مأذون الناحية وإمام مسجدها ودارسا ومؤلفا للعديد من الكتب وأهمها كتب

الحديث وله عدة مصنفات أهمها:« الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام الشيبانى، وقد تلقى علومه في الأزهر، وكان يمارس حرفة يدوية بالإضافة إلى التعليم هى: تجليد الكتب وإصلاح الساعات وهى الحرفة التى حرص على تلقينها لابنه بالإضافة إلى العلوم الدينية وحب العبادة.

نشأته:

نشأ الإمام الشهيد حسن البنا في بيت صلاح وعلم، اهتم بالإسلام وبالتعليم في سن مبكر، حيث تعلم في القرية وهو في الثامنة من عمره وكان من بين الأشخاص الذين تعلم عنهم وأثروا تأثيراً عميقاً فيه الشيخ محمود زهران، ولقد نشأ الإمام حسن البنا نشأة دينية خالصة، وعاصر أحداث أمته ورأى من أحوال المسلمين ما أثار غيرته الإسلامية، ثم عاصر سقوط الخلافة وأثرت في نفسه هذه المصيبة الكبرى وآلى على نفسه أن يعمل من أجل عودة الإسلام مرة أخرى ليحكم ويهيمن ولتكون كلمة الله تعالى هى العليا.

والتحق الإمام البنا وهو في الثانية عشرة من عمره بالمدرسة الرشادية الدينية ثم بالمدرسة الإعدادية بالمحمودية، وشارك في عضوية أول جماعة دينية وهي جمعية السلوك الأخلاقى، ثم أصبح البنا قائداً للجماعة، ثم أنشأ جمعية الحصافية للبر هدفها النضال من أجل المحافظة على المبادئ والأخلاق الإسلامية ومقاومة نشاط البعثات التبشيرية المسيحية.

وفي العام الأخير للبنا في المدرسة اندلعت ثورة 1919 واشترك رحمه الله في المظاهرات التى انفجرت داخل المدرسة وخارجا.

والتحق الإمام حسن البنا قبل الرابعة عشرة بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور وأتم حفظ القرآن، وانخرط في جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية التى كانت تنظم

المحاضرات حول الموضوعات الإسلامية، ولكن لم تكن كافية لسد الفجوة التى رأى أنها تفصل بين المسلمين وبين الإسلام وتعاليمه فانطلق إلى تنظيم مجموعة من طلبة الأزهر ودار العلوم للتدريب على القيام بمهمة الوعظ والإرشاد وكان هذا النوع من النشاط هو الأكثر أهمية.

وفي السنة النهائية بدار العلوم دعى الفصل الذى به الإمام حسن البنا لكتابة مقال حول الموضوع التالى: تحدث عن الآمال الكبيرة التى تراودك بعد تمام دراستك وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق هذه الآمال؟

وقد استهل البنا مقاله بالعبارة التالية:

أعتقد أن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير سبل السعادة للآخرين وبإسداء المشورة لهم، ويمكن تحقيق ذلك بإحدى وسلتين:

الأولى: طريق الصوفية الحق والتفانى في العمل الصادق في خدمة الإنسانية، ومفهوم الصوفية عند البنا بمعنى الزهد.

الثانية: طريق التعليم بإسداء النصح مع الإخلاص والعمل.

وفي عام 1927م تخرج الإمام البنا من دار العلوم وكان ترتيبه الأول وكان عمره في ذلك الوقت 21 سنة وعين مدرساً للغة العربية بإحدى المدارس الابتدائية بمدينة الإسماعيلية بمنطقة القناة، وكان يتصل بالناس بالمقهى وغيرها ثم ينتقل بهم إلى المسجد وظل يعمل في حقل التدريس حتى استقالته سنة 1946م.

ثم عمل مندوباً محلياً لمجلة الفتح الناطقة بلسان الجماعات الإسلامية لمحافظة وبعد ذلك تم تأسيس جمعية الشبان المسلمين وكان الإمام حسن البنا هو العضو الوحيد الذى يمثل الشباب فيها بين أولئك العمالقة.

أهداف جمعية الشبان المسلمين:

1- السعي لإعادة الخلافة الإسلامية.

2- أن يقام الحكم الإسلامي في هذا البلد.

3- حماية الشباب من الضياع بين مخالب الغزو الفكري الذي يتستر حيناً باسم الصليبية، وأحياناً باسم العلمانية.

وكانت تلك قصة أول عمل جدي في عملية التحويل تحويل هذه الأمة من انسياق نحو الغرب إلى (قف هنا) هذا إسلام في هذا البلد.

ثم ولدت بعد ذلك حركة البنا حركة الإخوان المسلمون سنة 1347 هـ الموافق 1928م.

صفاته:

تأسى الإمام البنا بالقدوة القائد صلى الله عليه وسلم في كل صفاته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾.

ومن الصفات التي اتصف بها رحمه الله تعالى:

1- الالتزام بالخط الذى التزمه الرسول صلى الله عليه وسلم بمواجهته الجاهلية في عقر دارها، فقد سار يعظ الناس في المقاهى ويدعوهم إلى المساجد مع الرفق بهم واللوم الشديد لمن يغلظ لأخيه النصيحة ويقدمها علانية ويقول:«من نصح أخاه فيما بينه وبينه فقد نصحه ومن نصحه على رؤوس الأشهاد فقد فضحه».

ولهذا كان مرددا للحديث الشريف: «**ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ولا خلا من شيء إلا شانه**»، ولحديث: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم**».

2-إيمانه الكامل بالقضاء والقدر، توكله التام على الله عز وجل حيث كان يقول: والأرزاق بيد الله ليست بيد المجلس ولا الوزارة.

3-الغيرة الشديدة وخاصة على الشعائر الدينية والدين والحماس لذلك حيث كان يؤذن الظهر والعصر في مصلى المدرسة ويعجب لماذا لا تكون نظم الحصص خاضعة للمواقيت.

4-الذكاء العجيب فقد حفظ القرآن كاملاً وكان ترتيبه الأول في المدرسة وكان يفصل في التراع بين أخوين بكلمة استغفر الله يا فلان ثلاثاً وصم ثلاثة أيام أو شهراً أو قم الليلة واستغفر الله وتب إليه في صلاتك.

وهو المعروف عنه أنه لم تكن جمعية إلا وهو العضو الشاب فيها.

5-الصدق في القول مهما كانت النتيجة، فقد داهم البوليس المجتمعين مرة واقتحم البيت يسأل عنهم في بيت سيدة بدمنهور فكان جوابها: إنهم خرجوا منذ الصباح الباكر و لم يعودوا وإنها مشغولة كما رآها بتغذية البغلة.قال البنا: ولكن هذا الجواب غير الصادق لم يرقني فخرجت إلى الضابط السائل وصارحته بالأمر- وكان موقف الحاجة خضرة حرجاً للغاية وناقشته بحماس وقلت له: إن واجبه الوطني يفرض عليه أن يكون معنا لا أن يعطل عملنا ويقبض علينا، ولا أدرى كيف كانت النتيجة أنه استجاب لهذا القول فعلاً فخرج وصرف عساكره وانصرف معهم بعد أن

طمأننا ورجعت إلى الزملاء المختبئين وأنا أقول: هذه بركة الصدق ولابد أن نكون صادقين ونتحمل تبعة عملنا ولا لزوم للكذب أبداً مهما كانت الأحوال.

6- الشجاعة في قول الحق دون جبن أو خوف فقد أرسل مذكرات إلى الملوك والرؤساء والوزراء يشرح لهم حتمية الحكم الإسلامي، وأنه لا يجوز أن يحترم الوجود البريطاني في بلادنا، وأن الوجود البريطاني ليس شيئاً هنيئاً لأن في صميم الشعب طاقة مذخورة قادرة على إذلال الانجليز وطردهم.

7- العلم الغزير فقد كان يحفظ خارج مناهج المدرسة كثيراً من المتون في العلوم المختلفة ويقول الإمام البنا:

ولست أنسى توجيه الوالد لى بالعبارة المأثورة: (من حفظ المتون حاز الفنون).

مبادئ الدعوة:

دعوة الإخوان المسلمين دعوة بريئة نزيهة جاوزت المطامع الشخصية والمنافع المادية، سارت في الطريق التى رسمها الله عز وجل: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

ولقد كانت مهمتها إرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة وتعاليمه التي لا يمكن بغيرها أن يسعد الإنسان، ولقد كان للإخوان ثلاثة أهداف انطلقت منها جميع مبادئ دعوتهم وهذه الأهداف منبثقة من العقيدة الإسلامية ومن الإسلام وقواعده وأصوله وهى:

1- تخليص الأمة من قيودها السياسية حتى تنال حريتها ويرجع إليها ما فقدته من الاستقلال والسيادة.

2- بناؤها من جديد لتسلك طريقها بين الأمم وتنافس غيرها في درجات الكمال الاجتماعي.

3- الوقوف في وجه الموجة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات التي جرفت الشعوب الإسلامية فِأبعدتها عن زعامة النبي صلى الله عليه وسلم، وهداية القرآن الكريم وحرمت العالم من أنوار هدايتها.

ولتحقيق أهداف الدعوة الرئيسية هذه لابد من خطوات ومرتكزات للإصلاح الصحيح.

من هذه المرتكزات التي قامت عليها الدعوة ما يلي:

أولاً: من الناحية السياسية والقضائية والإدارية:

1- القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية في وجهة واحدة وصف واحد.

2- إصلاح القانون حتى يتفق مع التشريع الإسلامي وخاصة في الجنايات والحدود.لأن في الشريعة الإسلامية وفيما وضعه العلماء المسلمون ما يسد الثغرة ويفى بالحاجة ويؤدى إلى أفضل النتائج وأبرك الثمرات، وإن في حدود الله لو نفذت لزاجرا يردع المجرم وإن اعتاد الإجرام، ويكف المعتدى وإن تأصل في نفسه العدوان.

3- تقوية الجيش والإكثار من فرق الشباب وإلهاب حماسها على أسس من الجهاد الإسلامي ولا سيما في هذه العصور التي لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب والتى صار شعار أبنائها جميعاً، القوة أضمن طريق لإحقاق الحق.

4- تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعاً، وبخاصة العربية منها تمهيداً للتفكير الجدى العملى في شأن الخلافة الضائعة.

5- بث الروح الإسلامي في دواوين الحكومة بحيث يشعر الموظفون جميعاً بأنهم مطالبون بتعاليم الإسلام.

6- مراقبة سلوك الموظفين الشخصي وعدم الفصل بين الناحية الشخصية والناحية العملية.

7- تقديم مواعيد العمل في الدواوين صيفاً وشتاء حتى يعين ذلك على الفرائض ويقضى على السهر الكثير.

8- القضاء على الرشوة والمحسوبية والاعتماد على الكفاية والمسوغات القانونية فقط.

9- أن توزن كل أعمال الحكومة بميزان الأحكام والتعاليم الإسلامية فتكون نظم الحفلات والدعوات والاجتماعات الرسمية والسجون والمستشفيات بحيث لا تصطدم بتعاليم الإسلام وتكون الدوريات في الأعمال على تقسيم لا يتضارب مع أوقات الصلاة.

10- إسناد الوظائف الحكومية والعسكرية والإدارية إلى الأزهريين واستخدامهم فيها وتدريبهم عليها وهذا يوم أن كان الأزهر هو الأزهر.

ثانياً: من الناحية الاجتماعية والعلمية:

إن في كل أمة مظاهر من الحياة الاجتماعية تشرف عليها الحكومات وينظمها القانون وتحميها السلطات فعلى كل أمة شرقية إسلامية أن تعمل على أن تكون كل

هذه المظاهر مما يتفق وآداب الدين ويساير تشريع الإسلام وأوامره، ومن المرتكزات في الإصلاح الاجتماعي والتعليمي ما يأتي:

1- تعويد الشعب احترام الآداب العامة ووضع إرشادات معززة بحماية القانون في ذلك الشأن، وتشديد العقوبات على الجرائم الأدبية.

2- علاج قضية المرآة علاجاً يجمع بين الرقى بها والمحافظة عليها وفق تعاليم الإسلام حتى لا تترك هذه القضية التي هي أهم قضايا الاجتماع تحت رحمة الأقلام المغرضة.

3- القضاء على البغاء بنوعيه السري والعلني لأنه لطخة عار في جبين كل أمة تقدر الفضيلة، واعتبار الزنا مهما كانت ظروفه جريمة منكرة يحد فاعلها.

4- القضاء على القمار بكل أنواعه من ألعاب ويانصيب ومسابقات وأندية.

5- محاربة الخمر كما تحارب المخدرات وتحريمها وتخليص الأمة من شرورها لأن الإعلانات الظاهرة والواضحة عن أم الخبائث في أظهر الشوارع وأبرز الأحياء مظاهر يأباها الدين ويحرمها القرآن أشد تحريم.

6- مقاومة التبرج والخلاعة وإرشاد السيدات إلى ما يجب أن يكون شديدا في ذلك بخاصة على المدرسات والتلميذات والطبيبات والطالبات ومن في حكمهن.

7- تشجيع الزواج والنسل بكل الوسائل المؤدية إلى ذلك ووضع تشريع يحمى الأسرة ويحض عليها ويحل مشكلة الزواج.

8- إغلاق الصالات والمراقص الخليعة وتحريم الرقص وما إلى ذلك.

9- مراقبة دور التمثيل وأفلام السينما والتشديد في اختبار الروايات والأشرطة.

10- تهذيب الأغاني واختيارها ومراقبتها والتشديد في ذلك.

11- حسن اختيار ما يذاع على الأمة من المحاضرات والأغاني والموضوعات واستخدام محطة الإذاعة في تربية وطنية خلقية.

12- تنظيم المصايف تنظيماً يقضى على الفوضى والإباحية التي تذهب بالغرض الأساسي من الاصطياف.

13- تحديد مواعيد افتتاح وإغلاق المقاهي العامة ومراقبة ما يشتغل به روادها وإرشادهم إلى ما ينفعهم وعدم السماح لها بهذا الوقت الطويل.

14- مقاومة التيارات الضالة والضارة اقتصادياً أو خلقيا أو غير ذلك وتحويل تيار الجماهير عنها إلى غيرها من العادات النافعة أو تهذيب نفسها تهذيبا يتفق مع المصلحة وذلك كعادات الأفراح والمآتم والمولد والمزار والمراسم والأعياد، وتكون الحكومة قدوة صالحة في ذلك.

15- اعتبار دعوة الحسبة ومؤاخذة من يثبت عليه مخالفة شيء من تعاليم الإسلام أو الاعتداء عليه كالإفطار في رمضان وترك الصلاة عمداً أو سب الدين وأمثال هذه الشئون.

16- التفكير في الوسائل المناسبة لتوحيد الأزياء في الأمة تدريجا.

17- القضاء على الروح الأجنبية في البيوت من حيث اللغة والعادات والأزياء والمربيات والممرضات، وتصحيح ذلك كله وبخاصة في بيوت الطبقات الراقية.

18- العناية بشئون الصحة العامة من نشر الدعاية الصحية بمختلف الطرق والإكثار من المستشفيات والأطباء والعيادات المتنقلة وتسهيل سبل العلاج.

19- العناية بشئون القرية من حيث نظامها ونظافتها وتنقية مياهها ووسائل الثقافة والراحة والتهذيب فيها.

20- إعادة النظر في مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج تعليم الصبيان في كثير من مراحل التعليم.

21- منع الاختلاط بين الطلبة، والطالبات واعتبار خلة أي رجل بامرأة لا تحل له جريمة يؤاخذون بها.

22- مصادرة الروايات المثيرة والكتب المشككة المفسدة والصحف التي تعمل على إشاعة الفجور وتستغل الشهوات استغلالا فاحشاً.

23- استخدام المقاهي في تعليم الأميين القراءة والكتابة.

24- ضم المدارس الإلزامية في القرى إلى المساجد وشمولها معاً بالإصلاح التام من حيث الموظفين والنظافة وتمام الرعاية حيث يتدرب الصغار على الصلاة ويتدرب الكبار على العلم.

25- تقرير العلم الديني مادة أساسية في كل المدارس على اختلاف أنواعها كل بحسبه في الجامعة أيضاً.

26- تشجيع تحفيظ القرآن الكريم في المكاتب العامة وجعل حفظه شرطاً في نيل الإجازات العلمية التي تتصل بالناحية الدينية واللغوية مع تقرير حفظ بعضه في كل مدرسة.

27- العناية باللغة العربية في كل مراحل التعليم وأفرادها في المراحل الأولى ضمن غيرها من اللغة الأجنبية.

28- العناية بالتاريخ الإسلامي والتاريخ الوطني والتربية الوطنية وتاريخ حضارة الإسلام.

29- توجيه الصحافة توجيهاً صالحاً وتشجيع المؤلفين والكاتبين على طرق الموضوعات الإسلامية

ثالثًا: من الناحية الاقتصادية:

الأمة الناهضة أحوج ما تكون إلى تنظيم شئونها الاقتصادية ولهذا كان برنامج الإخوان في الناحية الاقتصادية يدور حول مرتكزات هي:

1- الاستغلال الاقتصادي وهو أساس الاستغلال والاستغلال السياسى وذلك بإزالة السيطرة الأجنبية وحماية الجمهور من عنف الشركات وإلزامها حدودها والحصول على كل فائدة ممكنة للجمهور.

2- التقدم الاقتصادي بالنسبة للكتل الفقيرة وذلك بتحسين حال الموظفين الصغار برفع مرتباتهم واستيفاء علاواتهم ومكاناتهم وتقليل مرتبات الموظفين الكبار مع حصر الوظائف خصوصاً الكثيرة منها والاقتصار على الضرورى وتوزيع العمل على الموظفين توزيعاً عادلاً.

3- إلغاء البورصة وتحريم الربا وضرورة إلغائه وتنظيم المصارف تنظيماً يؤدى إلى هذه الغاية وتكون الحكومة قدوة في ذلك بالتنازل عن الفوائد في مشروعاتها الخاصة بها كبنك التسليف والسلف الصناعية وغيرها وبعدها سيجد أصحاب الثروات أنفسهم عاجزين عن زيادة ثرواتهم إلا باستغلالها بأنفسهم أو في مشروعات أو شركات وبهذا يقضى على البطالة والكسل وخاصة عند الأغنياء.

4- تشجيع المشروعات الاقتصادية بالكشف عن مصادر الثروة الطبيعية واستغلالها كالأرض البور والمناجم المهملة وتشجيع الإرشاد الزراعي والصناعى والاهتمام بترقية الفلاح والصناع من الناحية الإنتاجية وتشغيل العاطلين من الوطنيين فيها واستخلاص ما في أيدى الأجانب منها الناحية الوطنية مع تقديم المشروعات الضرورية على الكماليات في الإنشاء والتعمير.

5- حماية مستأجري الأرض الزراعية وحماية العمال والفلاحين من البطالة والمرض والهرم من فرض حصة للعامل في زائد الإنتاج والعناية بشئون العمال الفنية والاجتماعية ورفع مستواهم في مختلف النواحي الحيوية.

6- إصلاح نظام الضرائب وتنظيم الزكاة دخلاً ومصرفا بحسب تعاليم الإسلام السمحة والاستعانة بها في المشروعات الخيرية التي لا بد منها كملاجئ للعجزة والفقراء واليتامى وتقوية الجيش ومع هذا فإن شعار الإخوان يعبر عن أهدافهم ومبادئ دعوتهم وشعارهم هو: "الله غايتنا والرسول زعيمنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

ولابد من أركان ثلاثة لتحقيق الوسيلة التى تدور عليها فكرة الإخوان وهذه الأركان هي:

1- المنهاج الصحيح وقد وجد الإخوان كتاب الله وسنة رسوله والإسلام هو أساس في ذلك.

2- العاملون المؤمنون فأخذوا على أنفسهم تطبيق الإسلام والدين.

3- القيادة الحازمة الموثوق بها وقد أوجدها الإخوان المسلمين كذلك فهم لها مطيعون وتحت لوائها يعملون.

كانت خطة الإمام البنا للوصول إلى المجتمع المبنى على أسس سليمة وتحقيق ذلك المرتكزات تتلخص في أربعة مراحل:

1- بناء الفرد المسلم:

إن الإسلام يربى في الفرد وجدانا شاعراً يتذوق الجمال والقبح، وإدراكاً صحيحاً يتصور الصواب والخطأ وإرادة حازمة لا تضعف ولا تقبل إلا الحق، وجسما سليماً يقوم بأعباء الواجبات الإنسانية حق القيام ويصبح أداة صالحة لتحقيق الإرادة الصالحة ونصر الحق والخير.

2- بناء الأسرة المسلمة:

فلإصلاح الفرد أثره في إصلاح الأسرة ذلك لأن الأسرة مجموعة من الأفراد فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة وهما عماد الأسرة كان البيت مرفوعاً وفق القواعد التى أصلها الإسلام.

3- بناء الأمة المسلمة:

فإذا صلحت الأسرة صلحت الأمة لأن الأمة مجموعة من الأسر بل الأسرة أمة مصغرة والأمة أسرة كبيرة.

4- بناء الحكومة المسلمة:

لأن الدولة هي التي تقود الدولة الإسلامية وتضم شتات المسلمين وتستعيد مجدهم وترد عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة في حمل علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله حتى نسعد العالم بتعاليم الإسلام وتطبيق نظام الحكم

الإسلامي تطبيقاً صحيحاً كاملاً شاملاً وتحميه من القوى المعادية يقررون ذلك ويقولون: نريد المرأة المسلمة التي تكون على وعى من الفقه التشريعي والدستورى إلى هذا الحد.

ونريد الطفل الواعي بفقهه ودينه، ونريد حاكماً مسلماً يعلم أن لنا أن نناقشه الحساب ونقدر على مناقشته الحساب.

نريد الرجل الذي يقول للملك أخطأت أو لرئيس الجمهورية أخطأت بدون أن يهدد وبدون أن يخاف وبدون أن ترتعد فرائصه، ومعه شعب يحميه من أن يقذف به وراء الشمس، نريد هذا الشعب المسلم وهؤلاء الأفراد المسلمين الذين يحمون الدستور ويحمون السلطة التي تحترم هذا الدستور السماوي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أثر الحركة في مصر وغيرها:

جاوز المتأثرون بدعوة الإمام حسن ألبنا الملايين، واتسعت دائرة التنظيم لتشمل كثيراً من ديار المسلمين، في المدن، في المركز، في القرى، في كل مكان حتى صارت جماعة الإخوان المسلمين تملك من الإعداد والاستعداد والتنظيم القوى السليم ما لا تملكه بعض الحكومات ذات السلطان المادي، والحنكة السياسية.

والجماعة في كل مكان ذات صوت واحد تنادى إلى هدف واحد عن طريق وصنع برنامج واحد تحت إشرافها تعقد له الحلقات الدراسية الأسبوعية والشهرية والسنوية.

لذلك تأثر الناس بها، ساعد على ذلك سمعتها الطيبة في كل مكان وهذه مكنت لها من قلوب الناس وعقولهم.

والجماعة لها جهود مشكورة في مجالات متعددة، وفي خدمة الناس، وفي مجال الدفاع عن الدين.

وقد أفادت بحوث الجماعة ومقالاتها وكتبها من ناحية زيادة ثقة الناس بتعاليم الإسلام وصلاحيته للبقاء والحكم.

كما أفادت في تنشئة جيل جديد يحب الإسلام ويؤمن به ديناً كاملاً للحياة ويرفض جميع النظريات المزيفة والشعارات البراقة، والمذاهب الهدامة.

إن حركة الإخوان بلا شك أكبر الحركات الإسلامية المعاصرة. وقد أثرت تأثيراً كبيراً في مجريات الأحداث بعد سقوط الدولة الإسلامية عن طريق فروعها الكثيرة في كل مكان، التي تمكنت من أن تحدث يقظة إسلامية واعية وصحوة دينية كبرى.

تقويم الحركة:

دعوة الإخوان دعوة مبدأ في الشرق والغرب، دعوة إسلامية بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى، دعوة سلفية صوفية، وهيئة سياسية رياضية ورابطة علمية ثقافية وفكرة اجتماعية رياضية وشركة اقتصادية، تأثرا تأثيراً كبيراً بالحركات التى سبقتها فأخذت منها ما يصلح للمسير، وابتعدت عن الخلافات، وجمعت بين جميع الآراء الصالحة منها مما أتاح لها ذلك النجاح الكبير وخاصة أنها قامت في ظروف تلهف الناس فيها للعودة إلى الخلافة الإسلامية مما جعلهم يلتفون حولها لعل فيها أملاً يحقق لهم رجاءهم لما تميز به منهاج الحركة من مميزات لم تتوافر في غيرها أو لم تجمعها غيرها من الدعوات ومن هذه المميزات التي تميزت بها حركة الإخوان ما يأتي:

1- أنها حركة ربانية، لأن الأساس الذي تدور عليه أهدافها أن يتعرف النـــاس إلى ربهم، وأن يستمدوا من فيض الصلة به روحانية كريمة تسمو بها أنفســـهم عـــن الجمود إلى ظهر الإنسانية الفاضلة حيث يقولون:

فعلينا أن نديم صلتنا بالله ما استطعنا لذلك سبيلاً بدوام الذكر والدعاء بالمأثور، ونحن الإخوان المسلمون: نهتف من كل قلوبنا الله غايتنا وهذه هى المفـــاتيح الأولى لمغاليق المشكلات الإنسانية التي أوصدها الجمود والمادية في وجوه البشر جميعاً، فلم يستطيعوا إلى حلها سبيلاً وبغير هذا المفتاح فلا إصلاح.

2- العودة إلى الأصالة الإسلامية واستمدادها من مصادرها النقية وهى الكتاب والسنة ومجاوزة الخلافات الجزئية والآراء المذهبية التي كانت سبباً من أسباب ضعف المسلمين وفرقتهم.

3- أنها حركة عالمية بعالمية الدعوة الإسلامية لأنها موجهة إلى الناس كافة، لأن الناس في حكمها أخوة أصلهم واحد وأبوهم واحد ونسبهم واحد لا يتفاضلون إلا بالتقوى وبما يقدم أحدهم للمجموع من خير سابغ وفضل شامل، فشملت العـــالم العربي كله وانطلقت بعد ذلك في أقطار العالم الإسلامي مركزة على الدعوة كـــل مكان وامتدت آفاقها عمقاً لتغطى العالم كله ولتحيل فكرها الإســـلامي الأصـــيل ساحة للصراع.

4- مطابقة العمل للقول حيث يقولون: فعلينا أن ندرس قانوننا وفيه الكفايـــة ونقتدي بما يقول.

5- التجمع فهم يقولون: علينا أن نجتمع دائماً وأن نتشوق إلى اللقاء وأن نشعر بحقوق الإخوة.

6- الإيجابية-البناء-حيث قالوا: فدعوتنا تبنى ولا تهدم وتأخذ بالإيجاب دائماً فعلينا أنفسنا قبل كل شيء فلهذا ركزوا على ضرورة صب الجهود من أجل بناء جيل مؤمن يفهم الإسلام فهما صحيحاً على أنه دين ودولة وعبادة وجهاد وشريعة محكمة تنظم حياة الناس جميعاً في جوانبها التربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

7- الشمول والتوازن في بناء الشخصية الإسلامية والحركة الإسلامية فالبناء لا يكون إسلامياً إلا إذا تمثلت عناصر الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً وسياسة وعبادة وحكماً وجهادا في سبيل الله.

8- أبرزت جيلاً من الشباب المؤمن المثقف يستصغر الحضارة الغربية في جنب الإسلام ويعتقد أنه لن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة.

9- الأخذ بأساليب الحياة المعاصرة في الدعوة مما أتاح لها الوصول إلى طبقات الأمة الإسلامية عن طريق الرسائل والخطب والمقالات والصحف، ومن خلال النشاط الاجتماعي من فتح مدارس ومستشفيات ومظاهر حركة الجوالة والاستعراضات العسكرية.

10- الاحتمال والكفاح ودخول الجماعة المضمار السياسي وخاصة المضمار العسكري، حيث كان للقضية الفلسطينية عناية خاصة فهم دعاة التحذير خاضوا الحرب في كتائب متطوعية عبر الجبهة وأبلوا فيها بلاء حسناً بالإضافة إلى تحريرهم القناة بإجلاء الانجليز. وهذا هو الذي أغاظ وأزعج أعداء الإسلام منهم.

يقول دار متشيل: ما أعظم روح الاستشهاد التي حارب بها الإخوان المسلمون في فلسطين والقناة وعلى أعواد المشانق، كان الأخ مؤمناً بأن موقفه النبيل سيرفعه

إلى مرتبة الأبطال المؤمنين وأن هذه الروح هي أقصر الطرق وأسلمها إلى الحياة الآخرة.

ومن خلال هذه الخصائص والمميزات يستطيع الباحث والقارئ أن يقوم جماعة الإخوان بأنهم أدوا للإسلام خدمة جليلة وقادوا الناس للجهاد في سبيل الله تعالى وأيقظوا الشعور بالحاجة للعودة إلى هذا الدين الحنيف الذي يصلح به الناس والمجتمع والكون كله.

استشهاده رحمه الله:

في ليلة الثاني عشر من فبراير عام 1949م ربيع الأول 1368هـ خرج الإمام حسن البنا من دار الشبان المسلمين وإذا به يجد الكون مظلماً، لقد أطفئت أضواء شارع رمسيس الذى تقع فيه دار الشبان المسلمين، وطرد الذين كانوا يجلسون على المقاهي في الشارع وحول مرور السيارات عن الطريق حتى لا يجد المرشد عند خروجه من الجمعية سيارة أجرة يركب فيها إلا هذه التي أشار إليها على مقربة من باب الجمعية، وما إن ركبها برفقة زميله وصهره الدكتور عبد الكريم منصور وهو رجل من الحقوق أيضاً حتى انهال الرصاص عليه في السيارة وقذفه المجرمون ملهوفين في ارتباك لأنهم يخافون الأسد حتى لو كان مقلم الأظافر وأطلقوا عليه الرصاص وهربوا، ونقل الإمام إلى المستشفى وذهب أحد الأطباء لعلاجه فمنع من الدخول، ويظل هاتف الملك متصلاً بالقصر العيني هل مات حسن البنا؟ واستمر رحمه الله تنزف جراحه لم يجرؤ طبيب على أن يقوم بإسعافه.

رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته.

جمال الدين الأفغاني

محمد عبده

نماذج من كتاب

الفكر الإسلامي الحديث وصلاته بالاستعمار الغربي

د. محمـــد البـــهـــي

محمد جمال الدين الأفغاني

7877 – 9339

كارك مكافح للاستعمار الغربي

د. جمال الدين الأفغاني، زعيم من زعماء الحركات الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يختلف بعض الاختلاف عن زعيمين آخرين سابقين عليهما:

* "محمد بن عبد الوهاب" ... في القرن الثامن عشر.

* "محمد بن علي السنوسي الكبير" ... في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

كل من هذين عاش في الصحراء، وإن ارتحل عنها فإلى داخل البلاد الإسلامية، وبعض هذه البلاد شبيه ببعض، في سيادة البدعة فيها.

واختلاف المسلمين إلى شيع وأحزاب، وفي ضعف الأفراد، واستبداد الحكومات أو الولايات، والرضا من الحياة بـ "الوسيلة والشفاعة" والاكتفاء بالقعود عن السعي الجدي في طلب الرزق وتنميته والمحافظة على كرامة الجماعة أو مجدها.

كل من هذين.. لم ير في مجال نشاطه إلا "العيوب" الداخلية، فأخذ يكافحها باسم الإسلام، وعلى أساس من الإسلام، والإسلام الذي رآه كلاهما أساساً الدعوة الإصلاحية، هو إسلام الصدر الأول: في فهمه، والتمسك بمبادئه، وفي مواقفهم في الحياة من أجله.

لم يعرف كل منهما نظم الغرب في حياة الأوربيين بعد نهضته ... لم يعرف كل منهما بمعرفة مباشرة حياة عملية أخرى، مستقيمة نوعاً ما عن حياة المسلم في ذلك

الوقت، تسير في مكان آخر وراء رقعة العالم الإسلامي، ويسودها صالح الأمة لا صالح الحاكم، ويسيطر عليها صالح الأفراد جميعاً لا صالح الراعي وحده.

أما "جمال الدين" ... فبجانب وقوفه على عيوب الحياة الإسلامية رأى رؤية مباشرة لوناً إيجابياً من الحياة، خالياً من كثير من هذه العيوب والنقائص.

ارتحل أولاً في بلاد الهند، ومصر، والحجاز، وإيران، والعراق، واستانبول، من بلاد الشرق، وارتحل ثانياً إلى لندن، وباريس، وميونيخ في ألمانيا، وبطرسبرج في روسيا- من بلاد الغرب...

ورحلته هنا وهناك، كشفت له: عن ضعف في جانب، وقوة في جانب آخر، واستكانة في جانب وتحفز في جانب آخر، وكشفت له عن أن هذا التحفز من الجانب الآخر، إنما هو ليلتهم هذا الجانب المستكين وليذله وليذل وضعه في التاريخ.

ومعرفة جمال الدين بالإسلام، ثم وقوفه على المسيحية، أراه أن الإسلام في نفسه أداة قوة ومنعة وعزة وسطوة، بينما مسيحية الغربيين وسيلة للضعف والاستكانة.

وهنا يقول:

وبعد، فموضوع بحثنا الآن: الملة المسيحية الإسلامية، وهو بحث طويل النبل، وإنما نأتى فيه على إجمال ينبئه عن تفصيل...

أن الديانة المسيحية بنيت على المسألة والمباشرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية، بل والدينية، ومن وصايا الإنجيل من ضربك على

خدك الأيمن فأدر له الأيسر من أخباره: أن الملوك أنما ولايتهم على الأجساد وهي فانية، والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح هي لله وحده.

والديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب القلب والشوكة والافتتاح والعزة،ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها فالمناظر في أصول هذه الديانة، ومن يقرأ سورة كتابها المترل يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة، وإتقان العلوم العسكرية، والتبحر فيما يلزمها من الفنون، كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها، ومن تأمل في آية: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [1]

وأيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب للغاية، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل سبيلها، والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية، فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه: ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حرم المراهنة ألا في السباق والرماية، انكشف له مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرين عليها... [2].

ونتيجة هذا التنقل بين البلدان في نفس "جمال الدين" مع المفارقات التي رآها في حياة المسلمين وحياة الغربيين: هى أن تكون دعوته إلى التعجيل بحياة إيجابية متكاملة داخل البلاد الإسلامية أقوى، أو على الأقل تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى

([1]) الأنفال : 60.

([2]) مجموعة العروة الوثقى 64- 69.

مكافحة العيوب الجزئية الداخلية، وهى عيوب نشأت عن إهمال الإسلام بسبب ما تراكم عليه من غبار.

كان جمال الدين الأفغاني ـــ لهذا الاتصال المباشر بالغربيين ـــ يضع أمام سامعيه "مثلاً منظورا" من الحياة يريد أن يصل إليه المسلمون، ولكن عن طريق التمسك بإسلامهم الذي أودع في كتاب الله.. وليس عن طريق ذاك الذي شوهته العقول المغرضة وحرفته الألسنة الملتوية.

بينما كان المثل الذي كان ينشده محمد بن عبد الوهاب بعيش في تاريخ الماضي وهو حال المسلمين الأول، وهو كذلك "أمل وغاية" يقدم عليه التابعون للدعوة بدافع محض الاعتقاد والتصور المثالي، أكثر من دافع الحقيقة الشاهدة.

وعلى هذا النحو كان موقف الفريقين: جمال الدين من جانب، ومحمد بن عبد الوهاب والسنوسي الكبير من جانب آخر، في الدعوة و مقاومة النفوذ الخارجي الإسلامي ..

محمد بن عبد الوهاب، وعلى سنته محمد بن علي السنوسي الكبير، كلاهما يقف في تكتيل المسلمين ضد النفوذ الخارجي عن طريق استعراض أوصاف الكفر والإيمان في ذهن المسلم، وما يجب على المسلم اتباعه في شأن الولاية العامة قبل غير المسلم من الحكام والولاة، إذا قيض لهؤلاء أن يديروا أمر المسلمين.

ولكن جمال الدين الأفغاني كان ـــ إلى جانب ذلك ـــ ينتزع الأمثلة من تاريخ الشعوب، ومن تاريخ الأمة الإسلامية نفسها، كان ينتزع الشواهد المحسوسة التي تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية (في الهند ومصر على الخصوص).. هذه الأمثلة التي كان ينتزعها من شواهد الحياة الإسلامية ومظاهرها في

وقته، مع بيان مدى ألاعيب السلطات الأجنبية ودسائسها، وهدفها الذي نهايته بسط النفوذ الأوربي لصالح الجماعة الأوربية وحدها على رقعة العالم الإسلامي.

هذا الاحتكاك المباشر نفسه هو الذي أظهر حركة جمال الدين في صورة حركة سياسة.. وهو نفسه السبب في أن يلقى جمال الدين الأفغاني بمركز الثقل في نشـــاطه على "الحرية السياسية" في الشرق الإسلامي "للمواطنين جميعاً: مسلمين ومسيحيين".

بدا في نشاطه الحديث عن "الأمة" أكثر من الحديث عن المسلم، والحديث عما يجب أن يكون من صلة بين الحاكم والأمة من تبادل المشورة بينهما لا على نحو أن يكون أولهما سيدا والطرف الآخر مسودا ومستعبدا.

كما بدا الحديث عن مقاومة الاستعمار الغربي في صورة سافرة.....

بعد ذلك كله.. أكثر من الحديث عن مقاومة البدع، أو محاربة فرقة معينة مـــن الفرق الإسلامية.

تلون نشاطه بهذا اللون السياسي العام، ولكن عماد هذا النشاط وأساسه الذي يقوم عليه ومصدره الذي يجب أن يخرج منه: بقى «القرآن» والقرآن وحده، يقول: «لا ألتمس بقولي هذا ـــ في الدعوة إلى الوحدة ـــ أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جمـــيعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه»[1].

(1) مجموعة العروة الوثقى ص: 193.

إن حركة محمود هي في واقع الأمر امتداد للكفاح الإسلامي في تاريخ الجماعة الإسلامية، وليست حركة عن غيرها .. إن أساسها كأساس أية حركة كفاحية إسلامية ماضية، وغايتها ذات الغاية لهذه الحركات جميعها.

لقد ركز الإسلامي حده في أول أمره وفي جماعته الأولى: لنشر دعوته.

ثم بعدما انتشرت هذه الدعوة، تحولت جهوده ـــ في آخر عصر الأمويين لمكافحة «الزندقة» الشرقية التي هي من مخلفات العقائد السابقة في الشرق، «الاعتزال» الكلامية، ثم نشأت على أثرها مدارس أخرى تعارضها، أو تحاول أن توفق بينها وبين اتجاه آخر في الجماعة الإسلامية.

وهنا ابتدأ الإسلام يكافح من أجل بقائه والحرص على سلامته، وليس من أجل انتشار دعوته، كما كان الحال في الجماعة الأولى وعلى عهد الرعيل الأول.

ثم انتقل ثقل النشاط في عصر العباسيين لمعانقة الفكر الإغريقي أو مهاجمته، وهو دخيل على الجماعة الإسلامية، وبذلك استمر الوضع السابق في الكفاح، وهو الكفاح من أجل البقاء والسلامة الذاتية.

ثم تحول هذا النشاط قبيل سقوط بغداد، وبعد سقوطها على يد التتار (656هـ)، إلى مقاومة الاعتداء الخارجي المسلح ـــ وليس الاعتداء الفكري ـــ ممثلا في غارة الصليبيين من جانب، والتتار من جانب آخر، وفي الوقت نفسه اتجه جزء من هذا النشاط إلى مقامة الضعف الداخلي الذي تمثل في أثر « الباطنية » وتعاليمها، وفي غلو « التصوف » في تصور صلة الله بالإنسان على نحو حلولي، كما يتضح عند ابن عربي والحلاج، وكان زعيم هذه المقاومة الخارجية والداخلية ابن

تيمية، في القرن الرابع عشر الميلادي ... وكان الكفاح الإسلامي كذلك من أجل البقاء والسلامة الذاتية.

إلى أن جاءت الحركة الوهابية فوضعت ثقل الكفاح على مقاومة الضعف الداخلي، وهو ضعف يستند إلى تعاليم الباطنية، وانحراف فريق من المتصوفة، ومع ذلك لم تغفل هذه الحركة مقاومة الهجوم الخارجي الذي بدت طلائعه في ضعف الخلافة العثمانية، تحت الضغط السياسي، الروسي القيصري المسيحي، والإنجليزي، والأوربي بوجه عام.

حتى جاء جمال الدين الأفغاني فأعاد ميزان الكفاح مرة ثانية نحو مقاومة الاعتداء الخارجي، وهو اعتداء ظهر في ثوب سياسي، فبدت لذلك حركة جمال الدين الأفغاني سياسية، أكثر منها دينية، مع أنها قامت على الإسلام، واستندت إليه في خطواتها، وفي تحديد غايتها.

وهكذا كان لموضوع الكفاح أثر في تلوين الكفاح نفسه...

- ❖ على أيام المعتزلة كان الكفاح الإسلامي كفاحا دينياً، أو « كلاميا ».
- ❖ وعلى أيام الفلسفة الإغريقية كان كفاحا فكريا، أو فلسفيا.
- ❖ وعلى أيام ابن تيمية كان كفاحا ضد الصليبيين أو التتار.
- ❖ وعلى عهد ابن عبد الوهاب كان كفاحا ضد البدعة والخرافة.
- ❖ وعلى عهد جمال الدين الأفغاني كان كفاحا سياسياً ضد الاستعمار الغربي.

وفي كل حركة من هذه الحركات ... كان الدين أساسا أوليا، وفي الوقت نفسه كان هدفا أخيراً وغاية مطلوبة.

حركة « جمال الدين الأفغاني » في مظهرها حركة سياسة، وفي جوهرها حركة إسلامية.

كان جمال الدين الأفغاني يتحدث عن « وحدة المسلمين » مرة، وعن «حكومات إسلامية مستقلة يرتبط بعضها ببعض في « شبه اتحاد » مرة أخرى، ومع ذلك فالشيء الذي لم يتغير عنده هو الدعوة إلى الأخذ بتعاليم الإسلام، سواء في قيام الحكومة الواحدة أو في ارتباط الحكومات المختلفة.

يتحدث عن أخذ ما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ... ولكن على أساس أن يكون ذلك في تلاؤم مع الإسلام، أو لأن الإسلام يدعو إليه.

ويتحدث عن مقاومة الاستعمار الغربي ــ وبالأخص عن مقاومة الاستعمار الإنجليزي، ولكنه في حديثه عن ذلك يتكئ على الإسلام، ويطلب تحقيق تعاليمه.

ينقد سلطان الآستانة وشاه إيران وخديوي مصر، لأن كل واحد من هؤلاء لا يرغب في إعطاء الشعب حريته في الرأي والقول والمشورة، ولا يرغب في إعطاء الشعب دستورا يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين، يأتي نقده لمصلحة الشعب، فتبدو عليه مسحة العمل السياسي ... ولكن هذا النقد أمس على الإسلام وعلى مبادئه التي تصون هذه المقدسات: حرية الشعب، وسيادته، ووضع الحاكم منه وضع المنفذ لمشيئته، لا وضع السيد صاحب السيادة المطلقة عليه.

يدعو إلى الترابط الوثيق بين المسلمين وغير المسلمين في الأوطان الإسلامية وإلى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم، فتبدو دعوته هذه في مظهر «الشرقية» أو

«الوطنية» ــ تبدو سياسية، ولذلك يميل بعض المؤرخين لجمال الدين إلى أن يسمى حركته هذه بـــ « الحركة الشرقية » ... ولكن هو في دعوته هذه مسلم، وعملـــه عمل إسلامي، لأنه يستند إلى الإسلام في تاريخ الفتوح، وفي تعاليمه في الصلة بـــين المسلم وغيره، سواء في مكان واحد، أو مكانين مختلفين.

يدعو إلى نبذ الخصومة بين الشيعة والسنة، ليؤلف بين سلطتين قويتين في رقعـــة العالم الإسلامي آن ذاك: بين سلطة إيران وسلطة القسطنطينية، بعد ذهاب دولة الهند الإسلامية، فيبدو لذاك سياسياً أو وسيطا في مجال السياسة، ولكنه هو يدعو بـــدعوة الإسلام في ذلك.

يحارب المذهب الطبيعي ــ الدهري ــ الذي انتشر في الهند 1879م، والـــذي قال فيه: إنه سيفرق المسلمين هناك إلى طائفتين: طائفة القديم وطائفة الجديد، طائفة أصحاب الطاعة والولاء للحاكم المستعمر، والطائفة الأخرى المناوئة المقاومة لنفوذه وولايته، كما سيفرق بين مسلمي الهند من جانب والخلافة العثمانية من جانب آخر، فيظهر مرة أخرى في دعوته هذه بمظهر الرجل الذي يريد أن يحافظ علـــى وحـــدة الإمبراطورية الإسلامية الجغرافية، ولكنه في هذا الرد يقاوم الإلحاد الديني بصفة عامة، ويوضح ضرورة الدين للمجتمع الإنساني، أي دين، ثم يذكر مزايا الإســـلام، الـــتي تكفل للإنسان متعة في هذه الحياة أرفع بكثير من تلك المتعة التي يهيؤها له اعتنـــاق المذهب الطبيعي (المادي أو الدهري)، فهو في هذا مسلم، وعمله عمـــل إســـلامي كذلك [1].

ويعنينا الآن بالذات مقاومته للفكر الإسلامي الذي قام لخدمة الاستعمار.

---

(1) راجع مجموعة العروة الوثقى: ص 471- 477.

مقاومة جـــمـــال الدين للاستعمار الغربي وللفكر الإسلامي المعاون له

الرد على الدهريين في الهند:

« جمال الدين » يرى أسلوب الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية يتخذ صورا مختلفة للقضاء على الشخصية الإسلامية التي مصدرها القرآن، والـــتي تجمـــع بـــين المسلمين في رباط واحد، وأخطر صورة يراها من بين الصور، تلك الصورة، الـــتي تسعى لإفساد عقيدة المسلم: إما بتشكيكه فيها، أو بمحاولة صرفه عنها، وعنى بذلك الذهب الطبيعي، وهو ما سماه بمذهب الدهريين في الهند، فهو سلاح خطـــر ضـــد المسلمين: ضد قوتهم في وحدتهم، وضد مصدر هذه القوة: الذي هـــو الإســـلام، وخطورة هذا المذهب على الإسلام في نظر جمال الدين الأفغاني وإن كـــان تحـــديا للدين من حيث هو دين، أن الذين يدعون إليه في الهند « لبسوا ثـــوب المســـلم » وقصدوا إلى إضعاف المسلم بالذات في عقيدته، كما نقلنا عنه فيما مضى [1].

ومع أنه صريح فيما نقل عنه سابقًا بتحديد من سماهم جماعة الدهريين في الهند ونياتهم من نشر هذا المذهب بين المسلمين، ذكر في موضع آخر بأنه لا يقصد توجيه الرد إلى هذه الجماعة، ولا إلى التشنيع عليهم، وإنما قصده إحقاق الحق في ذاته فقط ... يقول [2]:

---

(1) مجموعة العروة الوثقى: ص472- 477.

(2) في كتابه الرد على الدهريين: ص28- 29.

« ولا يظنن ظان أنا نقصد من مقالنا هذا تشنيعا بهؤلاء الطبيعيين في الهنـــد .. كلا، إن هؤلاء لا نصيب لهم من العلم ولا من الإنسانية، فهم بعيدون من مواقـــع الخطاب، ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض .. وإنما غرضنا الأصلي إعلان الحـــق وإظهار الواقع ».

ويتضمن رده على الدهريين ثلاثة أمور:

- ❖ بيان ضرورة الدين للمجتمع.
- ❖ وبيان خطر انتشار المذهب الطبيعي على المجتمع.
- ❖ ثم مزية الإسلام كعقيدة ودين على الأديان الأخرى.

الدين ضرورة للمجتمع.

يرى جمال الدين الأفغاني أن العقيدة ـــ كعقيدة، تكفل للمجتمع الإنساني ثلاثة عناصر رئيسية:

- الحياء.
- والأمانة.
- والصدق.

ويفيض في شرح هذه العناصر، وضرورتها للسلوك المستقيم في المجتمع ... مـــرة عن قيمتها في نفسها، وأخرى عن بيان أن المذهب الطبيعي لا يجتمع معها، فضلاً عن أن يكفلها ... وفي بيانه هذا، يسلك طريق « السبر والتقسيم »، يقول [1].

---

(1) ملخصا من صفحات 71- 80 من كتاب: الرد على « الدهريين ».

« إن وهم الدهري لا يجتمع مع فضيلة الأمانة، والصدق، وشرف المهنة، وكمال الرجولة، وذلك لأن الإنسان له شهوات لا تحد... ».

وإن الطبيعة لم تحدد طريقاً معيناً لتحصيل هذه الشهوات، فطريقها:

- إما بالسيف والقوة: وهذا يقضى إلى سفك الدماء والتخريب...
- وإما شرف النفس ، وشرف النفس محدود بالعرف والعادة، وليس له مقياس عام.
- وإما الحكومة: وهي لا تعرف إلا الاعتداءات الواضحة، أما المفاسد المموهة فلا تعرفها ... على أن رجالها قد يكونون أيضاً من المفسدين.
- وإما الاعتقاد بمدبر الكون، وبأنه مالك الجزاء في الحياة الأبدية، وذلك هو المتعين.

ويعقب بعد ذلك بقوله:

«فتبين مما قررنا أن الدين ـــ وإن انحطت درجته بين الأديان وهي أساسه فهو أفضل من طريق الدهريين، وأحسن بالمدنية ونظام الجماعة الإنسانية، وأجمل أثراً في عقد روابط العاملات، بل في كل شأن يفيد المجتمع الإنساني وكل ترق بشري إلى أية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى، فلم تبق ريبة في أن الدين هو السبب الفردي لسعادة الإنسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، و لم يخالطه أباطيل من يزعمونه، ولا يعرفونه، فلابد أن يكون سبباً في السعادة التامة والنعيم الكامل [1].

---

(1) الرد على الدهريين : ص 82 - 83.

أضرار المذهب الطبيعي المادي على المجتمع:

أما أضرار المذهب الطبيعي المادي على المجتمع، فجمال الدين الأفغاني يوضحها بذكر أمثلة من تاريخ الجماعات، التي سيطر عليها هذا المذهب في فترة من تاريخ حياتها قديماً وحديثاً، ويرى أن المذهب الطبيعي قد برز في صور متعددة على هذا النحو:

- مذهب (أبيقور) : في الشعب الإغريقي [1].
- مذهب (مزدك) : في الشعب الفارسي [2].
- مذهب (الباطنية) : في الجماعة الإسلامية [3].
- مذهب (فولتير، وروسو) : في الشعب الفرنسي [4].
- مذهب (العصر الجديد) : في تركيا [5].
- مذاهب (الاشتراكية، الاجتماعية): في أوربا وبخاصة في الشعب الروسي[6].

---

(1) الرد على الدهريين : ص 50 - 54.

(2) الرد على الدهريين : ص 54 - 57.

(3) الرد على الدهريين : ص 58 - 63.

(4) الرد على الدهريين : ص 63 - 65.

(5) الرد على الدهريين : 66.

(6) الرد على الدهريين : ص 67 - 68.

o مذهب (المورمان) : في أمريكا [1].

يقول جمال الدين الأفغاني شارحا لذلك:

«إن حياة الشعب الإغريقي فسدت بإباحية المذهب (الأبيقوري). وكذلك فسدت الحياة في الشعب الفارسي عندما تأثرت (بمزدك).

والمسلمون عندما دخلت عليهم الباطنية [2] (بمذهبهم في القرن الرابع الهجري) بمصر، أفسدت حياتهم، وهو يرى أن ضعف المسلمين ابتدأ حقيقة منذ ظهور (الباطنية)، والعقائد الطبيعية ـــ أو الدهرية، وليست الحروب الصليبية هي بداية هذا العقائد هي إذن التي مهدت لهذه الحروب الصليبية، وكذا حرب التتار [3].

ويلاحظ أن جمال الدين الأفغاني في ترجمة المصطلحات: كان يطلق « الاشتراكية » على الشيوعية Communism « الاجتماعية » على الاشتراكية Socialism.

(1) الرد على الدهريين : ص 69.

(2) وقد تعرف بطائفة « النصيرية » ، نسبة إلى « محمد بن نصير» كان من أتباع الإمام الشيعي الحادي عشر: الحسن العسكري، ثم انفصل عنه وادعى الألوهية، وتسمى الطائفة أيضاً « العلوية »، ومقرها اليوم في سوريا في جبال اللاذقية، ويبلغ عدد أفرادها 356 ألفاً، وسميت بالباطنية لأنها تستبطن التثليت: الأول « روح الله » وهي ـــ على، والثاني المظهر الخارجي لروح الله ـــ وهو « محمد »، والثالث ناشر الشريعة ـــ وهو سلمان الفارسي.

(3) الرد على الدهريين : ص 67.

وينسب إلى الباطنية أنهم يقولون: « إن الله منزه عن مشابهة المخلوقات..؛ ولو كان موجوداً لأشبه الموجودات، ولو كان معدوما لأشبه المعدومات، فهو لا موجود ولا معدوم»[1].

ثم يقول: الفرنسيون حتى القرن الثامن عشر كانت لهم أخلاق فاضلة: قوامها الترابط وعدم الانحلال، حتى ظهر فولتير وروسو، وسخرا من الدين والإله، فبدأ التحلل على أشده، وآراؤها هي التي أضرمت نار الثورة الفرنسية وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها، فاختلفت بها المشارب وتتابعت المذاهب، وقام على مذهب فولتير وروسو مذهب الـ (كومن) Common (الاشتراكية)، ولو تدارك الأمر أرباب العقائد النافعة لنسفت الاشتراكية على أديم فرنسا [2]، وما صنعه نابليون الأول في إعادة المسيحية، لم يجد كثيرًا ... كما لم يجد انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في إعادة الإسلام إلى مجده الأول في الجماعة الإسلامية الأولى.

والأمة العثمانية إنما رقت حالها في الأزمنة الأخيرة بما دب في نفوس بعض عظمائها من وساوس الدهريين، فإن القواد الذين اجترحوا إثم الخيانة في الحرب الأخيرة بينها وبين روسيا، الحرب الروسية التركية 1877- 1878م في البلقان، لزحزحة الأتراك كمسلمين عن شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان، كانوا يذهبون مذهب الطبيعيين، وبذلك كانوا يعدون أنفسهم من أبناء الأفكار الجديدة (أبناء العصر)، وربما كانت هذه الأفكار غاية "جمعية الإصلاح والترقي" التي نشأت بعد

---

(1) الرد على الدهريين : ص 59.

(2) الرد على الدهرين ص 63- 65، وواضح هنا أيضاً أن جمال الدين يترجم "الشيوعية" بالاشتراكية، ولعل هذه المذاهب ومصطلحاتها لم تكن قد تحددت بدقة في الفكر الشرقي في ذلك الزمن المبكر.

ذلك، لذلك خان أولئك الأمراء ملتهم، مع ما كان لهم من الرتب الجليلة، ورضوا بالدنية، واستناموا إلى الخسة، ونسفوا بيت الشرف العثماني، وجلبوا المذلة على شعوبهم بعرض من الحطام قليل [1].

والسوشيالست (الاجتماعيون أو الاشتراكيون)، والنيلست [2]، (العدميون)، والكوميونست (الشيوعيون) غايتهم جميعاً رفع الامتيازات الإنسانية كافة، وإباحة الكل للكل، وإشراك الكل في الكل، وجميعهم على اتفاق في أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة (والإخاء للتمتع بها سواء)، والدين والملك عقبتان عظيمتان، وسدان منيعان يعترضان بين أبناء الطبيعة ونشر شريعتها المقدسة (الإباحة والاشتراك)، فإن من الواجب على طلاب الحق الطبيعى أن ينقضوا هذين الأساسين، يبيدوا الملوك ورءساء الأديان، ثم يعمدوا إلى الملاك وأهل السعة في الرزق، فإن دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا على الاختصاص فتلك، وإلا أخذ بأعناقهم قتلا، حتى يعتبر بهم من يكون من أمثالهم فلا يلوون رؤوسهم كبراً على الشريعة المقدسة، شريعة الطبيعة [3].

---

(1) الرد على الدهريين ص 66.

(2) Nihilist نسبة إلى Nibilism حركة قامت في روسيا سنة 1860- 1871م تدعو إلى الانقلاب بإثارة القلاقل والاغتيال، ويلاحظ هنا أيضاً أن جمال الدين يترجم الاشتراكية بالاجتماعية "السوشيالست" الاجتماعيون"، والشيوعية بالاشتراكية "الكوميونست العدميون".

(3) الرد على الدهريين 67- 68.

وكثرت أحزابهم، ونمت شيعتهم في أقطار المماليك الأوربية، خصوصاً مملكة الروسيا، ولا جرم أن هذه الطوائف إذا استفحل أمرها وقوى ساعدها على المجاهرة بأعمال لها، قد تكون سبباً في انقراض النوع البشري كما تقدم ذكره [1].

الدين الإسلامي:

ثم يتحدث عن الدين الإسلامي فيقول:

إنه مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية إليه، لأن له مزايا ليست متوافرة في دين آخر..

أولاً: صقل العقول بصقال «التوحيد» وتطهيرها من لوث الأوهام، وذلك يحول دون اعتقاد أن كائنا من الكائنات له تأثير نقع أو ضر، كما يحول دون اعتقاد أن الله يظهر بلباس الشر أوحيوان آخر، أو أن تلك الذات المقدسة نالت شديد الألم لمصلحة أحد من الخلق، كما توجد تلك الأوهام: في ديانات براهما في الهند، وبوذا في الصين، وزرادشت في بقايا الفارسيين [2] .

ثانيًا: محق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، وقد لا نجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة: فالبرهمية قسمت الناس إلى طبقات، واليهودية فضلت شعب إسرائيل على بقية الشعوب.

---

(1) الرد على الدهريين ص 68.

(2) الرد على الدهريين ص 85.

ثالثًا: جعل العقيدة قائمة "على الإقناع" لا على التقليد واتباع ما كان عليه الآباء، والدين الإسلامي كما خاطب العقل، ويكاد يكون منفرداً بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون.

رابعًا: نصب العلم ليؤدي عمل التعليم، وإقام المؤدب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1] ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[2].

فإن قال قائل: إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت، فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن؟؟

فجوابه: أن المسلمين كانوا كما كانوا، وبلغوا بدينهم ما بلغوا، والعالم يشهد، وأكتفي الآن من القول بهذا النص الشريف: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[3].

محاربة الاستعمار البريطاني:

أما الشق الثاني في مقاومة الاستعمار الغربي في كفاح "جمال الدين" فيوجهه إلى الاستعمار البريطاني بخصوصه، ولعل ذلك كان نتيجة احتكاكه المباشر به في مصر والهند.

---

(1) آل عمران: 104.

(2) الرد على الدهريين ص 93- والآية من سورة التوبة: 122.

(3) الرد على الدهريين ص 93- والآية من سورة الرعد 11.

ففي مصر: في المدة الواقعة بين مارس سنة 1871و 24 أغسطس سنة 1879م، عاصر جمال الدين بعثة Cave سنة 1875 التي وفدت إلي مصر لفحص ماليتها، وإنشاء مصلحة للرقابة المالية يخضع الخديوي لمباشرتها، وهي تلك الرقابة التي تمثلت في "صندوق الدنيا" الذي أنشئ في سنة 1876م. كما قامت بإنشاء نظام الرقابة الثنائية لمراقبة مصروفات الحكومة من اثنين: أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي، وبإنشاء لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية، ثم تطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا، المنحدر من أصل أرمني، يدخلها وزير إنجليزي لوزارة المالية وآخر فرنسي لوزارة الأشغال، نعم كان الاحتلال البريطاني الرسمي في سنة 1882م، أي بعد ما أبعد جمال الدين عن مصر في سنة 1789م، ولكن إذا عرف أن إبعاده عن مصر قبل الاحتلال البريطاني بثلاث سنوات كان بمشورة القنصل الإنجليزي (المستر فيفان) على الخديوي توفيق، إذا عرف هذا ربما يتضح مقدار النقود الأوربي، الممثل في النفوذ البريطاني بمصر، على عهد إقامة جمال الدين بالقاهرة، والتهمة التي وجهت إلى جمال الدين لإبعاد عن مصر، كانت هي: أنه يرأس (جمعية من الشبان ذوي الطيش تجتمع على فساد الدين والدنيا).

أما احتكاك جمال الدين المباشر بالسلطة البريطانية في الهند: فيتضح من زياراته الثلاث لهذه البلاد.

وقبل هذا وذاك، كان احتكاكه بهذه السلطة على عهد تنازع الأسرة المالكة في أفغانستان على الحكم والملك، بتشجيع الدسائس الإنجليزية، وقد اضطر هو إلى الرحيل من أفغانستان إلى الهند تحت ضغط هذه الدسائس.

ففي المقال الافتتاحي، لأول عدد من جريدة (العروة الوثقى) يصور جمال الدين حادث الاحتلال البريطاني لمصر على أنه كارثة على العالم الإسلامي، وقد أهاب بالمسلمين، بباعث من دينهم، أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال.

يقول [1]:

«... إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين، وأنكمت به قلوبهم، ولا تزال الأمة تستفزهم ما دام الجرح نقارا، وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم الملية أقوى من رابطة الجنس واللغة، وما دام القرآن يتلى بينهم، وفي آياته ما لاً يذهب على إفهام قارئه فلن يستطيع الدهر أن يذلهم، أن الفجيعة في مصر حركت أشجانا كانت كامنة، وجددت أحزانا لم تكن في الحسبان، وسري الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا، بل نفيرا عاماً، تكون صاخة تمزق من أصمه الطمع".

ويقول في موضع آخر [2]:

"نرى أهل هذا الدين ـــ الإسلام ـــ في هذه الأيام، بعضهم في غلظة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم".

"فأهل بلوخستان كانوا يرون حركات الانجليز في أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جائش، و لم تكن لهم نمرة على إخوانهم".

---

(1) مجموعة العروة الوثقى ص 28- 29.

(2) مجموعة العروة الوثقى ص 74.

"والأفغانيون كانوا يشهدون تدخل الانجليز في بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتململون".

"وإن جنود الانجليز تضرب في الأراضي المصرية ذهابا وإيابا، تقتل وتفتك ولا نرى نجدة في نفوس إخوانهم المشرقين على مجاري دمائهم، بل السامعين لخريرها (حلاقيمهم) الذين أحمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وأرجلهم وعن أيمانهم وشمائلهم؛ أما وقد مضى الزمن الكافي لظهور غدرهم وسوء نيتهم، فلا يوجد من الأهالي المصريين من يميل إليهم، بل لا يوجد إلا من يبغضهم، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم، ولكن الوهم هو الذي يجسم المخافة ويكبح العزيمة[1].

"فيأيها المصريون: هذه دياركم وأعراضكم وعقائد دينكم، وأخلاقكم وشريعتكم، قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا، فقد رأيتم أنه أفسد شئونكم، وألق راحتكم، ووهب من بلادكم لأعدائكم، وأضر بمنافعكم العامة، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأموركم، كالأوقاف"[2].

واستمر جمال الدين ـــ بهذا الأسلوب ـــ يوقظ المسلمين بوحي من دينهم، كي يتعاونوا على مقاومة من يذلهم ويستعبدهم، ويكرر الأسلوب في عدة مقالات وفي عدة مناسبات..

ومن بين المقالات التي كتبها في مجلة "العروة الوثقى" سبع عشرة مقالة ـــ من بين مجموعها وهو خمس وعشرون، هي شروح للآيات القرآنية الآتية:

---

(1) العروة الوثقى ص 236.

(2) المصدر السابق ص 249.

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [1].

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [2].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [3].

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [4].

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [5].

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [6].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾ [7].

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [8].

---

(1) الممتحنة: 14.

(2) الأحزاب: 55.

(3)سورة ق: 37.

(4) آل عمران: 118.

(5) الذاريات: 55.

(6) الأعراف: 3.

(7) الأنفال: 46.

(8) يوسف: 87.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (1).

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2).

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (3).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (4).

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(5).

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (6).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (7).

---

(1) آل عمران: 118.

(2) النحل: 33.

(3) العنكبوت: 1- 2.

(4) الحج: 46.

(5) القصص: 5.

(6) آل عمران: 102.

(7) الرعد: 11.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [1].

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [2].

*أما بخصوص الاستعمار البريطاني في الهند فإن السيد جمال الدين فوق أنه رد على الاتجاه الطبيعي، أو الاتجاه العلمي التقدمي الذي حاول به السيد أحمد خان أن يجعل الولاء للسلطة البريطانية مشتقاً من تعاليم الإسلام، وينشئ جيلاً من شباب الهند يعاون الاستعمار باسم التقدمية في الإسلام ــ فوق أنه رد على هذا المذهب، فإنه نفر من زعيم هذه المذاهب بالكشف عن صلته بالبريطانيين في الهند وبيان رزايا الاستعمار في جانب العقيدة، والوطنية، والاقتصاد، والاجتماع.

وهكذا لم يفتأ يصور الانجليز في صورة المنتهك للحرمة والغاصب والمستعبد كما لم يفتأ يوجه نظر المسلمين إلى أن دينهم يحتم عليهم إجلاءهم عن ديارهم، يقول[3]:
يقول[3]:

«مع أن دينهم ــ دين المسلمين ــ يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته، هل نسوا وعد الله بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشعوب

---

(1) الأنفال: 52.

(2) النساء: 78.

(3) المصدر السابق ص 133.

"ولو كره المجرمون"[1]؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لإعلاء كلمته: أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا لا، أن العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم».

وبهذا نرى أن ولاية الأجنبي على المسلمين كانت محور الخصومة في الفكر الإسلامي في ظل الاستعمار الغربي، بين محاول لقبولها وبين رافض إياها، كما نرى أن محاولة قبولها توصف بالتقدمية أو التسامح في العقيدة، بينما يوصف الجانب الآخر بالرجعية والتزمت.

هنا ما كان من كفاح السيد جمال الدين للاستعمار الغربي كمسلم ناقد، أو كداعية سياسي، التزم في دعوته السياسية مبادئ القرآن والسنة الصحيحة.

أما منهجه الذي اقترحه ليجعل من المسلمين قوة متماسكة، سائرة في الحياة، حريصة على أن تكون سيدة نفسها، فيتلخص في هذه الجملة.

«أرجو أن يكون سلطان جميعهم ــ جميع المسلمين ــ القرآن ووجهة وحدتهم الدين».

ويقول شارحا ذلك [2]:

«أما المسلمون، فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا، وأخذوا من كل كما حربي حظا، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة، ظهر فيهم:

---

(1) الأنفال: 8.

(2)المصدر السابق ص 70- 71.

❖ هذا إلى ما أدخله الزنادقة، فيما بين القرن الثالث والرابع الهجري.

❖ وما أحدثه السوفسطائيون الذين أنظروا مظاهر الوجود، وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق.

❖ وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث، وينسبونها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم، ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة، وأن ما يلصق منها بالعقول يرجب ضعفاً في الهمم وفتورا في العزائم.

«وتحقيق أهل الحق، وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة، خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم، والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم ، ومبادئه الثابتة التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دائرة مخصوصة وبين فئة ضعيفة».

«ولعل هذا ـــ يقول الأفغاني ـــ هو العلة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه، ومادام القرآن يتلي بين المسلمين، وهو كتابهم المترل وأمامهم الحق وهو القائم عليهم، يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولا يتهم، ومغالبة المعتدين، وطلب المنفعة من كل سبيل، لا يقنن لها وجهاً ولا يخصص لها طريقاً ـــ فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمطاولة، حفظا لحقوقهم، وضنا بأنفسهم عن الذل، وملتهم عن الضياع، وإلى الله تصير الأمور».

ويقول:

«هل تعجب أيها القارئ من قولي: أن الأصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد ائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها الفضائل وتوسيع المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في الدنية »[1].

«أنا القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن وأهيب من مقته فهو ممقوت، كتاب الله لم ينسخ، فارجعوا إليه، وحكموه في أحوالكم وطباعكم، وما الله بغافل عما تعملون» [2].

«وفي الظن، أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة ـــ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـــ زمنا قليلاً، ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في نفوس المؤمنين، لرأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر، وشهدنا لها يوماً يسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا، وهو مجد الله الأكبر»(3).

«أن حركتنا الدينية (بالدعوة إلى القرآن) كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها، مثل، حملهم نصوص "القضاء والقدر" على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب محدد أو تخلص من ذل ».

«ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه، فيما يثبط همهم عن السعي وراء الإصلاح والنجاح، مما لا عهد للسلف الصالح به ».

---

(1) المصدر السابق ص 58- 56.

(2) المصدر السابق ص 140.

(3) المصدر السابق ص 244.

«فلا بد إذن من بعث القرآن، وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور، وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى ».

«ولا بد من تهذيب علومنا، وتلقيح مكتبتنا، ووضع مصنفات فيها قريبة سهلة الفهم، فنستعين بتلك الكتب والعلوم التي تضمنتها على الوصول إلى الرقى والنجاح»[1].

ويستطرد الشيخ المغربي ــ أحد أبناء مدرسة الأفغاني ــ في شأن الرجوع إلى القرآن وتحديد مفهومه، نقلاً عن الحديث الشفوي بينه وبين أستاذة في تركيا، فيذكر.

«القرآن وحده هو سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، وما تراكم عليه، وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم، فينبغي أن لا نعول عليه كوحي، وإنما نستأنس به كرأي، ولا نحمله على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه، وإرشاد الأمم إلى تعاليمه وتفسيره وإضاعة الوقت في عرضه » [2].

بهذا يكون هناك في تاريخ الجماعة الإسلامية، وفيما أثر عنها فيما يتصل بإسلامها، نوعان من المصادر:

---

(1) سلسلة "اقرأ" العدد 18 ــ ص 99 ــ 100.

(2) المصدر السابق ص 61.

«**مصدر مؤكد**: هو القرآن، وما في منزلته من السنة المتواترة: "فالتواتر" والإجماع، وأعمال النبي المتواترة إلى اليوم، هي السنة الصحيحة التي تدخل في مفهوم القرآن، والدعوة إلى القرآن وحده » [1].

«**ومصدر غير مؤكد**: يصح أن يستأنس به، ولكن يجب أن لا يؤخذ به كما هو، وهو ما تجمع حول القرآن من آراء المسلمين، وشروحهم للإسلام ».

وعلى هذا النحو يكون تحديد الرجوع إلى المصادر الأولى للإسلام وفي الوقت نفسه يكون تقويم المدارس الإسلامية المختلفة عند جمال الدين مماثلاً لما وجد عند ابن تيمية، وابن عبد الوهاب بعده، ومحمد بن على السنوسي الكبير أخيراً.

ولكن الإجماع الذي حدده الشيخ المغربي، نقلاً عن حديث الشيخ جمال الدين، ربما يختلف عن ذاك الذي ينسب إلى جما ل الدين في مجلة "العروة الوثقى" [2] ونصه:

« وقد بلغت مكانة الإتفاق في الشريعة الإسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية، حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفا عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين، وعد جحوده مروقا من الدين، وانسلاخا عن الإيمان ».

فهذا النص في "العروة الوثقى" يفيد أن "الإجماع":

❖ **أولاً**: هو إجماع الأمة.

---

(1) المصدر السابق ص: 60.

(2) مجموعة العروة الوثقى ص 145 ــ 146.

❖ **وثانيا**: أن حجيته هي في كل وقت، وليست قاصرة على وقت معين، وجيل معين من المسلمين.

بينما الذي يفيده تحديد الشيخ المغربي، نقلاً عن حديث جمال الدين في إجابته عن أسئلة وجهها إليّه: أن الإجماع هو إجماع الصحابة (رضوان الله عليهم) على عمل أو أمر وقع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو بهذا التحديد له حجيته في الجماعة الإسلامية كلها، وله مترلة تقرب من مترلة القرآن.

ونص الشيخ عبد القادر المغربى في هذا النص، كما يلي:

«وكذا إجماع المسلين في المصدر الأول، على حكم من الأحكام العملية الماضية من الزمن: هو ما يتمشي مع القرآن، ولا سيما أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في حياته هي: تفسير القرآن، وعمل بالقرآن » [1].

والفرق بين النقلين في معنى الإجماع: أن أي إجماع بعد إجماع الصحابة، وقع في عهد لاحق لعهد الصحابة، له حجيته في نقل "العروة الوثقى" وليست له حجية في نقل "الشيخ المغربي" .

هل نقل "الشيخ المغربي" يعتبر تخصيصاً للعموم في معنى الإجماع الذي ورد في "العروة الوثقى".

ربما، ولكن الذي يفهم من روح مقال "العروة الوثقى" أن جمال الدين قصد هذا العموم، لأنه في سبيل قيمة التكتل والوحدة والاتفاق، وهنا يبدو جمال الدين زعيما شعبيا، أكثر منه مفكرا مجتهداً.

---

(1) سلسلة "اقرأ" العدد 68 ص 61.

بهذا، شرح السيد جمال الدين الأفغاني رأيه في الرجوع إلى القرآن وإلى تعاليمه الصافية، بعد أن آلت شروحه السابقة وتخريجه المتنوع إلى مذاهب، وآل أمر هذه المذاهب إلى تفريق الأمة إلى طوائف، وآل أمر الطوائف إلى العصبية والتنابذ في الخصومة، وصار ذلك كله بالأمة إلى الضعف، ثم إلى الانهيار.

يقول في بعض كتاباته، متعجبا من أمر الفرقة بين المسلمين، مع وحدة المصدر في التوجيه، وعدم الاختلاف في المصالح العامة.

«أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حكمهم بفكر سديد وعقل رشيد، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين، فليس بينهم وبينهم: ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية، فالجميع من أصل واحد، وتجمعهم رابطة واحدة وهي أشرف الروابط: رابطة الدين الإسلامي» [1].

يريد أضعاف الفوارق بين المسلمين، لتقوى سيدة المسلمين على أنفسهم وأمام غيرهم، وإذا اهتم جمال الدين الأفغاني بالإسلام كله بوجه عام في كفاحه ضد الاستعمار الغربي، فإنه يهتم على وجه الخصوص بذلك الجانب من الإسلام الذي يدعو المسلمين إلى العزة والمحافظة على استقلالهم في شخصيتهم بعدم انصهارهم في غيرهم، فضلاً عن الخضوع والاستسلام للأجنبي المتحامل عليهم.

بيد أن جمال الدين الأفغاني لم يحاول تلك المحاولة التي حاولها فيما بعد "محمد إقبال" في الهند والشيخ "محمد عبده" في مصر، من شرح المنهج الذي يحول دون الاستمرار في ضعف الأمة الإسلامية، والذي يخلق نشئا آخر يشعر بالأخوة الصادقة

---

(1) مجموعة العروة الوثقى ص 94.

بين المسلمين جميعاً، كما يشعر بقوة الإسلام في توجيهه نحو حياة أفضل، ونحو مجتمع متماسك البناء، وهذا النهج قد عرف عند إقبال بـــ « إعادة تجديد مفاهيم الفكـــر الديني في الإسلام » كما عرف عند الشيخ محمد عبده بمنهج "التربية الإسلامية" أو التربية القومية.

جمال الدين الأفغاني وابن تيمية:

قام جمال الدين الأفغاني ـــ إذن ـــ بحركته في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، كرد فعل للاستعمار الغربي، وخاصة في مصر، وقد بدت الرغبة في اســـتعمار مصر واضحة منذ مشروع قناة السويس، ثم اشتدت هذه الرغبة في وضوحها منـــذ الاحتفال بافتتاحها على عهد الخديوي إسماعيل، حتى كشف عنها القناع تماماً منـــذ الاحتلال البريطاني سنة 1882م.

وفي سبيل مواجهة هذا الاستعمار، طالب جمال الدين الأفغاني بمقاومته، ولأجل هذه المقاومة عمل على إيقاظ روح التضامن الإسلامي، عن طريق: طلب التمسك بالقرآن، وإلغاء العصبية المذهبية، وطرح التقليد الحزبي، وإعمال الاجتهاد في فهـــم القرآن، والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التي يعيش فيهـــا المســـلمون، وطـــرح الخرافات والبدع، التي غيرت من جوهر الإسلام، والتي جعلته وسيلة سلبية في الحياة، بل من كونه حقيقة واضحة، وقوة إيجابية في السيطرة على الحياة وتوجيهها، لقـــد أراد جمال الدين الأفغاني في كفاحه ضد الاستعمار الغربي أن ينقل المسلمين من حال الضعف إلى حال القوة، كي يستطيعوا مواجهة الاعتداء الغربي في أعداده المنظمـــة وعدته القوية.

❖ رجال الضعف التي كان عليها المسلمون إذ ذاك، تتمثل في: تفرق الكلمة – في تعصب– بسبب كثرة المذاهب وتباينها، والتقليد– في تبعية لا تخضع لتـرو أو فهم– لآراء أرباب الفرق ، والانحراف عن الإسلام بالاعتقاد في البدع والخرافات، ككرامات الأولياء، وقدرتهم على الشفاعة والوساطة.. هذا إلى سلبية واضحة في الحياة باتباع التصوف المنحرف، وتحكم عقيدة الجبر والتسليم في التوجيه .

❖ أما حال القوة: فهي في طرح ذلك كله... والتمسك بالقرآن كأساس موحد بين المسلمين، وايجابية في الحياة بمباشرة الاجتهاد على الوضع الذي كان عليه السلف.

حال الضعف التي وصفها جمال الدين للمسلمين في وقته، هي حال الضعف التي كان عليها المسلمون في وقت "ابن تيمية".

ووسيلة القوة والتكتل التي حددها ابن تيمية من قبل، هي الوسيلة التي تمسك بها جمال الدين، وأصر على سلوكها.

وليس هناك اختلاف بين الاثنين، سوى أن: ابن تيمية برهن كعالم إسلامي مطلع، استخدم الدليل الديني والمنطقي في تدعيم رأيه، وكتب وراسل وألف، أما جمال الدين فاتخذ أسلوب "الإثارة" وإيقاظ الوعي، فتحدث وخطب، واتصل بزعماء المسلمين وقادتهم اتصالاً شخصيا مباشرا، مستحثا همهم، ودافعا إياهم إلى مقاومة الاعتداء الغربي، في أية صورة من صور المقاومة، لأنه اعتداء مذل مخرب.

ابن تيمية: كان مضطراً أن يؤلف، وأن يحاج بالدليل النظري والمنطقي أو النقلى، لأن خصومه في داخل الجماعة الإسلامية دفعوه إلى الحجاج والتراع العلمى، وهؤلاء الخصوم هم أرباب الفرق الإسلامية المختلفة.

أما جمال الدين: فقد حدد له خصومه ـــ وهم المستعمرون ـــ نوع الوسيلة التي يقاوم بها، وهي وسيلة الإثارة، والتكتيل الشعبي، عن طريق إلهاب العواطف واستفزاز الهمم الإنسانية والحماس الديني.. إذ المستعمر كان حاكما للشـــعوب الإســـلامية، ومقاومته يجب أن تكون، في الصف الأول من الشعوب ذاتها، وتكتيل الشـــعوب، وتجميع القوى المنثورة فيها، يتبع إثارة العواطف، قبل أن يتبع الإقناع بالحجة.

ومع ذلك فقد خلق جمال الدين: جيلاً من القادة، خلفه بعد وفاته، على أساس من المعرفة والتبصير الهادئ الرزين، وعلى أساس من فهم صحيح للإسلام وتعاليمه، وفي توجيه العالم المجرب، فلم يكن جمال الدين قائد شعب أو شعوب ضد اعتـــداء أجنبي قوى منظم فحسب، بل كان مع ذلك رائد فكرة، ورائد فهم سليم للإسلام، ولولا دفع جمال الدين الأفغاني وتبصيره العلمي الإسلامي، لما رأينا من بعد شخصية كشخصية الشيخ محمد عبده، تتميز كل التميز عن أقارنها يومئذ في فهم الإسلام وفي تقدير قيمه، وفي فهم الحياة وظروفها، ولما وجد هذا النظام الإسلامي الشامل للحياة الإسلامية في ظل الإسلام وتعاليمه، الذي وضحه تلميذه المخلص محمد عبده.

هذا فضلاً عن الفارق، الذي ذكر غير مرة، وهو: أن كلا من حركة ابن تيمية وحركة جمال الدين الأفغاني، أخذت طابعا معيناً، أملته ظروف كل من صـــاحب الحركتين، فقد أملت ظروف الشيخ جمال الدين الأفغاني عليه وسيلة الكفاح في رد الاعتداء، كما أملت عليه طابع حركته، فأصبح مظهرها مصبوغا بالصبغة السياسية، لأنها في مواجهة اعتداء سياسي مقنع، ينطوي تحته اعتداء صليبي، وقد كشف اللورد النبي ـــ بعد ما استولى على القدس في أعقاب الحرب العالمية الأولى ـــ هذا القنـــاع بكلمته المشهورة: "الآن انتهت الحروب الصليبية، وانتصرت".

تقدير المستشرقين لجمال الدين الأفغاني:

مع نشاط جمال الدين الواسع، وحركته الدائبة في مقاومة الاستعمار الغربي، وجلده القوى الطويل المدى في هذه المقاومة، يحاول المستشرقون وزنه وتقديره في جانبه الفكري، على أساس أنه لم يكن عميق التفكير و لم يكن الشخص الذي يمكنه أن يفيد الإسلام في عرض أفكاره وتعاليمه له.

يعلق المستشرق "الانجليزي "جب" عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، في كتابه: "الاتجاهات الحديث في الإسلام"The Modern Trends In Islam على رأى "محمد إقبال" على النحو الآتي: [1].

"إقبال يرى أن جمال الدين كان إنساناً له نظرة عميقة في تاريخ الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية ... لذلك كان يعتقد أن جمال الدين لو ركز قوته الذهنية في خدمة الإسلام كنظام للتوجيه الإنساني والحياة الاعتقادية للإنسان، لوجد العالم الإسلامي اليوم على أساس أقوى بكثير" ... وعلى هذا الرأي يعقب "جب" بقوله: "أن العمل الوحيد الذي نشر لجمال الدين إنسان له هذه الاستطاعة العقلية، على نحو ما تنبأ إقبال".

ولو فارقنا "جب" إلى مستشرق آخر، مثل "برون" Brown أو "آدمز" Adams، لوجدنا أن جمال الدين في كتاباتهم: شخصية تملكها العقد على الاستعمار الغربي، بعد أن تمكنت منه العاطفة غير المعتدلة في أحكامه وفي مقاييسه، أما نصيبه في التفكير عند أمثالهما: فغير وافر في أكمه، وغير عميق في نوعه.

---

(1) صفحة 28 - 29 من كتاب: The Modern Trends In Islam.

ويقدر المستشرقون جمال الدين على هذا النحو، لأن جمال الدين واجه الاستعمار الغربي وجهاً لوجه، ولم تضعف إرادته في مقاومته، ولم يدار أو يموه بالنسبة لنقائض الغرب في المجتمع البشرى، وقد أشاد بالإسلام في مواجهة المسيحية، فكان نصيبه من دراسة المستشرقين لآثاره نصيب الفكر الإسلامي ابن تيمية، الذي وصف في كتاباتهم بضيق الأفق وعدم تقديره للعقل الإنساني فيما كتبه في: "رد المنطق"، ويعلم الله أن ابن تيمية أراد بكتابه هذا أن يبين أن الإسلام ليس في حاجة إلى (منطق الإغريق) لبروج، أو لتوزن به مبادئه، فله أسلوبه الخاص، ومنهاجه الواضح في الدعوة إلى الله وهدايته للإنسان، ولكن السبب الخفي في الحقد على ابن تيمية، هو مهاجمته للمسيحية، في شخص الصليبية التي حاولت انتزاع بيت المقدس من المسلمين، كما حاولت تحطيم جمعهم والنيل من مقدساتهم.

وقبل أن ننتقل من عرض الكفاح الفكري الديني والسياسي لجمال الدين الأفغاني، يجب أن نشير إشارة وجيزة إلى رده على المستشرق الفرنسي رينان Ernest Renan أثناء إقامته في باريس سنة 1882م.

ألقى رينان محاضرة في السوربون عن: (الإسلام والعلم) في مارس سنة 1883م، وذكر في هذه المحاضرة: أن الإسلام لا يشجع الجهود العلمية، بل هو عائق لها، بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات، وإيمان تام بالقضاء والقدر (الجبر).

(أن المرء ليتساءل ــ بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها: أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها، أم كان منشوة الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في

العالم، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حملت على اعتناقه بالقوة وعاداتها ملكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك) [1].

ومعنى هذا: أن تقييم الإسلام، من حيث هو دين ومنهج هداية من الله سبحانه وتعالى، يجب أن لا يدخل فيه ما ينسب للإنسان من افهام وعادات، وإنما يجب أن يراعى في تقييمه ـــ فحسب ـــ مدى حظ مبادئه في هداية الإنسان وتوجيهه السليمة الملائمة لحياته، كإنسان متميز عن غيره من الكائنات الأخرى: يجب أن لا تكون صنعة الإنسان العقلية فيه، وعاداته التي ورثها، هي الميزان والفيصل في تقدير مبادئ الإسلام.

وفي هذا المجال بالذات، سنعرض لرد الشيخ محمد عبده فيما بعد على ما ذكره رينان هنا، وسيتجلى لنا فرق واضح بين رد التلميذ وأستاذه: ففضلا عن أن الشيخ عبده أوضح تماماً (وجوب الفصل في القيم) وعدم الخلط في تقييم الفكر والمبادئ بقيم حامليها والمتصلين بها، فقد عمد إلى شرح عقيدة (القضاء والقدر) التي كانت محور تشنيع رينان على الإسلام، بما يبعدها تماماً عما يسمى الإيجابي في الحياة، وبذلك استطاع الشيخ عبده أن يدخل دخولاً مباشرا في الشكل، ويحدد معناه من تاريخ الإسلام نفسه، رافضا المعنى الآخر الذي يعتبر دخيلا، وهو معنى (الجبر) الذي يراد أن تؤسس عليه النتيجة التالية: أن يدعو إلى عدم العمل، فهو لذلك صورة من الصور الـ Fatalism، أو هو ذلك المذهب المعروف، بالتواكل.

ولأن السيد جمال الدين لم يعن في هذا الرد عنايته في الرد على الدهريين بالهند، ولم يكن لتفكيره هنا نفس العمق ولا أسلوب الجدل القوى اللذين يكونان طابع

---

(1) أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث: ص 86.

التفكير عند الشيخ عبده في رده على رنتان، قصدنا إلى الإشارة الموجودة لرد السيد جمال الدين هنا، إتماما لتصوير كفاحه ضد الاستعمار الغربي: في مظهره السياسي، وفيما أوحي به هذا الاستعمار من فكر مشككة أو عقائد ناشزة يحترفها دعاة من المسلمين، وأخيراً فيما يوعز به من الخارج، ويدفع به إلى داخل الجماعة الإسلامية، بغية تمزيقها، وقصدا إلى خلخلة الصلة بين المسلم وإسلامه.

مات جمال الدين الأفغاني في سنة 1897م، بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربي استمر قرابة ثلاثين عاماً، ولكن ما أن توفى -رحمة الله تعالى عليه- حتى انتشر كفاحه واتجاهه في التفكير في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وبخاصة في تلك الأنحاء التي تسلط فيها الأجنبي وعبث بمقدسات المسلمين وبكراماتهم واقتصادياتهم ومواردهم في الثروة الطبيعية.

مات جمال الدين الأفغاني في استانبول، وظهر أثره ...

- **في مصر**: عقد محمد عبده ومدرسته (السلفية).
- **وفي الجزائر**: في جمعية علماء الجزائر (لمؤسسها المرحوم عبد الحميد ابن باديس المتوفي سنة 1940م).
- **وفى اندونيسيا**: في حركة تجديد (المنار).
- **وفي الهند**: جماعة أهل الحديث، وفي ندوة العلماء (لمؤسسها محمد شبل النعمانى المتوفي 1941م) **وفي أزهر الهند**: في مدرسة دار العلوم في (ديوبند)، التي نقلت بعد تقسيم 1948م إلى (أكوري) ببشاور في الباكستان.

وفي كل هذه الحركات، نجد هدفا واحداً: هو تحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي، ومحاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير، ثم نجد مع هذا الهدف، الوسائل لتحقيقه.

- أما تحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار الغربي في كل هذه الحركات: فيعتمد على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم وتآخيهم، واسترجاع هذه القوة يعتمد بالتالي على طرح ما طرأ على الإسلام من عادات غربية في السلوك، وأفهام سقيمة في تخريج نصوصه وشرح تعاليمه، ثم على الرجوع إلى موقف المسلمين الأول من القرآن في استلهامهم التوجيه منه مباشرة، لطبع تصرفاتهم بالطابع الإسلامي من جهة، ولوصولهم إلى الغاية التي ينشدونها في أمان وسرعة من جهة أخرى.

- وأما محاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير: فبالوقوف في وجه الشبه التي تثار، والتخريجات المغرضة لنصوص مصدري الإسلام: القرآن والسنة الصحيحة، وبيان محاولات تزييفها بالأسلوب العلمي والتاريخي، وتصحب ذلك محاولة تقريب مبادئ الإسلام من العقلية الإسلامية الحديثة، وتوضيح أن هذه المبادئ هي لتوجيه الإنسان توجيهاً سليماً، سواء في عصر الإبل، أو في عصر الحضارة القديمة: الهندية، والفارسية، والإغريقية، أو في عصر الحضارة الإسلامية، أو في عصر البخار والآلة، أو في عصر الذرة والإنسان الآلي الذي لم يشهده جمال الدين، وتوضيح ذلك كله، ليس من الوجهة النظرية فحسب، بل من الوجهة العملية أيضاً.

ولهذا التشبه في الهدف والوسيلة بين هذه الحركات التي ترجمت كفاح جمال الدين الأفغاني من جديد، نجد ما ينسب إلى الشيخ عبده في مصر من حركة إصلاحية، ودعوة إلى تجديد المفاهيم الإسلامية تحت تأثير الحياة الحديثة وما فيها من حضارات لم تكن مألوفة، وإمكانيات لسيطرة الإنسان على الحياة لم يكن للمسلمين

عهد بها من قبل، هو ما نجده كذلك عند زعماء تلك الحركات "التحررية". والاختلاف بينها: في سعة الحركة الإصلاحية أو ضيق نطاقها، أو في قوة الدعوة إليها أو ضعفها.

وما نسب للشيخ عبده: من منهاج تربوي لتنشئة المسلم الصغير، وتقويم العامي، وتخريج الدعاة والباحثين، وتثقيف المرأة، وما نجده عقده من منهاج للتعليم "الوطني". نجده أيضاً أساسا من أسس تلك الحركات، مع ما قد يكون من فارق بينها في النوع أو الكمية.

- فالتعبئة العامة للشعوب الإسلامية على أساس من دينها، لا على أساس من مذهب الطوائف فيها، ومن أجل هذا الدين... هي مجمل هذه الحركات.

- وأن يكون الدين لسيادة المؤمنين به، وأن يكون واجب هؤلاء المؤمنين أن يحافظوا عليه ويتمسكوا به ويدافعوا عنه لتبقي لهم السيادة... هذا هو شعار تلك الحركات.

ذلك وصف إجمالي للاتجاه الفكري الإسلامي المقاوم للاستعمار الغربي، أما الاتجاه الآخر المقابل له... فقد أدرك الاستعمار أن مذهب العقيدة الجديد الذي ساعد هو على قيامه وانتشاره في الهند، وفيما وراء الهند بعد ذلك- في أسيا وأفريقيا، حتى أوربا نفسها (في لندن وألمانيا) سوف لا يلقي الانتشار المرجو له، لأن مخالفته الأصول الإسلامية بدت مخالفة واضحة صريحة، كما سبق أن أشير إلى ذلك، ومع ذلك يجب أن تستمر مساعدته ومساندته، إذ مهما كان من أثر فسيجذب بعض تفكير المسلمين المعارضين إلى بحث قضايا دينية، وسيشير عندهم جدلا، وسيأخذ من وقتهم ما يحف به ضغطهم ضد الاستعمار، وتضعف به يقظتهم

لأسلوب أخر يستخدمه الاستعمار في تأمين نفسه، ولن يكون آمناً على نفسه إلا عندما يتقسم المسلمون إلى شيع يجادل بعضها بعضاً، وإلا عندما تضعف القيم الإسلامية في نفوسهم.

لهذا عاد الاستعمار من جديد تشجع اتجاه السيد « أحمد خان » وهو اتجاه « التجديد » في الإسلام، ومحاولة الملاءمة بين تعاليم الإسلام وقوانين « العلم » أو الطبيعة.

وهنا- منذ انتهاء القرن التاسع عشر- برزت نزعة التجديد في التفكير الإسلامي وتحديد غايتها في وضوح:

- في محاولة الملاءمة بين العلم والدين.
- وفي إعادة امتحان أسس العقيدة واختبارها، في ضوء الفكر الغربي الحديث.

وظهر في مصر مجددون...

وفي الهند، وفي إيران، وفي تركيا... ظهر مجددون آخرون..

وفي الوقت الذي كانت عوامل الاستعمار الغربي تعين على دفع حركة التجديد في هذه الخطوات: في سيرها نحو تقريب الفكر الغربي للعقلية الإسلامية على حساب التعاليم الإسلامية الأصيلة، بدعوى الملاءمة بينهما، وبدعوى أن الفكر الغربي الحديث أثبتت الحضارة الغربية قيمته ووزنه في الحياة، فلكلى يعيش الإسلام أو لكي يبرهن الإسلام على وجود نفسه أو صحته: يجب أن يسير في اتجاهه ويختبر نفسه بموازينه...

في هذا الوقت نفسه، كانت عوامل الاستعمار نفسها تضغط على الثقافة الإسلامية، وعلى المظاهر الإسلامية بين الشعوب الإسلامية، بدعوى أن التشدد فيها

نكسة ورجعية، وأن التزام مجاراتها يبعد الإنسان الحديث عن أن يعيش في الحياة الحديثة، وقد ربط الاستعمار في التدليل على ذلك: بين حال المسلمين إذ ذاك- وهي حال متأخرة- هزيلة.. وبين ما سماه التمسك بالإسلام أي أن تلك الحال المتأخرة في نتيجة التمسك بالإسلام.ترى أي إسلام يتمسك به المسلمون أصحاب هذه الحال؟؟.

أهو إسلام القرآن... أم إسلام البدع وإسلام التعصب للمذاهب؟؟

وتولى أعوان الاستعمار في الأجهزة المشرفة على التعليم والتوجيه الرسمي القيام بهذه الرسالة: وهي الضغط على الثقافة الإسلامية، في برامج المدارس وفي الوظائف الحكومية، وفي حياة المجتمعات الإسلامية، وهكذا وجد في الهند، وأندونيسيا، والجزائر « دانلوب » أخر، على نحو « دانلوب » مصر، ووجد ازدواج في التعليم: أحدهما مدني والآخر ديني، والمدني هو التعليم التقدمي، والديني هو التعليم الرجعي، وصاحب الثقافة المدنية هو الأجدر لذلك بوظائف الحكومة، أما صاحب الثقافة الدينية فهو نفسه لا يصلح للحياة في نظر هذا المنطق، فضلاً عن أن ينتظر منه أن يساهم في دفع الحياة إلى الأمام.

والأزهريون في مصر، والمتخرجون في مدرسة دار العلوم " بديوبند" بالهند وفي جامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بالمغرب، يحملون صفة التخلف عن ركب الحياة، لا لشيء إلا أنهم حملة الثقافة الإسلامية ودعاة الفريق الإسلامي المناوئ للاستعمار، وانقسمت الجماعة الإسلامية بذلك كل قطر إسلامي إلى جماعتين، كل منهما تحمل الحقد والكراهية للأخرى، والاستخفاف في التقدير، وسوء الفهم في المعاملة.

- وظهر في أصحاب الثقافة الدينية، أي اللادينية، واللاإسلامية: فريق دعـــاة التجديد.

- بينما قام من أصحاب الثقافة الإسلامية: نقر ـــ قليل ـــ يدعو إلى "الإصلاح الديني" وإلى تمجيد القيم الدينية، كما يدعو زملاءه في الثقافة إلى تحصيل المعـــارف الحديثة، لا حرصاً على المساهمة في هذه الثقافة إلى تحصيل المعـــارف الحديثـــة، ولا حرصاً على المساهمة في هذه الحياة القائمة، ولكن لأن الإسلام نفسه يدعو إلى العلم والحضارة، كما يدعو إلى القيم والفضائل الإنسانية.

ومن هنا وجدنا الشيخ "محمد عبده" في مصر يدعو إلى إصلاح الأزهر، ويربط بين إصلاحه وإصلاح حال المسلمين، وفهم رسالة الإسلام على حقيقتها، وأخـــيراً يربط بين هذا الإصلاح من جانب، ومقاومة الاستعمار الغـــربي وســـيادة الأمـــة الإسلامية على نفسها من نفسها من جانب دعوة الشيخ (محمد عبـــد) لإصـــلاح الأزهر صادفتها دعوة مماثلة في الجزائر عن طريق (جمعية العلماء)، التي حرصت كل الحرص على تحويل أكبر عدد ممكن من المدارس الأولية في القرى إلى مجال تحفـــيظ القرآن الكريم، إبقاء على اللغة العربية وعلى الروح الإسلامية والشـــعور بالإخـــاء الإسلامي، ذلك الذي بدأ أثره واضحاً اليوم في الكفاح الدموي بين مسلمي الجزائر والاستعمار الغربي، و لم يؤثر قرن وربع قرن من الزمان على تلك الروح، وفات على المستمر مقصده الذي طالما سعى لتحقيقه المستمر بمحاربة اللغة العربية، ومنعها مـــن التداول، إلا في نطاق ضيق، وكذا بتشويه الإسلام عن طريق الارساليات التبشيرية، وما يسميه بالبحوث العلمانية، وبحوث المستشرقين، أصحاب المشورة والـــرأي في توجيه السياسة الاستعمارية في الشرق الإسلامي.

وعلى غرار دعوة الشيخ (محمد عبده) في مصر قامت دعوة أخرى في الهند، سواء في مدارس (أهل الحديث) هناك، أو في مدرسة (دار العلوم) بديوبند.

و لم يفت الاستعمار الغربي، مع ذلك ، أن يبشر بفكرة جديدة تبدو بعيدة عن الإسلام وتعاليمه، ولكنها متصلة به اتصالاً وثيقا، فإن نجحت هذه الفكرة كانت وسيلة أخرى لصم المسلم عن إسلامه أو إضعاف اعتقاده به، وإن لم تنجح فقد خلقت جوا من التوتر بين المسلمين، وبالتالي أحدثت اهتزازا لماضي المسلمين.

من ذلك: فكرة كتابة العربية بالحروف اللاتينية ــ كما فعلت تركيا...

وفكرة نشر (الثقافة الخفيفة)...

وفكرة اللغة العامية في أسلوب الكتابة وفي الأحاديث الإذاعية وفي مقالات الصحف.

كل ذلك، بدعوى أن ذلك يجارى الواقع من جهة، أو يدعو إلى تخفيف الانفصالية بين الشرق والمغرب من جهة أخرى.

وكل هذه الأفكار تقوم على وضع حجاب كثيف بين ماضي الشعوب الإسلامية ــ في تاريخها وإسلامها وكفاحها وبطولتها ــ وبين حاضر هذه الشعوب، حتى لا تستطيع أن تستند إلى ذلك الماضي يوم أن يعتدي عليها أو تسلب حقوقها.

على أن الاستعمار الغربي وقد وضع خطته هذه في توجيه الفكر الإسلامي وجهة ملائمة له، وعمل على ضغط الثقافة الإسلامية: بالتقليل من شأنها، وإبعادها عن مجال التثقيف، والتخفيف من شأن حملتها، بتقديرهم تقديرا مادياً متواضعاً في

الدائرة الضيقة التي يسعون للتوظف فيها، لم يفته أن يضع مثل ذلك في سياسته التي يدبر بها الشعوب الإسلامية الأخرى.

- فخلق المشكلات الطائفية في (لبنان)، متذرعا بإحصاءات واعتبارات تتلاعب في تقديرها الأهواء، وليحول وجودها دون تكتل شعوب الشرق الأدنى على أساس من الإسلام.

- وقرر (تدويل القدس)، ليس سوى عمل سياسي استعماري غربي لتحقيق فكرة الكتلة الصليبية، في إبعاد المسلمين (البرابرة) عن مهد (الإنسانية).

ولا يفتوني هنا بالذات، أن أشير إلى سذاجة وزير مصري مفوض لدى الفاتيكان في العهد السابق قبل قيام الثورة، وبعد أن نشأت العلاقات الدبلوماسية بين الفاتيكان وبين مصر في أعقاب الحرب العالمية الأخيرة، كان يكتب التقرير تلو التقرير إلى وزارة الخارجية المصرية يمجد فيها رأى الفاتيكان في تدويل القدس، وبعد هذا الرأي تقربا من المسيحية الكاثوليكية إلى الإسلام، ويطلب مزيداً من التعاون بينهما في النطاق الدولي، والنطاق الثقافي، وللفاتيكان نفسه عشرات من المدارس الدينية في مصر، ولها أسماء مختلفة بأسماء عدد من القديسين، أو بأسماء دينية مسيحية: (كالسكركير) و(المير دجي دبيه) و (الفرير) و (الجزويت)، وهي تعلم لغات مختلفة كالألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية، وهدفها واحد والتوجيه فيها يخضع لمجلس يرأسه القاصد الرسولى في مصر، وهو ممثل دولة الفاتيكان.

- وما مشكلة (كشمير) إلا وسيلة أخرى، للحيلولة دون نمو الباكستان وتقدمها الزراعي على وجه خاص، وخلق هذه المشكلة عند قيام هذه الدولة أشبه بتهديد الغناء لمولود جديد، لم تتوافر له كل امكانيات المولود الطبيعي.

- أن دعاة "الإصلاح الديني" بعد جمال الدين الأفغاني" يمثلون حركة دفاع أو إنقاذ.

- ودعاة "التجديد"، يعد السير أحمد خان، يمثلون الهجوم الصليبي الاستعماري الغربي على مقومات المسلمين، ولكن ليس بلازم أن يكون جميع هؤلاء المجددين على صلة مباشرة بالاستعمار الغربي وبخططه، بل كثيرًا ما يكونون قد تأثروا ببريق (التجديد) وما صحبه من حضارة مادية تأثرا إيجابيا، بينما تأثروا على النقيض بحاضر المسلمين، ومستوى حياتهم المتواضعة، وضعف سعيهم نحو حياة ومستقبل أفضل.

وسنعرض فيما يلي لاستمرار الفكر الإسلامي المقاوم للاستعمار، في حركة: الشيخ (محمد عبده)..

على أن نتبعه بعرض للاتجاه الآخر في صورة (التجديد) و(المجددين).

محمد عبده

يصور الشيخ (محمد عبده) أهداف تفكيره، بقلمه الخاص فيما يلي:

« ... وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

** **الأول**: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتباره- الدين- ضمن موازين العقل البشرى التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه... وقد خالفت في الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم.

أما الأمر الثاني: فهو إصلاح اللغة العربية...

وهناك أمر أخر: كنت من دعاته، والناس جميعاً في عمى عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل ألا بخلو مجتمعهم منه... وذلك هو التمييز بين ما حكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم، كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها... دعوناها إلى الاعتقاد بأن شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطته، ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل.

« جهرنا بهذا القول، والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له، أي عبيد..

« نعم، إنني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع، ولا الرئيس المطاع، غير أني كنت روح الدعوة... أصبت نجاحا في كثير مما غنيت به، وأخفقت في كثير مما وجهت

عزيمتي إليه، ولكل ذلك أسباب: بعضها مما غرز في طبعي... وشيء منها مما دار حولي... »[1].

محمد عبده في طريق جمال الدين:

لم يشذ الشيخ محمد عبده في حركته الفكرية، عن أن يسير في ذات الطريق الذي سلكه جمال الدين الأفغاني، ولا عن الغاية التي وضعها هدفا له ... كما اعتمد على نفس السند الذي اعتمد عليه أستاذه من قبل.

وليس من شك في أن الشيخ محمد عبده واحد من أولئكم الزعماء الدين وصفوا بالزعماء الوطنيين... وهم في واقع الأمر زعماء مقاومة الاستعمار الغربي، ومعارضة النفوذ الأجنبي في دائرة العالم الإسلامي (العربي)، وهو لا يقل في التأثير على التوجيه القومي عن مواطن معاصر له مثل (مصطفي كامل)، صاحب تلك الحركة التي اتجهت إلى مقاومة الاستعمار الانجليزي مباشرة في مصر، ورئيس الحرب الوطني السياسي في السنوات العشرة الأخيرة من حياة الشيخ محمد عبده.

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد ابتعد في الفترة الأخيرة من حياته التي تزعم فيها مصطفي كامل الحركة الوطنية في مصر، وإذا كان لم يشاركه في التوجيه السياسي القومي ضد الاستعمار الغربي في ذلك الوقت، مؤثرا تركيز نشاطه الخاص في الجانب العلمي والديني- فإن ابتعاده عن مجال هذا التوجيه السياسي القومي طوال هذه الفترة لا يحول دون أن يؤرخ له كصاحب دور رئسي في توجيه الحركة الوطنية المصرية، التي برزت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

---

(1) تاريخ الإمام محمد عبده جـ1ص11-12.

أما سبب اعتكافه وتوفره على الجانب العلمي والديني، فلعله رأى أن العمل في هذا الجانب ليس متوفرا لكثير من أصحاب النشاط في الجانب القومي والسياسي إذ ذلك، لعدم توسعهم الكافي والعميق في فهم المبادئ الإسلامية. والمصلحة الوطنية نفسها تقضي عندئذ بتوفره هو على ذلك... أو لعله رأى- من تجاربه في الصراع الوطني السابق على الاحتلال البريطاني الرسمي 1882م،ومن اختلافه مع عرابي وبعض رفاقه في طريقة الصراع وأسلوب الكفاح، أن الأولي له- لعدم تبديد نشاطه وقوته- أن يتوفر على الجانب الذي توفر عليه أخيرا، وهو الجانب الإسلامي الفكري والتربوي.

ومنذ هذا الحين الذي اعتزل فيه الشيخ عبده الإسهام في قيادة الجانب القومي وترك الزعامة فيه لغيره، وأحتضن الجانب الإسلامي- تفكيرا وتعليما، وإحياء...- منذئذ عرف في تاريخ الحركات الإسلامية في العالم العربي خاصة، أن لكل الجانبين: الوطني والديني زعماء باشروا قيادته وتوجيهه:

- ❖ عرفت (الشيخ محمد عبده) مدرسة، وعرف له أتباع وتلاميذ.
- ❖ كما عرف ل (مصطفي كامل) أنصار وأشياع.

ولكن هذا الفصل بين الجانبين، يرجع إلى تنظيم الجهود الوطنية في مقاومة الاستعمار الغربي، أكثر من أن يهدف إلى تحديد مناطق نفوذ بأن تكون للدين منطقته وللسياسة منطقتها، و لم يعرف لأي اتجاه قومي أصيل في العالم العربي خاصة، منذ أخريات حياة الشيخ محمد عبده حتى الآن أنه يحاول قصر الإسلام على (ضمير الفرد) وإبعاده من علاقة الفرد بالفرد في الجماعة، أو في علاقة الأفراد بالدولة، أو في علاقة الدول بعضها ببعض.

ولقد أسس (مصطفي كامل) حركته لمقاومة الاستعمار البريطاني في مصر على أمرين رئيسين:

- ❖ على خلق الوعي الوطني.
- ❖ والوعي الإسلامي.

وكان من رأى (مصطفي كامل) أن التعليم العالي، والتعليم الجامعي على الأخص، هو وسيلة إيجاد الوعي الوطني...

أما إيقاظ الشعور الإسلامي، وربط مصر بالعالم الإسلامي الخارجي على أساس من التذكير بتعاليم الإسلام، فقد وكل أمره إلى الصحافة...

على أن تسهم أيضاً في تقوية الوعي الوطني المصري.

وقد اختلف مصطفي كامل مع الشيخ محمد عبده فترة من الوقت... ولكن لم يكن مرجع هذا الاختلاف إلى أن الشيخ عبده كان يدعو إلى التمسك بالإسلام ويدعو إلى الدعوة للقرآن على نحو ما دعا، بل لأنه توفر على ما سماه بـ(الإصلاح الديني)، وابتعد كليه عن الإسهام في التنوير السياسي العام.

– وأن الحركة القومية التي عرفت في مصر سنة 1919 برئاسة (سعد زغلول)، إنما نشأت ونمت داخل جدران الأزهر، واعتمد خطباؤها على المنابر في المساجد، والمجتمعات العامة السياسية، كما اعتمد كتابها في الصحافة على كثير من آيات القرآن... وهي الآيات التي تنصح بالتعاون والتماسك، وتدعو إلى نبذ ولاية الأجنبي، ومقاومة نفوذه في التوجيه، وتصريف شئون الجماعة الإسلامية.

– كما أن مقاومة السلطة البريطانية المنتدبة من قبل عصبة الأمم في جنيف بعد الحرب العالمية الأولي على العراق وفلسطين، تأسست على تمجيد الإسلام، والدعوة إلى التمسك به في مقاومة النفوذ الأجنبي... وقد كان (مفتي فلسطين)-في ذلك الوقت- رمز الزعامة الوطنية السياسية الفلسطينية.

وكذلك صدرت مقاومة النفوذ الفرنسي في سوريا الممثل في سلطة الانتداب أول ما صدرت عن(الجامع الأموي) في دمشق، وقاد علماء المسلمين هناك المظاهرات الشعبية ضد هذا النفوذ. وتولوا الكتابة عنه في الصحف.

ومع ذلك فقد وضح في تاريخ الاتجاهات الفكرية داخل العالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين، أن هناك فصلا- في الظاهر على الأقل- بين النشاطين: القومي السياسي، والفكري الديني الإسلامي، وإذا رجحت كفة النشاط القومي(السياسي) في الحركات الإسلامية لمقاومة الاستعمار الغربي بعد جمال الدين الأفغاني، بتأثير من جمال الدين نفسه، فإن الشيخ محمد عبده بتوفره على ما عرف منسوباً إليه باسم الإصلاح الديني قد خلق مدرسة... مدرسة فكرية، ودينية، وعلمية، وتربوية تتجه لمقاومة الاستعمار الغربي نفسه اتجاها غير مباشر، ولا تقل وزناً في تحقيق هذا الهدف عن ذلك النشاط القومي السياسي.

الشيخ محمد عبده... القروي، المصري، الأزهري:

عرفت بيئة الشيخ محمد عبده في القرية بأنها بيئة الرجل الفقير...وعرفت قريته بأنها مثل من الأمثلة العديدة لمستوى الحياة المصرية الخالصة،وهي حياة المكروبين المستذلين، والمؤمنين بالله، الذين يرون في الآخرة العوض لهم عن حياتهم الحاضرة.

نشأ الشيخ عبده في هذا الجو، واتصل في تربيته بـــ، كتـــاب القريـــة، ثم بالأزهر... و «كتاب القرية» والأزهر، كلاهما يعني بالإسلام الأول يعني بتحفـــيظ القرآن وهو المصدر الأول للإسلام، والثاني يعني بتدريس شروح القرآن وبمـــدارس المسلمين الفقهية والكلامية والأصولية، كما يعني باللغة الإسلامية التي تدور حـــول القرآن الكريم، إنما كان يعني بها على النحو الذي وصلت إليه هذه المعرفة في الحلقة الأخيرة من تاريخ التفكير الإسلامي والتأليف العربي:

❖ منحى الجدل العقلي، الذي يجرى لأجل الدربة الذهنية أكثر من استخدامه لمعرفة قيمة الحجة.

❖ ومنحى المناقشات اللغوية التي تدور حول اللفظ أو التركيب المفرد، أكثر مما تدور حول المعنى والهدف العام للأساليب..

❖ وهو منحى التزام أحكام فقهية خاصة صدرت في وقت معين من مـــؤلفين معينين، أكثر من التزام منهج لتقدير هذه الأحكام، ثم البناء عليها..

وبحكم ظروف خاصة بالشيخ عبده، أضاف إلى هذا اللون من المعرفة- في تنشئة نفسه- لونا آخر تأتي له عن طريق خال والده الشيخ درويش خضـــر... ذلـــك « الشيخ » الذي اتصل بـــ« الزاوية السنوسية »، وتعلم فيها وسيلة صفاء القلـــب، وعرف عن طريقها ما يجب أن يتبع في فهم الإسلام: وذلك بالاحتكام إلى القـــرآن والسنة الصحيحة، وعدم التعصب لما سواهما من أقوال أرباب المدارس والشـــروح والمؤلفين المسلمين.وهذا الذي كان يمارسه الشيخ درويش خضر من الإسلام العملي، وما كان يعرفه من الإسلام، ومن مقاييس فهمه، هو ما يعرف بالنظـــام الصـــوفي

الفكري الإسلامي، للسنوسي الكبير، وهو نظام يهدف إلى سمو الروح، وتهـــذيب النفس، وتوكيد أواصر الأخوة الإسلامية، وإجاده فهم الإسلام.

بهذين اللونين من المعرفة: ما كان عن طريق الأزهر، وما كان عن طريق الزاوية السنوسية... تكونت لدى الشيخ محمد عبده:

- معرفة عقلية للإسلام.
- ومباشرة عملية لتهذيب النفس.
- ثم تقدير للثقافة الإسلامية القائمة في الأزهر إذ ذاك.
- وفي ضوء ذلك كله، ابتدأ ـــ بعد تلمذته على الشـــيخ خضـــر ـــ يـــتخير أساتذته في المرحلة الأخيرة في مراحل دراسته في الأزهر.

- فتخير "الشيخ حسن الطويل" لدراسة الفلسفة السينائية، والمنطق الأرسطي.
- والشيخ "محمد البسيوني" لدراسة الأدب العربي.
- وبعد أن علم بقدوم "جمال الدين الأفغاني" إلي القاهرة اتصل به، وصحبه في مجالسه وندواته ... وجمال الدين الأفغاني هو السياسي الثائر على الاستعمار الغـــربي للبلاد الإسلامية.

- وكما ابتدأ يتخير أساتذته بين علماء الأزهر، ابتدأ ينقد الطابع العام لـــتفكير رجال الأزهر، وكتب الدراسة فيه، وطرق التدريس المتبعة هناك.
- وباتصاله بجمال الدين الأفغاني ابتدأ يدرك الحالة الداخلية في مصر: من سوء معاملة الحكومة للفلاحين، ومن الاستبداد السياسي القائم في الحكم، وهـــي حالـــة انطبعت في نفسه منذ أن نشأ في قريته، ولكنه ربما لم يستطع أن يدركها، ويعبر عنها

تعبيرا واضحاً، قبل أن يتصل بجمال الدين، وباتصاله بجمال الدين، ابتدأ يدرك أيضاً زيادة على ذلك: التعقيد السياسي والاقتصادي في مصر، وتسرب النفوذ الأجنبي في المشاكل المصرية، وتسربه باسم الإصلاح القومي، أو باسم المصلحة الأوربية.

وهكذا جمع الشيخ "محمد عبده" في معرفته:

- بين بيئة القرية، وبيئة المدينة التي هي مقر الحكم في مصر.
- وبين المعرفة العقلية، والتهذيب الروحي والصوفي المتزن.
- وبين تفكير القرون الوسطي والتفكير المعاصر في وقته.
- كما عرف الجمود في التفكير، والثورة فيه.

ولقد حرص الشيخ عبده على ماضيه...

كما حرص على أن يعيش في حاضره، ولكن على سند من الماضي وفي أسلوب الحاضر.

الشيخ محمد عبده ... المفكر:

تناول الشيخ محمد عبده في تفكيره عدة جوانب رئيسية:

- الجانب القومي والوطني.
- والجانب الاجتماعي.
- وجانب الاعتقاد.
- وأخيراً .. الجانب التربوي التوجيهي العام.
- **الجانب القومي:**

تناول محمد عبده في الجانب القومي: حدود الوطن، وضرورة شعور المـــواطن بوطنه، والصلة الوثيقة بينهما يقول:

وجعله القول أن في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة، ثلاثة ـــ تشبه أن تكون حدودا:

- **الأول**: أنه السكن الذي فيه الغذاء، والوفاء والأهل، والولد.
- **الثاني**: أنه مكان الحقوق، والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية، وهمـــا حسبان ظاهران.
- **والثالث**: أنه موضع الشبة التي يحلو بها الإنسان ويعز، أو يستغل وبـــذلك، وهو محتوى محضا [1].

ثم يستطرد فيقول:

«ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الـــوطني عـــن ذوي الحقـــوق والواجبات في مصر، والباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل، ولكن أبت الحـــوادث ألا أن تثبت لنا وجوداً وطينيا، ورأيا عموميا، ولو كره المبطلون، على أن منهم فئـــة لا يزالون يؤلون أسماعنا بما يكررون من سفساف القول، من مثل: أننا تعودنا احتمال الظلم والحيف، وألفنا الخدمة والرق، فلن يستقل لنا رأى، ولن نهتدي سبيل الحرية، كأنهم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصرا، وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح، ولئن كان من فضل هذه المالية

(1) تاريخ الإمام: جـــ 2 ص195.

(القرن التاسع عشر)، أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف، فقد رجونا أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا في هذا العصر [1].

كما تناول في هذا الجانب نظام الشورى في الحكم، ووجوبه على الحاكم والمحكوم سواء.

وإن لنا لدليلا على ما قدمنا ـــ من وجوب نظام الشورى ـــ فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله عنهم، حيث قام بينهم خطيبا فقال: يا أيها الناس من رأى منكم فيَّ اعوجاجا فليقوَمه، فقام رجل أعرابي فقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقوَمناه بسيوفنا، فقال سيدنا عمر: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه، إذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا إلا التنبيه على الحق، والإرشاد إلى الطريق المستقيم.

فيما يدل على وجوب المتشاور على الحاكم: هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه.

وما يدل على وجوبه على المحكوم: هو إجابة الصحابي بقوله: (والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا)، فإنه لا يجوز استعمال القوة إلا بعد الأعذار بالإرشاد والهدى.

وكأني بمن يقول: أن لنا فيما كان عليه السلف من طريقة المتشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية، فأقول في جوابه: أن هذه الطريقة الحالية قد صارت ـــ دون سواها ـــ ذات الواقع العظيم والتأثير القوى في النفوس، بما اتصفت به كونها

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 2 ص196.

مناطا للعدل، ومظهرا للاستقامة في سائر المالك، وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لا تترتب إلا عليها، وأما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض، لما أنها في المستعملة في زمنهم، على أن هذه الهيئات ليست إلا وسائل غير مقصودة لذاتها، فإذا انقطعت الرابطة بينها وبين الغايات كانت مهملة غير مقصودة وتحول القصد إلى ما صار بينه وبين الغاية ارتباط ووفاق [1].

وأن الشورى لا تنجح إلا بين من كان لهم رأى عام ويجمعهم في دائرة واحدة، كان يكونوا جميعاً طالبين تعزيز مصالح بلادهم فيطلبونها من وجوهها وأبوابها، فما داموا طالبين هذه الوجود فهم طلاب الحق ونصراؤه، فلا يلتبس عليه بالباطل، ولا لوم عليهم إذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال، وأن استعداد الناس لأن ينهجوا المنهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا مندوبين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله، بل يكفى كونهم نصبوا أنفسهم، وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح، على نظام موافق لمصالح البلاد وأحوال العباد [2].

وإذا وجبت الشورى على الحاكم والمحكومين سواء، فإن وظيفة الحكومة بعد ذلك في الأمة تمكين الأفراد من العمل في حرية، وبالوسيلة الصحيحة، لخير أنفسهم وجماعتهم.

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 2 ص199 - 200.

(2) تاريخ الإمام: جـ 2 ص203 - 204.

إن شأن الحكومة ليس إلا أن تطلق الناس عنان العمل، فيعملوا لأنفسهم ما يعلمونه خيراً، فإن أية حكومة قيل أنها عادلة حرة، لم يكن لها إلا أن أيحات للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع، ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة [1].

و لم يفت محمد عبده أن يتناول في الجانب القومي كذلك، الصلة بين ما يشرع من قوانين، وبين أحوال البلاد القائمة، وهو يرى ضرورة الصلة القوية بينهما، ولو كانت أحوال البلاد وعاداتها غير سليمة كل السلامة، يقول:

"ولا يتوهم أن القانون العادل، المؤسس على الحرية، هو الذي يكون منطبقا على الأصول المدنية والقواعد السياسية في البلاد الأخرى انطباقا تاماً: فإن البلاد تختلف باختلاف الواقع، وتباين أحوال التجارة والزراعة، وكذلك سكانها يختلفون: في العوائد، والأخلاق، والمعتقدات إلى غير ذلك: قرب قانون يلائم مصالح آخرين، فينفع أولئك ويضر بهؤلاء، اذ على مؤسس القوانين أن يراعى اختلاف الناس: على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم، وطبيعة أرائهم، ومعتقداتهم، وكافة عوائدهم، ليتسنى له أن يحدد مصالحهم ويربط أعمالهم بحدود تجر إليهم جلائل الفوائد، وتسد عليهم أبواب المفاسد، وحينئذ لا يسوغ لأرباب الشورى أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين" [2].

ثم يضيف قائلاً:

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 203 - 204.

(2) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 149.

"وقد جرت عادة الشرعين في كل زمان أن يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذي يراد وضعها لهم، حتى لا تكون مبهمة عليهم، فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها، وأن يلاحظوا العوائد والأخلاق ملاحظة تامة، فلا يخرجوا في تأسيس القوانين عما تقضيه من الشدة والتخفيف، قرب طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف، ويردعهم الوعد بالجزاء الهين، إذا كانت طباعهم سهلة الانقياد، ورب أمة فطرت أفرادها على الغلظة، ومجافاة الرقة، وكانت بواطنهم منطوية على الخسة والسفالة، ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف، فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم إلا القوانين الصارمة، المؤسسة على الجزاءات الشديدة" [1].

وبالجملة، فليست هيئة النظام المدني لأمة من الناس سوى صورة لمادة الملكات التي اكتسبها أفرادها من مألوفاتها وعوائدها التي نشأت عليها، سواء كانت ممدوحة أو مذمومة، وأن اختلاف قوانينها في معارج صعودها، ومدارك هبوطها، لا ينفك عن هذه الملكات، مهما تغيرت أصنافها، وتبدلت شئونها، وهذا ما جعل عقلاء الناس يجتهدون أولاً في تغيير الملكات، وتبديل الأخلاق عندما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما، فيقدمون التربية الحقيقية على ما سواها ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية، بل يجعلون في نقس القوانين النظامية فصولا وأبوابا لضبط الأخلاق، وحفظ الملكات الفاضلة، فتصبح الأخلاق فاضلة، والعادات حسنة، وتسير الأمة في طريق الاستقامة إلى خير غاية" [2].

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 159.

(2) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 163.

والقانون على هذا النحو، يجب أن يمكن له في التطبيق، وأن تكون له وحدة السيادة، يقول في ذلك.

"فإذا أرادت تلك الأمة، أن تعيد مجدها الأصيل، وعزها الأول فلا بد لها من إعادة شأن القانون، فنشيد منه ما هدمته يد الغرور، وبددته سطوة الفجور، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها إلى التمسك بقواه وهداه" [1].

وبهذه النقط الثلاث الرئيسية التي آثارها الشيخ محمد عبده بتفكيره في الجانب القومي، وهي: الوطن، والشورى في الحكم، وصلة التشريع بالأسس المقومة لسكان الوطن من لغة ودين وعادات وأخلاق، وضع أمام المواطن الحقائق التي يجب عليه الحرص عليها، والدفاع من أجلها، وهي تلك الحقائق التي تحدد شخصيته كإنسان ومواطن، فلا ينبغي له أن يفرط في وطنه مهما كان حال هذا الوطن، ولا أن يفرط في لغته، ودينه، وأخلاقه، وعرف مواطنيه، كما يجب أن يتمسك بالشورى في الحكم، حاكما أو محكوما إذا تكون للأمة رأى عام يجمع المواطنين في دائرة واحدة، و لم تقسمهم الأهواء والشهوات إلى أغراض مختلفة.

ويشير هنا حديثه عن ضرورة الربط بين التشريع وأحوال البلاد، إلى نظرته إلى القانون، فهو ينظر إليه على أنه حافظ لحال قائمة، وأن تكون له هو نفسه إمكانية أن يحدث فيها تغييرا، وإنما مرجع التغيير في عادات الأمة وأخلاقها وتوجيهها، إلى "التربية" دون التشريع، وهكذا: تكون التربية في نظره هي التي تمهد وتدفع، والقانون هو الذي يحفظ ويحرس.

ويزيد الشيخ محمد عبده في توضيح ذلك بقوله:

---

(1)تاريخ الإمام: جـ 2 ص 92.

"ليت القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم، وتقدر المغارم العلماء المخالفات، وهي التي تربى الأمم وتصلح من شأنها: فإن القوانين لم توضع في جميع العالم إلا للشواذ، والهفوات، والسقطات ... أما القوانين المصلحة، فهي نواميس التربية المالية لكل أمة ... " [1].

- الجانب الاجتماعي:

وتناول الشيخ محمد عبده في الجانب الاجتماعي:

- الروح الجماعية.
- عيوب المجتمع.
- الاقتصاد الوطني.

الروح الجماعية:

تناول محمد عبده ضرورة تقوية الروح الجماعية في الأمة، مع أضعاف الفردية أو الانفصالية، وطريق ذلك في نظره التربية الحقة، والتربية الحقة هي التي تقوم على رعاية التعاليم الإسلامية .. يقول:

"أن التغالب في هذه الأوقات أصبح معظمه ــ إن لم أقل جميعه ــ تغالب الأفكار والآراء، فالأمة ذات الفطنة في الأفكار، والمهارة في المعارف، هي الأقوى سلطانا، والأقوم سياسة، وهي الغالبة على ما سواها من الأمم [2].

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 469.

(2) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 144.

أن الإنسان لا يكون إنساناً حقيقياً إلا بالتربية، وليست هي إلا عبارة عن اتباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعاليم، تعلم الإنسان الصدق، ومحبة نفسه، فإذا تربى الإنسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره من لأجل أن يحب نفسه.

إذا تربى الإنسان أحس في نفسه أنه سعيد بوجود الآخر معه، ولكن نحن في وسط لا يحس فيه أحدنا بوجود غيره، وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح، وخلقتها الشكوك والريب، والظنون الأثيمة، المولدة للوساوس والأوهام، ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره في هذا الشقاء.

"ولو كنا متربين لنبت فينا إحساس واحد، يؤلف بين شعورنا وحاجتنا، وحينئذ يحس كل فرد منها بأن عليه وظيفة يؤديها: لنفسه وغيره.

« إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم- الإنسان- العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من الأفراد في جامعته، فهو أذن يعلم الإنسان: من هو؟ ومن معه؟ فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة، هي ما يسمونه بالاتحاد...

« ألا إن الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع، وأوراق، وجذوع، وجذور في الأخلاق الفاضلة بمراتبها، فعلى المسلمين أن يربوا أنفسهم تربية إسلامية حقيقية ليجنوا تلك الثمرة، ويغير ذلك كل أمل باطل، وكل الأماني أحلام وأوهام، وكل احتجاج يغير سعى عجز.

"الناس في كل ال/م أكفاء في التمثيل، ولا نقص في الدنيا إلا من جهة العقول والأخلاق، هي لا تكمل إلا بالتربية، وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فيها غير القلق والهذيان .." [1].

"والسبب في فقر البلاد: عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية، التي تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته، إن لم نقل: تجعل الإحساس الأول أقوى من الثاني، وتزيد في إحساس الإنسان بمنافعه ومضاره" [2].

"ولما تشوقت النفوس لأن تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد، الذي عول عليه جميع الأمم المتمدنة في مبادئ تعاليمهم، فإن من تتبع قوانين التعليم في الممالك الأوربية رآها بأسرها موجهة للابتداء بالتعاليم الدينية، والاستمرار عليها إلى ما تزيد عن ست سنوات تقريباً ..." [3].

وقد استرسل الشيخ محمد عبده وأفاض: في صلة التعاليم الإسلامية بالمعرفة العقلية السليمة، والتهذيب النفس الحقيقي، وبين جدوى ذلك على الأخص في المرحلة الأولى من مراحل التعليم، بما كشف عن صلة التعاليم الإسلامية بطبيعة الإنسان، ومدى تأثيرها عليها تأثيراً توجيهيا سليماً، كما رسم الطريق التربوي لنفع النفس الإنسانية بهذه التعاليم.

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 469.

(2) تاريخ الإمام : جـ 2 ص 154.

(3) تاريخ الإمام: جـ 2 ص 80 - 81.

وهو إذ يحاول أن يكشف علة الضعف الحقيقية في الأمة والجماعة الإسلامية لم ير هذه العلة في غير فقر النفوس، وسوء توجيه العقول، ولم يرها في أرض مصر وسمائها، ولا في طبيعة البلدان الإسلامية الأخرى، وأرجع فقر النفوس، وسوء توجيه العقول، إلى سيطرة (الأنانية) وانحلال معنى (الجماعة) في نفوس الأفراد، إما بسبب الجهل المطلق، أو بسبب سوء فهم الإسلام والحياة.

ومن أجل ذلك كانت محاولته لإصلاح هذه الحال محاولة تفتيشية عن العلاج الحاسم في تحقيق هذا الإصلاح، فحمد الإصلاح بأنه استعادة الروح الجماعية... والروح القومية، والروح الإسلامية، والروح الإنسانية العامة، وحدد العلاج تبعاً لذلك: بالتنشئة الدينية، وقيام المرحلة الأولى من مراحل التعليم على التعاليم الإسلامية.

ولكنه مع ذلك لم يرد أن يقصر منهاج المدرسة على هذه التعاليم، بل جعل هذه التعاليم أساسا رئيسيا في منهج المدرسة، على أن تضاف إليه العلوم والصنائع التي تنفع الناشئ في حياته، وتجعله لا يقل عن الغربي في سيطرته على الحياة.

وجوب مساهمة الأغنياء في تعليم الأمة:

وهو إذا يطلب من التعليم أن يكون تربية توصل إلى ملكات وعادات وتقود إلى توجيه غير مضطرب... وإذا يطلب في التربية أن يكون أساسها إسلاميا، حتى تكون هناك جماعة، وروح جماعية، تسود النوازع الفردية، وبذلك يتحقق التماسك، ثم يتحقق هدف الأمة من عزة وسيادة... إذا يطلب ذلك كله، يطلب من الأغنياء أن يسهموا في التعليم، ويوضح أن أسهامهم في هذا النوع من التعليم تقتضيها

ضرورة اجتماعية خاصة بهم، لأنهم معرضون للتهديد في أموالهم وأنفسهم من الأجنبي عنهم، قبل الفقير من مواطنيهم.. يقول:

« أفلم يبصر الأغنياء أنه لا معنى لشدة البأس في أيامنا هذه: إلا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء؟ لم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا(يريد الغرب) لنيل أعلى مراقي المجد في أوطانه، ثم اندفع إلينا لا ندرى ماذا يريد أن يصنع بنا.. فإن عقلوا جميع ذلك، أفلا يفقهون: أنهم أن لم يكونوا نصراء لجيش العلم، أصبحوا على شفا الخطر؟...

« فعلى الأغنياء منا- الذين يخافون من تغلب الغير عليهم، وتطاول الأيدي الظالمة إليهم- أكثر من الفقراء، أن يتألفوا، ويتحدوا، ويبذلوا من أموالهم في افتتاح المدارس، والمكاتب، واتساع دوائر التعليم، حتى تعم التربية، وتثبت في البلاد جراثيم العقل والإدراك، وتنسوا روح الحق والصلاح، وتتهذب النفوس، ويشتد الإحساس بالمنافع والمضار، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من الأمم، فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة: لهم مالنا، وعليهم ما علينا.

« ألم يعتبروا بالجمعيات الأوربية، التي لم يكن أعضاؤها إلا الزارعين، والصانعين، والتجار... كيف يبلغ إيراد الواحدة منهم نحو ثلاثين مليونا من الجنيهات، وبعضها أكثر وبعضها أقل، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم، واتساع دائرة المصانع والفنون، وتقوية روح التربية الحقة، التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى أبناؤها بحلاها » [1]،

(1) تاريخ الإمام: جـ 1ص-150 .

التعليم الديني... يحتاج مسلكا أخر:

والشيخ محمد عبده إذا يقوم التعاليم الدينية إلى هذا الحد في خلق جماعة قوية:في معارفها، واتجاهها، وسيطرتها على الحياة، وحصولها في المجال الدولي على وضع لا يقل شأناً عن الأمم الأخرى القوية السائدة ... يرى أنه لا ينم هذا الأثر الايجابي في توجيه المواطنين وجهة سليمة نافعة، وهى الوجهة الجماعية، ألا إذا تغير مجرى التوجيه القائم، وهلت الثقافة الإسلامية من عوامل الضعف والجمود، وهى عوامل الانحراف التي طرأت عليها، وعلى الأخص في الحقبة الأخيرة في تاريخ التأليف العربي الإسلامي، يقول- رحمه الله- في ذلك:

« ... إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سبباً واحداً: وهو القصور في التعليم الديني: إما بإهماله جملة كما هو في بعض البلاد، وإما بالسلوك إليه من غير طرقه القويمة كما في بعض آخر.

« أما الذين أهمل فيهم التعليم الديني: فجمهور العامة في كل ناحية. فلم يبق عندهم من الدين ألا أسماء يذكرونها ولا يعتبرونها. فإن كانت لهم عقائد، فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة، من نحو: أنه لا اختيار للعبد فيما يفعله، وإنما هو مجبور فيما يصدر عنه جبرا محضا- فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ولا على اجتراح السيئات. ومثل: أن رحمة الله لا تدع ذنبا حتى تشمله بالغفران قطعاً لا احتمال معه للعقاب، فليفعل الإنسان ما يفعل من الموبقات وليهمل من المفروضات. فلا عقاب عليه... وما شاكل ذلك ... مما أدى إلى هدم أركان الدين من نفوسهم، واستل الحمية من قلوبهم... ولا منشأ له إلا عدم تعلمهم عقائد دينهم، وغفلتهم عما أودع في كتاب الله، وسنة رسوله.

« وأما الذين أصابوا شيئاً من العلم الديني: فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة، وفرائض الصلاة والصوم، وظنوا أن الدين منحصر في ذلك. ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص في كتب الفقه فقد أقاموا الدين وإن هدموا كل ركن سواهما... ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة.

« ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب المعاملات، متخذا ذلك آلة للكسب، وصنعة من المصانع العادية، وأولئك الأغلب من طلاب الإفتاء والقضاء ، ووظائف التدريس، وما شاكل ذلك... لا ينظرون إلى الدين إلا من وجهة ما يجلب إليهم المعيشة فإن مال بهم طلب العيش إلى مخالفته. لم يبالوا بذلك، معتمدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا .

« وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتها، ولكنها تتعدى إلى أخلاق العامة وأطوارهم، فهذا القسم أعظم الأقسام خطراً، وأشدها ضرراً في العامة والخاصة... وما أفراده بقليل.. ».

« أن إصلاح الجداول-في التعليم-لا يتم بأن يدرج في فنون المدارس الإسلامية بعض الكتب الفقهية، مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء..فإن العلوم العلية، إذا لم تبن على عقائد صحيحة وإيمان صادق لا تلبث أن تضمحل، ولئن ثبتت فإنما تسوق إلى أعمال خالية عن النيات وخاوية من سر الإخلاص، فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمنا.. »

« فلابد أن يوجه النظر إلى أن تقوى به العقيدة ويستحكم سلطانها على العقول ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون المتذكار مستحفظا لما يصل إليها منه، ثم إلى فن الفقه الباطني- إلى فن الضمير- وهو ما تعرف به أحوال النفس

وأخلاقها، والمهلك منها: كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل، والمنجى منها: كالصدق والأمانة والرضا والشجاعة وسائر الفضائل. ويضم إلى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ما هو مذكور في الكتاب والسنة، ومتفق عليه بين أئمة الملة الإسلامية... إلى تربية تحفظ وتروض على العمل بما تعمل به ».

« ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة والتربية على وجه يتفق مع قواعدها، مستندين إلى الشرع الشريف، بحيث تذكر أخذها من القرآن والسنة الصحيحة، وما صح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول، ومن حذا حذوهم كحجة الإسلام الغزالي وأمثاله ».

« فالمقصد بالذات علمان: علم الظاهر وعلم الباطن، وهما أصلان، ومجموعهما ركن الإصلاح ».

والركن الآخر « التربية » بما يهديان إليه، حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمل، ثم يتبعهما فن أخر يقوى على الغرض منهما، وهو فن التاريخ الديني، خصوصاً سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وسيرة أصحابه، والخلفاء الراشدين [1].

وهذا المنهج التربوي، وضعه الشيخ محمد عبده للتثقيف العام بالثقافة الإسلامية وهو الذي جعله أساس المرحلة العامة في التعليم، وتحدث بعد ذلك عن مناهج أخرى لتخريج المدرسين والدعاة والمرشدين، لا مجال الحديث عنها هنا، لأننا بصدد عرض وجهة نظره في قيام التربية العامة على أصول إسلامية، وضرورة الأخذ بها في تلاقي

---

(1) تاريخ الإمام: جـ2ص905-511.

الحال الفاسدة في الأمة، تلك الحال التي ذكرها غير مرة وأشار إلى علتها في وضوح، وهي: تفشي الأنانية، وانعدام (الروح الجماعية).

عيوب المجتمع المصري:

يتعرض الشيخ محمد عبده في هذا الجانب الفكري، إلى عيوب المجتمع المصري، وهي نفسها تقريباً عيوب المجتمع الشرقي الإسلامي في وقته بوجه عام وهو يحلل أسبابها وعللها، ويذكر ما يراه كفيلاً بإزالتها.

- فيصف أحاديث المجتمع المصري: بأنها عنوان على سوء الفهم للحياة، وعلى عدم الجد فيها، وسوء التربية، وعدم تهذيب الخلق.

ويرجو أن تتوجه أحاديث المجتمع إلى النافع الصالح، على نحو ما في البلاد الأوربية- كما كان في وقته- أو على نحو ما كان في صدر الإسلام، أو لدى الأمم الراقية في التاريخ.ويسأل قارئيه أن لا يفهموا من كتابته في هذا الجانب الاجتماعي أنه يقصد لوم فريق معين من الناس، بل غرضه الإصلاح والتهذيب [1].

- ويتحدث عن الزواج: كضرورة اجتماعية، وفي الوقت نفسه يعد تعدد الزوجات مضرة اجتماعية. فيذكر أن الاختيار في الزواج قائم على طبيعة الإنسان: باعتبار أنها طبيعة مفكرة لها اختيار من جانب، وأن لديها الميل الغريزي إلى التعاون من جانب آخر. وكل من الأمرين يطلب من الإنسان أن يتخير إذا تزوج، أما أحدهما: فيميز المرغوب من غير المرغوب فيه، وأما الثاني: فيحدد من يمكن التعاون معه.

---

(1)تاريخ الإمام: جـ2ص103 .

ثم هو يعتبر الزواج نفسه عاملاً من عوامل السعي الجدي في الحياة، وضربا من ضرب التنظيم في حياة الاثنين، بحيث أن أحدهما يكمل الآخر: لمصلحتهما معاً، ومصلحة امتداد حياتهما في أولادهما والجماعة.

أما الزواج بأكثر من واحدة: فيرى- الشيخ محمد عبده- الناس غنيهم وفقيرهم، قد اتخذوه طريقاً لصرف الشهوة، وغفلوا عن القصد الحقيقي منه... وهذا لا تجيزه الشريعة، ولا يقبله العقل.. « فاللازم الاقتصار على واحدة، إذا لم يقدروا على العدل- كما هو مشاهد- عملاً بالواجب عليهم، بنص قوله تعالي: « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » [1].

وأما أية: « فنكحوا ما طاب لكم من النساء... » [2].فهي مقيدة بأية: التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من (العدل) وحفظ الألفة بين الأولاد، وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة، ولا يحملوهن على الإضرار بهم وبأولادهم، ولا يطلقون إلا لداع ومقتض شرعي، شأن الرجال الذين يخافون الله، ويوقرون شريعة العدل، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن، ويعاشروهن بالمعروف، أو يفارقوهن عند الحاجة... [3].

- ويذكر البدع: ومدي دلالتها على الانحراف في الاعتقاد، فيذكر منها على الخصوص: زيارة قبور الأولياء، والتشويش على المصلين في المساجد بضرب الطبول والباز.. وفي الوقت الذي كان معلماً، بل كان محورا في صحيفة «الوقائع المصرية»

---

(1) النساء: 3 .

(2) النساء:3 .

(3) تاريخ الإمام: جـ2ص112.

ونصيبه الذي ساهم به في محاربة عيوب المجتمع المصري والإسلامي- ومن بينها البدع- هو: لفت النظر إليها، والثناء على القائمين بالأمر عند اتخاذهم تدبيرا من التدابير ضد بدعة معينة. بالإضافة إلى ذكر الأسانيد الشرعية والقانونية، أو الاستشهاد بأحوال الأمم وقت قوتها أو ضعفها على حال يريد بقاءه أو يريد إزالته»[1].

والرشوة: كعنوان على الضعف الخلقي، ينعى عليها إلى حد أنه اعتبر أنها أمارة على فقد الشعور بالواجب وأدائه: في الأمة، والأداة الحكومية على السواء.. « وأنها عادة شنيعة مضرة بالدين والدنيا، في طباع أدنياء الهمم، تقربا لذوى المناصب، وتذللا خبيثا، لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد. وتنفر منه نفس كل ذي إحساس أنساني.

ولأنها أمر مضاد لمعنى الإنسانية، ومضاد بالتالي للشرع وقانون البلاد، يري الشيخ محمد عبده أن الراشي والمرتشي شركاء في هذه الجريمة الخلقية، بل يري أن نصيب الراشي في ذلك أكبر، وحينئذ فما يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي وأن كان كل منهما مجرما: لأن الأول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعف مع الوهم في مقام يستوي فيه الحاكم والمحكوم أمام القانون، وأمال المرتشي أخذ الرشوة وقوى طمعه ودله على الشر وكلف نفسه بما لم يكلف به ». [2].

● عدم المبالاة بالمصلحة العامة: ومما عابه كذلك على المجتمع المصري- وكذلك المجتمع الشرقي الإسلامي- عدم المبالاة بالمصلحة العامة.. « .. فانظر إلى

---

(1) تاريخ الإمام: جـ2صفحة 123، 142، 501.

(2) تاريخ الإمام: جـ2صفحة 85.

هذه الحال الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب، وانقطاع التواصل بين النفوس. فلا يهتم واحد يعمل يشترك في منفعته مع أخر وان كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه، كأن اشتراك الغير في المنفعا صبرها مضرة وينبغي اجتنابها.. وكان من الواجب: أن الاشتراك يدعو إلى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط.. فكأنهم سلبوا الخواص الطبيعية التي لإنسان الجبال والغابات » [1].

** وأخيراً يتحدث عما سماه فقدان ملكة « حفظ الماضي » والاحتفاظ بملكة الحقد والضغينة

وهنا يتحدث الشيخ محمد عبده عن الرسوم والتماثيل على أنها: « ... قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة، ومن أحوال الجماعات في الواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية.. وهي التي تسمى في العرف الحديث: متاحف الأمم أو الحضارة الإنسانية... فهي وسيلة فائدتها محققة لا نزاع فيها... ».

وهو لذلك يرى: « أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين: لا من جهة العقيدة ولا العمل» [2].

ويرى الشيخ محمد عبده أن المسلمين اعتادوا أن يخوضوا مجال التساؤل فيما تظهر منفعته ليحرموا ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا.. وإنما الذي يتوارث هو ملكات

---

(1) تاريخ الإمام: جـ2صفحة 68.

(2) تاريخ الإمام: جـ2صفحة 501.

الضغائن والأحقاد، تنتقل من الآباء إلي الأولاد حتى تفسد العباد، وتخرب البلاد، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد. [1].

ضرورة إعادة توزيع الثورة في الأمة:

وكما تكلم هنا في الجانب الاجتماعي عن الروح الجماعية، وعيوب المجتمع، تكلم عن بعض العادات التي تتصل بالثورة الوطنية:

_فعاب السفه والإسراف.

_وحدد معني الاقتصاد بأنه الحد الوسط، ومدحه ونصح به.

_ ثم حدد موقفه من (الرأسمالية) وعيوبها، ونصح بتوزيع الثروة في الأمة على غالبية الأهالي.

● فيصف المسرفين: فيقول: « ... ولكن أبي حاكم الشهوات، إلا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطي الأفكار بما يطيقون، على أنهم ليسوا أهلاً للثروة.. ولا مستحقين الغنى ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم، بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء تربين لا يملكون شيئاً، وأن كانوا في صورة أغنياء ميورين. ويرعبون أن يكونوا تحت ذل الدين، ولا يعلمون أن نكبات الدهر كثيرة الردود، شديدة البطش [2] ويستند في ذلك إلى الآية الكريمة. ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »[3].

---

(1) تاريخ الإمام: جـ2صفحة 502.

(2) تاريخ الإمام: جـ2 صفحة 58.

(3) الإسراء: 29 .

● ويحدد الاقتصاد: بأنه: « فضيلة من فضائل الإنسانية الجليلة... فإذا جمع الشخص بين الإمساك عما لا يلزمه، ولبذل فيما هو أحوج إليه، فقد حاز فضيلة «الاقتصاد» التي قال بها نبينا صلى الله عليه وسلم: الاقتصاد نصف المعيشة » [1].

● وموقفه من (الرأسمالية): تكشف عنه هذه الكلمات: « ... إذا انحصرت الثروة في دائرة مخصوصة، عند أشخاص قليلين، لوازمهم ليست بالكثير، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة، لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع- أي لقلة القادرين على اقتنائها.. وهذه الصورة خاصة بالرأسمالية في المجتمعات الشرقية الإسلامية: وهي اكتناز المال في غير تداول. وتقل الرغبة في الأعمال الزراعية، إذ يكون الجميع كأجراء، لا يهتمون اهتمام الملاك. وأن أغنى البلاد، وأسعدها: هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهلها. ويزداد الضرر إذا وقعت الأملاك والمبيعات، في أيدي الغرباء الأجانب »[2]..

جانب الاعتقاد:

وتناول محمد عبده في جانب الاعتقاد موضوعين رئيسيين:

ـ تحرير المسلم من عقيدة الجبر.. مع الإبقاء على عقيدة القدر.

ـ وإفهام المسلم بأن عقل الإنسان نعمة من الله،يجب أن يتلاءم ويسير جنباً إلى جنب مع دين الله، ورسالته للإنسان... وأن إغفال العقل معناه الخض من هذه النعمة.

---

(1) تاريخ الإمام: جـ2صفحة59.

(2) تاريخ الإمام: جـ2 صفحة 62.

مشكلة الجبر:

ربما يري الشيخ محمد عبده أن التبعية المطلقة للمذاهب والكتب المتأخرة، لم تكن ذلت صلة فصب بالإحساس يضعف الشخصية العلمية في وقته، وعدم مسايرتها الشخصية الإسلامية الأولى في خطواتها الإيجابية، وموقفها الواضح من الكتاب والسنة... بل كانت ذات صلة أيضاً بعقيدة (الجبر).

فكما يكون من نتائج مذهب (الجبر) الشعور بضعف شخصية المعتقد في نفسه أمام الله، يكون من نتائجه شعوره بهذا الضعف أمام غيره من البشر... لأن اعتقاد الجبر يقوم في واقع الأمر على إلغاء الشخصية والوجود الذاتي، وإذا كان هذا الإلغاء في الأصل هو بالنسبة إلى الله المعبود، فأنه قد يدفع المعتقدين به إلى أن يتجاوز بشعورهم بضعف شخصيتهم دائرة الصلة بينهم وبين الله.. إلى الصلة بينهم وبين المخلوقين، والجبري مؤمن سلبي في الحياة، أخص مظاهر سلوكه: الاعتماد على غيره، ولو كان هذا الغير أضعف منه في واقع الأمر.

وعلى كل حال فعقيدة (الجبر) تتلاءم مع (التقليد)، وكلاهما مظهر الضعف في الحياة و(الجبري)، و(المقلد): كلاهما تقوم حياته على الصدفة، وكلاهما يتهاون في ترك مجال الحياة لغيره، وكلاهما لا يعنى بالنظر إلى غيره...

والشيخ محمد عبده- عليه رحمة الله- منذ أن ثار على (التوجيه) القائم في وقته، ثار في واقع الأمر على الضعف والتهاون، وثار على سلبية الإنسان في الحياة، وأراد للمسلم أن يكون ذا شأن وايجابية في يومه، وغده.

وهنا في تحديد الصلة بين المسلم وربه، لم يرض أن تكون عقيدة الإنسان في هذا الجانب عقيدة(الجبري)، لأن هذا الاعتقاد سيفضي حتما إلى ضعف الإنسان،

ويصير به إلى أن يكون عديم الإرادة، وعديم الايجابية في الحياة.. ومن أجل هذا يكافح محمد عبده عقيدة (الجبر) ومن أجل أن يكون المسلم بناء يدعو محمد عبده إلى عقيدة (الاختيار) بقوله:

« لو شئت لقربت البعيد فقلت: أن من بالغ الحكم في الكون أن تتنوع الأنواع على ما هي في العيان، ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه، وكذا الحال في تميز الأشخاص، فواهب الوجود يهب الأنواع توابعه. ومن تلك الأنواع الإنسان: ومن مميزاته- حتى يكون غير سائر الحيوانات- أن يكون مفكرا، مختاراً في عمله، على مقتضى إرادته.فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه.ولو سلب شيء منها لكان أما ملكاً.أو حيوانا أخر... والفرض أنه إنسان، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر »[1].

و لم يسلك محمد عبده في مكافحة عقيدة (الجبر) من جانب وفي الدعوة إلى عقيدة (الاختيار) من جانب أخر مسلك الإنسان الفيلسوف. الذي يستمد الرأي من وجهة نظر خاصة، تمكنت من نفسه ورغب في شرح الحياة والوجود على أساس منها... بل سلك، كشأنه فيما نقد ورأى، مسلك رجل الدين المتبصر. فالأساس الذي يقوم عليه تفكيره أساس ديني، والهدف الذي يبغى الوصول إليه هو هدف ديني، والطريق بين الأساس والهدف يتسم بالصبغة الدينية.علل قوله:(الاختيار) ببعض نصوص القرآن الدالة على اسناد الفعل والعمل إلى الإنسان، وببعض النصوص

(1) رسالة التوحيد صفحة 75.

الأخرى التي ربطت الجزاء الأخروي بالعمل في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالي ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾[1] ..يقول:

« تجلت بدعوة التوحيد للإنسان نفسه حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره: سواء أكانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها كإرادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة موهومة أخترعها الخيال- كما يظن في الأشجار والكواكب ونحوها...وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [2]، ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى** ﴾[3].

وأضاف محمد عبده إلى هذه النصوص تبرير العقل لذلك، على نحو ما ينسب إلى رجال الاعتزال في تصحيح التكليف من الوجهة العقلية ويؤثر عن هؤلاء الرجال أنهم يقولون: أن التكليف لا يترتب عليه الجزاء بنوعيه- عقلاً- إلا إذا كان الإنسان (مسئولا) ولا تعقل مسئوليته إلا إذا كانت له أرادة بالفعل وكان له (اختيار) في واقع الأمر.

وهذا التبرير العقلي ليس عملاً عقليا مستقلاً عن رأي الدين، بل هو شرح لما جاء فيه من عقائد وفرائض، فهو دليل على شيء معتقد بالفعل، وليس دليلاً قصد به إنشاء عقيدة.. يقول في ذلك:

---

(1) النجم: 39- 40.

(2) الزلزلة: 7- 8.

(3)رسالة التوحيد: صفحة 9.

«لا ينبغي للإنسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق، والذليل للحق عزيز، نعم، يجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم، فإن وجده صحيحاً أخذ به، وأن وجده فاسدًا تركه، والحاصل أن الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة، والشجاعة هنا قسمان: شجاعة في رفع القيد: الذي هو التقليد الأعمى، وشجاعة في وضع القيد: الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه، وبهذا يكون الإنسان حراً خالصاً من رق الأغيار، عبداً للحق وحده» [1].

ويزيد الشيخ محمد عبده على هذا التبرير العقلي، الذي يعرف للمدرسة الاعتزالية ولفلاسفة المسلمين، تبريرا آخر يشتقه من هدف الإسلام في حياة الإنسان، وهو: أن الإنسان (المختار) لبنة إيجابية في بناء الجماعة، وهو لهذا دعامة قوية لا يتواكل ولا يبغى إنساناً سلبياً متهاونا، ولا جماعة كثيرة العدد قليلة العدة كغثاء السيل، تداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، ويترع الله المهابة من قلوب أعدائها، وهنا يذكر الإمام:

« صاح ــ الإسلام ــ بالعقل صحية أزعجته من سباته، وهبت به من نومه، طال عليه فيها الغياب، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي: بالعلم، وأعلام الكون، ودلائل الحوادث، فأطلق بهذا سلطان الحق من كل ما قيده، وخاصة من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته، يقضى فيها بحكمه وحكمته » [2].

---

(1) تاريخ الإمام: جـ1 صفحة 762- 763.

(2) رسالة التوحيد: صفحة 101- 102.

ولكنه بعد ذلك يفرق بين: مذهب (الجبر) وبين معنى (القدر)..

يقول، في رده على هانوتر، المستشرق الفرنسي.

« اعتقد الأفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر، وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين، القائلين بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الريح كيفما تميل، ومتى رشح في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة: فلا ريب تتعطل قواهم، وينقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتنمحي من خواطرهم داعية السعي والمكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا عن عالم الوجود إلى عالم العدم.

« وهكذا ظنت طائفة من الأفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول في المشرق، ولست أخش أن أقول: كذب الظان، وأخطأ الواهم، وبطل الزاعم،وافتروا على الله والمسلمين كذباً: لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني، وشيعي، واسماعيلى، وزيدي، ووهابي، وخارجي ـــ يرى من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في أعمالهم، ويسمى (الكسب)، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري، ومطالبون بامتثالهم جميع الأوامر الإلهية، والنواحي الربانية الداعية إلى كل خير، الهادية إلى كل علاج، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل.

« نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى (الجبرية) وذهب إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته، ومذهب هذه الطائفة

يعده المسلمون من منازع السطلة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هـذه المـذاهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة.

وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر. ولا من مقتضيات ذلك ما ظنه أولئك الواهمون... الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع. بل ترشـد إليـه الفطرة. ويسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنـه في الزمان، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب ألا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ماضيها ألا مبدع نظامها، وأن لكل منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العلـيم، وإرادة الإنسان أنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة... وليست الإرادة إلا أثراً من آثار الإدراك. والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشـعورها بمـا أودع في الفطرة من الحاجات. فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة. ما لا ينكره أبله. فضلاً عن عاقل. وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة: أنما هو بيد مدير الكون الأعظم، الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه، كأنه جزء له، خصوصاً في العالم الإنساني.

« ولو فرضنا أن جاهلاً ضل عن الأعراف بوجود الله صانع للعالم، فلـيس في أمكانه أن يتملص عن الاعتراف بأثير الفواعل الطبيعية، والحـوادث الدهريـة، في الإرادات البشرية، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه؟؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق، فضلاً عن الواصلين.

الاعتقاد بالقضاء والقدر، أذ تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقـدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك، التي ترجـف لهـا قلـوب الأسود، وتنشق منها مرارة النمور.. هذا الاعتقاد يطبع الأنفـس علـى الثبـات، واحتمال المكارة، ومقارعة الأحوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويـدعوها إلى

الخروج عن كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضـــرة الحياة.. كل هذا في سبيل الحق، الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

« والذي يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله بصـــرفها كما يشاء- كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه، وإعلاء كلمة أمتـــه أو ملتـــه، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟؟ وكيف يخشي الفقر مما ينفق من ماله، في تعزيز الحق وتشييد المجد، على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية؟؟

« امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد، مع بيان فضله، في قوله الحق: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّـــهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُـــوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾. [1].

« ... هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منـــهم أمـــام جيوش يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم... » [2].

---

(1) آل عمران: 173- 174.

(2) تاريخ الإمام: جـــ 2 ص 259 - 267.

في صلة العقل بالوحي ... أو في صلة استخدام العقل كمطلوب للوحي:

وفي توضيحه صلة العقل بالوحي، أو صلة رجا العقل برجال النص في الجماعة الإسلامية ـــ يرى الشيخ محمد عبده ما رآه "ابن رشيد" في القرن السادس الهجري، وما رآه "ابن تيمية" في القرن الثامن من قرون الهجرة، من أن النص يجب أن يتفق مع العقل .. يقول:

« فقد أمر الكتاب بالنظر واستعمال العقل: فيما بين أيدينا من ظواهر الكـــون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد: بمـــا حكى من أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم .. فالتقليد مضـــلة يعـــذر فيهـــا الحيوان، ولا يجعل بحال الإنسان » [1].

ويقول أيضاً:

« والذي علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فترغات شياطين، أو شهوات سلاطين » [2].

فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله، والعقل الإنساني أثر أيضاً من آثار الله في الوجود .. وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها بعضاً.

- لأنها آثار للكامل كمالا مطلقاً: والعقل البشري يحيل أن يكون هناك تناقض بين آثار الكامل المطلق، لأن التناقض في الأفعال نقص، فلو تعارضت أو تناقضـــت

---

(1) رسالة التوحيد: ص 15.

(2) رسالة التوحيد: ص 14.

الآثار الصادرة من مصدر واحد، دل تعارضها وتناقضها على عدم الكمال المطلق لهذا التصرف.

• لأنها الوحي مصدر هداية، والعقل الإنساني مصدر هداية أيضاً: وكلاهما يهدف إلى تحديد الطريق المستقيم في الحياة للإنسان، وإلى تحديد الغاية الأخيرة في هذا الوجود، وأمران شأنهما هذا الشأن، لا بد أن يتفقا في التحديد الإجمالي ـــ على الأقل ـــ لطريق الإنسان في حياته، وغايته في وجوده.

فإن بدا أن هناك اختلافا بين تطبيق رسالة الوحي واستخدام العقل، كان منشأ هذا الاختلاف: إما تحريف في نص رسالة الوحي، أو سوء في استخدام العقل، والمحرف للرسالة السماوية، وكذلك المسيء لاستخدام العقل الإنساني، هو: الإنسان، هنا وهناك .. وليس الملك الذي نزل بالوحي، ولا الرسول المصطفي لتبليغ الرسالة.

طبيعة الوحي يجب أن توافق طبيعة العقل الإنساني إذن، لأنهما معاً مصدر هداية .. صدرا لغاية واحدة من كامل كمالا مطلقاً.

وتحريف الكتاب المنزل بتخريج نصوصه تخريجا يبعده عن هدفه، تحت التأثر بعوامل شخصية، أو التأثر بمذهب معين ـــ عمل من شأنه أن يحول بين انسجام الكتاب المنزل والعقل السليم في الإنسان.

والدخول في بحث العقل للكتاب المنزل وللرسالة الإلهية، بعد الاعتقاد بعقيدة خاصة، أو قبل التخلي عن المؤثرات المغرضة ـــ يجعل من الصعب أن يوافق مثل هذا العقل الباحث أهداف الكتاب السماوي، ورسالة الله في جماعة الإنسان.

والإنسان هو الذي يخرج الكتاب تخريجا فيه بعد أو مجافاة لهدفه الأصيل، والإنسان نفسه هو الذي يمل بالعقل الإنساني نحو عقيدة خاصة أو جهة معينة،

وينحرف به عن أن يكون العقل الخالص، الذي فطر الله الإنسان عليه، وبذلك يكون الإنسان هو الذي حال دون أن يوافق الكتاب العقل، ودون أن يوافق العقل الكتاب، وليست طبيعة كل منهما هي التي حالت دون ذلك.

وابن رشد ـــ قبل محمد عبده ـــ كتب كتابه: « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ».. وكذلك كتب ابن تيمية كتابه: « موافقة صحيح المنقول لصريح العقول » ..

● وابن رشد: وإن هدف فيما كتبه في الكتاب السابق إزالة الخلاف بين الفكر الإغريقي والإسلام، إلا أنه أسس ذلك على عدم التنافر: بين طبيعة الدين كدين، وطبيعة العقل كعقل.

● والثاني: وهو ابن تيمية: وإن قصد مباشرة إلى عيب الفكر الإغريقي ونقضه، إلا أنه في الوقت نفسه برهن على أن طبيعة الدين ـــ فيما ينقل نقلاً صحيحاً ـــ لا تعارض طبيعة العقل، إذا تخلى هذا العقل عن الظنون والهواجس والغرض في أحكامه.

● والشيخ محمد عبده: في معالجة الصلة بين الوحي والعقل، لم يهدف إلى ما هدف إليه ابن رشد، كما لم يقصد إلى ما عناه ابن تيمية بل أراد من أول الأمر أن يوضح: أن فطرة الله التي فطر الناس عليها فيما يتصل بالعقل، لا تعارض مظهراً آخر من مظاهر الله، ومن آثاره في ملكوته، وبالأخص لا تعارض رسالة الوحي كما يتضمنها الكتاب المنزل، في صورته الأصلية.

جانب التربية والتوجيه العام:

وفي هذا الجانب الأخير اتجه تفكير الشيخ محمد عبده إلى:

- محاربة الحزبية المذهبية والتقليد.

- ومحاربة سلطة الكتاب الوجه: وإخضاعه للنقد العقلي والتاريخي، وللتصحيح والتعديل.

- وإصلاح الأزهر: باعتباره قلب الجماعة الإسلامية، إن فسد فسد الجسم.. وإن صلح صلح الجسم.

وأخيراً إحياء الكتب القديمة: للتعرف على العقليات الإسلامية المنتجة في تاريخ الجماهير الإسلامية، والانتفاع بصحيح الآراء، والبناء على هذا الصحيح منها، تبعاً لمقتضي الحياة المعاصرة.

محاربة الحزبية المذهبية التقليدية:

وجد الشيخ محمد عبده أن انقسام الجماعة الإسلامية إلى فرق وأحزاب، وصل إلى مرحلة ضعفت فيها الجماعة عن أن تكون جماعة واحدة، لها عناصر الأمة القوية، وذلك بسبب طغيان التبعية: أي عدم انفكاك التابعين لمذهب ما عن تقدير هذا المذهب، ومنحه سلطة عليا في التوجيه والاعتقاد في كل رأي من آرائه، وفي كل مؤلف من تأليفه، والخطر الذي يهدد الجماعة ـــ أي جماعة ـــ لا يكمن في تعدد مذاهبها في التفكير أو الاعتقاد، بل في تحكم هذه المذاهب وسيطرتها على التابعين بحيث يهاب هؤلاء التابعون تقدما، وإبداء الرأي في قيمتها، وعندئذ تكون الجماعة الواحدة جماعات وشعوبا وطوائف، بينها فواصل منيعة، تحول الفواصل دون تجاربها لتوجيه واحد، ولغاية واحدة، ودون سيرها في اتجاه واحد، ولغاية واحدة .. وهي فواصل هذه التبعية، أو فواصل التعصب البغيض الناشئ عن الحزبية الجامعة.

وجد الشيخ محمد عبده انقسام الجماعة الإسلامية على هذا النحو، وجد فجوة واضحة بين المتكلمين بعضهم تجاه بعض، وفجوة أشد من هـذه وضـوحا بـين المتكلمين جميعاً من جانب وأرباب العقل والفلسفة من جانب آخر، كمـا وجـد أرباب المذاهب الفقهية ـــ وهي مذاهب التوجيه في معاملات الناس بعضهم لبعض، وفي عيادة الناس لخالقهم، يتنابذون في الخصومة، ويعرضون قيمهم البشرية للتجريح، وقيمهم المذهبية في سلوكهم الديني للأخذ والرد، على نحو ما يوجد في كتب الفقهاء المتأخرين.

لهذا لم يجد مناصا من أن يعرض لقيم هذه المذاهب، و لم يجد مناصا كذلك من أن يكون تقديره إياها بحيث لا يجعل لواحد منها رجحانا مطلقاً على آخر، وبذلك تكون وضعية هذه المذاهب أمام المجتمع الإسلامي: وضعية الشارح لأوامر الإسـلام وتعاليمه، الذي من شأنه أن يصيب ويخطئ، لأن هذا الشارح إنسان، ومن أجـل ذلك لا يحق لمذهب منها، فضلاً عن التابعين له، أن يدعي أنه هـو الحـق علـى الإطلاق، أو أنه يمثل الإسلام كصورة تامة له.

وتناول محمد عبده عرض قيم هذه المذاهب:

* في: بيانه لـ علم الكلام، وفي الوقت نفسه في موقفه هو من علم (التوحيد).

* وكذلك: في رأيه في تحديد (الفرقة الناجية) من بين الفرق الكلامية.

ففي تقديره لبحوث (المتكلمين) الإلهية .. خالف معاصريه، وخالف التقـدير المساند إذ ذاك لعلم التوحيد، وقد كان المعاصرون له في الأزهـر يـرون أن علـم التوحيد ـــ وما دار في كتبه من أخذ ورد في عرض أدلة الفـرق الكلاميـة علـى مذهبهم ـــ وسيلة إيجابية، ومنهج واجب الاتباع، في تنشئة الاعتقادي الصحيح بالله

بين المسلمين، ولهذا تلى مترلته ـــ في مواد الثقافة الإسلامية الموجهة ـــ مترلة القرآن الكريم وعلومه، أي تلى مباشرة: المباحث التي تتعلق بالمصدر الأصيل للإسلام.

خالف محمد عبده هذا التقدير، ورأى رأى (الغزالي)- ومن قبل الغزالي أمـــام الحرمين (أبو المعالي الجوينى)- في: أن علم الكلام يصلح أن يكون وسيلة من وسائل الدربة الذهنية، والتمرينات العقلية، ولكنه لا يصلح بحال أن يكون وسيلة لتنشـــئة العقيدة الإسلامية، أو تدعيم الإيمان بها.. وأصلح الوسائل لذلك: منهج القرآن نفسه في عرض الدعوة الإسلامية، ومطالبة الناس بإتباع ما يدعو إليه الإسلام. أنه منـــهج (الإقناع): ذلك المنهج الذي يراعى القطرة الإنسانية العامة، وهي القدر المشترك بين الناس جميعاً. وهو من أجل هذا يلاءم الدين، من حيث أنه للكافة، وليس توجيهـــاً خاصاً لفريق معين في الجماعة الإنسانية. أما علم الكلام في جميع مذاهبه على نحو ما تصور. كتب المتأخرين، فقد بعد باستخدام المنطق الأرسطي عن هذا المنهج، وأصبح بذلك وسيلة الحجاج لدى الخاصة ممن اتصلوا بالفكر الاغريقى، واستمرارا منطقـــه الصوري في البرهنة.

أما بالنسبة لتحديد (الفرقة الناجية) بفرقة خاصة من بين فرق المتكلمين: فيتجلى موقف محمد عبده في تعليقه على شرح (الرسالة العضدية) [1].. وشارح هذه الرسالة أصلاً هو جلال الدين الصديقى الدوانى، المتوفى سنة 1067هـــ، وقد أستهل رسالته بقوله:

(وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة، قيل: ومن هم؟ قال: الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي». ثم بعد

---

(1) لعضد الدين الايجي، المتوفى سنة 756هـــ(1355مـــ).

أن أورد المؤلف الحديث عمد إلى تحديد هذه الفرقة الواحدة الناجية بقوله: «وهذه عقائد الفرقة الناجية- وهم الأشاعرة»؟

وبعد أن انتهى من هذا التحديد عقب الشيخ محمد عبده بقوله: (لا بد لنا أن نتكلم في هذا الحديث بكلام موجز فاسمع وأعلم أن الحديث قد أفادنا:

1- أنه يكون في الأمة فرق متفرقة.

2- وأن الناجي منهم واحدة.

3- وقد بينها النبي، بأنها هي التي على ما هو عليه وأصحابه.

« وكون الأمة قد حصل فيها افتراق على فرق شتى، تبلغ العدد المذكور أولاً تبلغه: ثابت، وقد وقع لا محالة.

« وكون الناجي منهم واحدة أيضاً: حق، لا كلام فيه. فإن الحق واحد، وهو ما كان النبي عليه وأصحابه، فإن ما خالف النبي عليه فهو رد.

« أما تعيين أي فرقة هي الفرقة الناجية، أي التي تكون على ما هو عليه وأصحابه: فلم يتبين بعد إلى الآن.

« فإن كل طائفة- ممن يذعن لنبينا بالرسالة- تذهب فتجعل نفسها على ما النبي عليه وأصحابه.حتى أن (مير باقر الدماد) برهن على أن جميع الفرق المذكورة في الحديث هي فرقة الشيعة، وأن الناجي منهم فرقة الأمامية، وأما أهل السنة، والمعتزلة وغيرهم، من سائر الفرق فجعلهم من أمة الدعوة.

فكل يدعى الأمر، ويقم على ذلك أدلة... وذكر الفلاسفة وأدلتهم.. والصوفية وأدلتهم.. والمعتزلة وأدلتهم.. وأهل السنة وأدلتهم... قال:

« فكل يبرهن على أنه الفرقة الناجية المذكورة في الحديث، وكل مطمئن بما لديه، وينادى نداء الحق لما عليه. والوقوف على حقيقة الحق في ذلك يكون من فضل الله وتوفيقه.

فأن المناظر أن يقول:

** أن تكون الفرقة الناجية، والواقفة على ما كان عليه النبي وأصحابه، قد جاءت وانقرضت، وأن الباقي الآن من غير الناجية.

** أو أن الفرق المرادة لصاحب الشرع- في هذا الحديث- لم تبلغ العدد الآن، وأن الناجية الآن ما وجدت، وستوجد.

** أو أن جميع هذه الفرق ناجية: حيث أن الكل مطابق لما كان عليه النبي وأصحابه من الأصول المعلومة لنا عنهم- كالألوهية، والنبوة، والمعاد، وما وقع فيه الخلاف، فأنه لم يكن يعلمه علم اليقين، وألا لما وقع فيه خلاف. أو أن بقية الفرق ستوجد من بعد، أو وجد منها بعض و لم يعلم، أو علم: كمن يدعى ألوهية على مثلاً: (وبناء على هذا الافتراض تكون الفرقة التي لم تعلم أو علمت- وقد وضح انحرافها- هي غير الناجية، وما عدها هو الناجي)..

** وموجب هذا الترديد: أنه ما من فرقة إلا ويجدها المناظر معضدة بكتاب، وسنة، وإجماع، وما يشبه ذلك(كالقياس) ... والنصوص فيها متعارضة.

« والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على:

* إثبات الصانع، وهو واجب الوجود.

* ثم منه إلى إثبات النبوات.

ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم، بدون فحص فيما تكنه الألفاظ، إلا فيما يتعلق بالأعمال، على قدر الطاقة...

* * *

وبهذا النقد للمذاهب الكلامية في ذاتها، وهذا الموقف من تحديد مذهب معين منها على أن أتباعه هم الناجون، ثم برفع الفجوة بين صنعة « العقل » ورسالة «النص» من قبل- خلخل الشيخ محمد عبده التبعية، والتعصب لهذه المذاهب، وحول «القداسة» التي منحها تابع هذه المذاهب إياها، وكذلك «السلطة» التي كانت لهذه المذاهب على نفوس تابعيها.. حولهما إلى المصدر الأول للإسلام وهو: القرآن الكريم، ثم إلى السنة الصحيحة بعده، على نحو ما كان الشأن أيام الدعوة وبعدها بقليل في القرن الأول الهجري... أنه يقول:

« ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف مما كان عليه سلفنا، فنحيا بما كان قد أحياهم، ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم » [1].

ويقول أيضاً:

« فالقرآن سر نجاح المسلمين، ولا حيلة في تلاقي أمرهم إلا إرجاعهم إليه، وما لم تقرع صيحته أعماق قلوبهم، وتزلزل هزته راوسى طباعهم فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم. ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه، على ما ترشد إليه أساليب اللغة العربية، ليستجاب لدعوته، كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الإبل

(1) تاريخ الإمام: جـص411.

ممن نزل القرآن بلغتهم، والقرآن قريب لطالبه، متى كان عارفا باللغة العربية، ومذاهب العرب في الكلام،وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي » [1].

وبهذا اعتقد الشيخ محمد عبده أنه صان وحدة الجماعة الإسلامية وعمل على تماسكها من جديد.

وربما يكون طريقه إلى ذلك أنجح من طريق «الأشعرى» ثم من طريق ابن تيمية » بعده في محاولة كل منهما تخفيف حدة المذاهب الإسلامية وإرجاع المسلمين إلى الكتاب والسنة، وإلى الوحدة الأولى للجماعة الإسلامية.

** لأن « الأشعرى » قامت محاولته: على إقرار بعض الآراء من هذا المذاهب وعدم إقراره للبعض الآخر منه، ثم انتخابه بعض آراء أخرى من مذهب آخر وتركه البعض الآخر فيه، وهكذا.. ثم ضم المنتخب، الذي أقره: بعضه إلى بعض، في وحدة سماها: مذهب (أهل السنة والجماعة).

** وكذلك فعل (ابن تيمية) في نطاق أوسع: فما قبله من الآراء برهن على صحته، وما رفضه منها برهن من الشرع والعقل على عدم اعتباره.

ومن شأن مثل هذه المحاولة أن تبقى على القيمة الدينية لبعض الآراء الكلامية، وهى الآراء التي قبلت من صاحب المحاولة وذلك يؤدى بدوره إلى أن هذه القيمة لها صلة بالعقيدة من حيث تكوينها، أو تقويتها وتأكيدها.

** وهذا ما لم يقبله الشيخ محمد عبده، أن جعلها قاصرة على الدربة الذهنية، وأوضح أن سبيل العقيدة يجب أن يكون هو السبيل الذي حدده القرآن الكريم في عرض دعوته.

---

(1)تاريخ الإمام: جـ2 ص515.

وطالما كانت هناك قيمة عقيدية باقية للمذاهب في جملتها، فالتبعية باقية له.

وعندئذ ليس هناك ضمان أن تعود لهذه التبعية سلطتها، وبذلك تعود فجوة الفرقة إلى قوتها الأولى، وتتفتت وحدة الجماعة من جديد عن طريق ذلك.

والشيخ محمد عبده إذ يدعو المسلم إلى التحرر من التبعية الحزبية المطلقة والمذهبية... يدعوه أيضاً أن يكون ذا شأن ورأى، وله سلطة النقد، واختيار أسلوب التوجيه، وتكييف أحداث الحياة... يدعوه إلى أن يفكر كإنسان، ولكن عليه- ضمانا لنجاح تفكيره، وسلامة هذا التفكير- أن يستهدى القرآن ويسترشده... يدعوه إلي (الجهاد)ونبذ (التقليد). يقول في تفسير قوله تعالي: « الله الصمد »:

« ثم- هو الله- (الصمد) في تحديد الحدود العامة للأعمال، ووضع أصول الشرائع. فلا بد أن يرد إلى ما أنزل جميع ما يقع الاختلاف فيه. وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره، متى نطق صريح كتابه بخلافه وعلى الناس كافة أن يرجعوا إلى الكتاب، فإذا لم يكونوا عارفين به، رجعوا إلى العارف وطالبوه بالدليل منه. وعليهم أن يهتموا بأن يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون، فإذا لم يفعلوا اختلفت الآراء، وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه، وذهبت الحكمة من إنزاله... لتعلق الناس بقول غير المعصوم، وعماهم عن هدى المعصوم، فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة، وإنما يعملون بما يقول لهم زعماؤهم، الذين لا يجدون دليلاً على امتيازهم بالزعامة، فيكونون متمسكين بما لم ينزل به الله سلطانا، فسيقعون في مهاوى الشقاق الدنيوي والأخروي » [1].

---

(1) تفسير جزء عم: 178.

أمن الشيخ محمد عبده بأن للإنسان وجوداً ذاتيا وكيانا مستقلاً في هذا العالم، والدعوى بأن للإنسان وجوداً ذاتيا، يستتبع منطقها إقرار أمكان الإنسان فهم نصوص الكتاب المترل، والتفقه على أساس منها، وذلك هو ما يعرف (بالاجتهاد) إذ الاجتهاد هو التفتيش في مصدر الجو الديني الأصيل، كي يطبع حالاً معينة أو حادثة جديدة بطابع هذا الجو، بحيث ليبدو شذوذ، ولا نفرة عن ذلك الجو الأصيل.

ومن هنا لا يتردد الشيخ محمد عبده في القول بإباحة الاجتهاد ونبذ التقاليد.

وسبب الدعوة إلى الاجتهاد عنده هو طبيعة الحياة، وضرورات المجتمع الإنساني: فالحياة الإنسانية صائرة ومتطورة، ويجد فيها من الأحداث والمعاملات اليومية، ما لا يعرفه أمس هذه الجماعة. والاجتهاد هو الوسيلة العلمية، والنظرية المشروعة، للملاءمة بين أحداث الحياة المتجدد وتعاليم الإسلام العامة. ولو وقف الأمر بتعاليم الإسلام عند حد تفقه الأئمة السابقة لسارت الحياة الإنسانية في الجماعة الإسلامية في عملة عن التوجيه الإسلامي، وبقيت أحداث هذه الحياة في بعد عن تحديد الإسلام لها وتكييفها بالكيفية الإسلامية. وهذا وضع سيحرج المسلمين: في إسلامهم وفي حياهم معاً. فأما أن تخف قيمة الإسلام في نفوسهم تحت ضغط تيار الحياة وأحداثها، وأما أن يقفوا عن متابعة السير في الحياة فيصيروا في عزلة عن الحياة نفسها، وضد الحياة وقانونها كذلك.

ومع أن الاجتهاد هو الوسيلة المشروعة الحتمية لامتداد الصبغة الإسلامية لأحداث المجتمع الإنساني في الجماعة الإسلامية، ألا إنه من جانب أخر لا يجوز أن يمارسه إلا من كان على الصفات العلمية التي كان عليها محمد عبده جوازه في عصره وبعد عصره، بالشروط التي جاز بها فيما مضى، وأحتاط في هذه الشروط احتياطا لا يقل عن احتياط الأوائل فيها.

وكان من الضروري، إذ يجوز الاجتهاد: أن ينعى على التقليد، لأنه وقف بالعقل الإنساني عند حد معين لا يتجاوزه..

**وذلك يتنافي مع طبيعة العقل ذاته: لأن العقل وجد للملاءمة بين الإنسان وظرف الحياة التي يعيش فيها، ولذلك كان هذا العقل مصدر هداية الملاءمة التي استنبطت في عصر سابق، كان ذلك خروجاً به عن طبيعته، ومثلاً لحركته الذاتية في سيره.

** ويتنافى الوقوف به عند زمن معين مع طبيعة الحياة: لأن أحداثها ليست أزلية غير متغيرة، بل خصيصتها التغير والتجدد. وإذن، قد يكون ما ناسب أحداثها الماضية من علاج اقتراح من قبل: غير مناسب لعلاج الأحداث الجديدة، والحكم بإخضاع هذه الأحداث الجديدة لتكييف الماضى وعلاجه قد يؤدي إلى تعسف ومشقة، نتيجة التنافر بين خصائص الأحداث الجديدة والعلاج الذي أخذ به لأحداث سابقة فيما مضى.

** ويتنافى أيضاً مع طبيعة المبادئ الإسلامية وخصائصها: لأن هذه المبادئ ليست لها طبيعة التوقيت، ولا الخصوص المكاني أو الزماني. فهي للناس كافة، وللإنسانية في أزمنتها المتتابعة، وفي جميع بقاعها. ومقتضى ذلك: أنها صالحة لتناول أحداث الحياة، وقادرة على صبغها بالصبغة الإسلامية، وأنها صالحة كذلك لتوجيه الإنسان في الحياة في ظروفها المختلفة.

والشيخ محمد عبده إذ ينعى على التقليد، ينعى عليه لذاته من حيث هو كمبدأ، ثم على وجه أخص: ينعى على صورته التي كان عليها في زمنه، وهي التي تتمثل في تبعية حرفية لها شبه قداسة وسلطة.. تبعية لمذاهب واتجاهات ولدتها أو مالت بها عن

خط الاستقامة عهود الضعف الفكري، والسياسي، والاقتصادي في الجماعة الإسلامية... وتبعية لكتب قامت على كثرة الافتراض النظري في تفصيل الآراء، وبعدت بذلك عن الحياة في سيرها الواقعي، وغمضت في أسلوبها، وهدفت إلى توكيد الخصومة المذهبية الجامحة..

ويبين محمد عبده مدى أثر هذا التقليد على علماء الأزهر:

« وإذا وصل إلى أيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون المراد منه.. وإذا عقلوامنه شيئاً: يروونه ولا يقبلونه.. وإذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم وحزبهم، كما جروا عليه في نصوص الكتاب والسنة »[1].

فإقرار الاجتهاد وجوازه- في نظر الشيخ محمد عبده- ليس مظهراً لاعتبار الإنسان وتقديره فحسب، بل هو قبل ذلك ضرورة اجتماعية إسلامية واستمرار عملى للحياة الإسلامية داخل المجتمع الإسلامي.

العقل الإنساني هو العقل الإنساني في كل عصر وجيل.. وموقف الإنسان المسلم من كتاب الله وسنة رسوله في أى جيل، يجب أن يكون هو موقف الإنسان المسلم أول الدعوة في الإسلام، وفي الفترة الذهبية له.هنا الموقف هو: المسلم المتأخر في الزمان الحق كل الحق في أن يفهم القرآن والسنة الصحيحة، كما كان هذا الحق نفسه للمسلم السابق، على أن تتوفر للمتأخر مقومات الفهم(السليم) على نحو ما عرفها السلف فيما مضى، واعتبرت دستور الاجتهاد أو شرطه. وهذا الحق المشترك بين السابق واللاحق لا يوحى به تحقق الوصف الإنساني لكل منها فحسب، بل

(1)تاريخ الإمام:جـ1ص766.

توحي به أيضاً الأحداث المتغيرة في الجماعة الإسلامية، وتطور الحياة نفسها بين المسلمين.

فهذه الأحداث خليقة بأن تحمل المسلمين في بيئاتهم المختلفة وأجيالهم المتعاقبة على إخضاع هذه الأحداث نفسها للإسلام، حتى يصبح تصرف المسلمين إزاءها تصرفاً إسلاميا... وبذلك لا يعيش الإسلام في عزلة عن مجرى الحياة العلمية للجماعة الإسلامية.

هذه الأحداث خليقة بحمل المسلمين على ذلك، لأنها طارئة على حياتهم، و لم يعرفها أسلافهم من قبل. ولو وقف المتأخرون عند حد ما قطعه السابقون، في الملاءمة بين أحداث الحياة وتعاليم الإسلام، لوجدوا أنفسهم- بعد فترة من الزمن- أنهم أمام هذه الثنائية:

** حياة تسير وتجرى في سيرها، لا يستطيعون وقف سيرها وجرينها، وبالتالي لا يستطيعون اتخاذ موقف معين إزاءها...

** وإسلام يعتقدون به، ويرون أن يكون سلوكهم في حياتهم في أساس من تعاليمه وتوجيهه..

محاربة سلطة الكتاب الموجه، وهو كتاب المتأخرون:

ويرى الشيخ محمد عبده في كتب المتأخرين، والتي الفت في عهود الركود والضعف- من تأثيرها على التوجيه تأثيراً سلبياً، وحجبها العقل الإسلامي من أن يرى الحياة فيسايرها في أحداثها وتطورها- ما رآه في الحزبية المذهبية من قبل فكما أن أثر الحزبية المذهبية في الجماعة الإسلامية أثر سلبى، على وحدتها وتماسكها م

جانب، وعلى الاهتداء بالقرآن نفسه والسنة الصحيحة اهتداء مباشـــرا في تكييـــف الحياة الإنسانية المتجددة من جانب أخر، كذلك الشأن بالنسبة لكتب المتأخرون.

يقول في تقدير هذه الكتب:

«... إذا رجعنا إلى كتب القرون المتوسطة- فترة ما قبل الركـــود، كـــالزبلعى مثلاً- تكون قد خطونا خطوة لإصلاح الكتب والفقه، وما دمنا مقيدين بعبـــارات هذه الكتب- المتأخرة- المتداولة، ولا نعرف الدين والعلم إلا منها، فلا نـــزداد إلا جهلا.. هذا الشوكاني: لما كسر قيود التقليد الأعمى، حيث كان وهابيا معتـــدلا، صالا عالماً وفقهيا. إن حالة الفقهاء هذه- في كتب المتأخرين- هي الـــتي ضـــيعت الدين ».

كما نعى محمد عبده على التطويل في بحوث العبادة، وعلـــى تـــرك التطـــور والتفصيل في باب المعاملات، حيث يقول:

« أن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان، أمور ووقائع لم ينص عليها في هـــذه الكتب، فهل توقف سير العالم من أجل كتبهم؟ هذا لا يستطاع؟.

« ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية، ولجأوا إلى غيرهـــا، والفقهاء هم المسئولون عند الله عن هذا، وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة: لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان، ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس إتباعها، كأحكام الضرورات، لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها، ويجعلونها كل شيء، ويتركون لأجلها كل شيء.

« يقرءون (الأصول) ولا يخطر ببال واحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب إلى أصله، أو يبحث عن دليله، بل لم يخجلوا أن يقولوا: نحن مقلدون لا يلزمنا النظر

في الكتاب والسنة، دانوا لكتب المتقدمين (عليهم مباشرة) على تعارضها وتناقضها، الذي تشتت به شمل الأمة، ويكتفون بقولهم: وكلهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتمس.

ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها، ويتفقون على المراجع الذي ينبغي أن يكون عليه العمل، وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زمان، ينبغي لهم التنبيه على ذلك، وعلى أن هذا الحكم ليس عاماً، وإنما سببه كذا، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه، واجب الاتباع في كل زمان ومكان » [1].

إحياء كتب الأوائل:

وفي الوقت الذي عاب فيه محمد عبده على كتب المتأخرين، ونعى على المتمسكين بها إلى حد أن كان تمسكهم بها سبباً في ضياع مصالح الناس، دعا إلى إحياء التراث القديم، وساهم هو مع ذلك في إحيائه، وهو بهذا وذاك، منطقي مع تفكيره العام في الجانب التوجيهي: لأنه أن عاب كتب المتأخرين، لم ينتقص من قيمة التراث الإسلامي والعربي، كأساس يجب أن يقوم عليه كل إصلاح، وتبنى عليه نهضة الشرق الإسلامي، في مسايرته للحياة الواقعية.

فاعتماده على هذا التراث من جانب، وتقليله من قيمة كتب المرحلة المتأخرة من جانب آخر، كان لا بد أن يوحى بفكرة إحياء التراث القديم.

ساهم محمد عبده بنفسه في إحياء هذا التراث، ودفع إليه السلطة القائمة إذ ذاك، ورغب تلاميذه في هذا العمل، فشرح كتاب، "البصائر النصيرية" في علم المنطق،

---

(1) تاريخ الإمام: جـ 1 صفحة 943 - 945 .

وأخرج "نهج البلاغة" في الأدب، وغير ذلك، وهكذا أعطى محمد عبده نموذجا للانتفاع بالتراث القديم.

كما وضع مبادئ عامة للتأليف الحديث، ورسم منهجا خاصاً لتفسير القرآن الكريم، والتزم هذه المبادئ في تأليفه "رسالة التوحيد" وفي تفسيره الخاص لكتاب الله المترل.

ويقوم منهجه في تفسير القرآن الكريم على هذه الأسس التالية:

- اخضاع حوادث الحياة القائمة في وقته لنصوص القرآن الكريم: أما بالتوسع في معنى النص، أو يحمل الشبيه على الشبيه.

- اعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة: لا يصح الإيمان ببعضه، وترك بعض آخر منه، كما أن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه.

- اعتبار السورة كلها أساسا في فهم آياتها، واعتبار الموضوع فيها أساسا في فهم جميع النصوص التي وردت فيه.

- إبعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن، وإبعاد تفسيره عن أن يجعل مجالاً لتدريب الملكة اللغوية.

- عدم إغفال الوقائع التاريخية في سير الدعوة إلى الإسلام، عند تفسير الآيات التي نزلت فيها.

والشيخ محمد عبده بهذا المنهج في تفسير القرآن الكريم: لم يعد للقرآن حرمته واعتباره فقط، بل رسم منه دائرة تستطيع أن تحيط بالحياة الإنسانية في حاضر الإنسان المسلم، كما أحاطت في الماضي البعيد بحياة المسلم على عهد الدعوة، وفي العهد القريب منها بعد ذلك.

إصلاح الأزهر:

رأينا حتى الآن أن الشيخ محمد عبده يمارس التفكير في جوانب متعددة:

- يمارسه في الجانب القومي: في الساسة الوطنية، والتربية الجماعية.
- ويمارسه في الجانب الاجتماعي: في الكشف عن عيوب المجتمع، وبيان مقومات.
- ويمارسه في جانب العقيدة: ببيان ما يحول دون المسلم أن يكون إيجابياً وما يدفعه إلى أن يكون بناء.
- ويمارسه في جانب التوجيه العام: ليخلق من المصري، والشرقي المسلم مواطنا صالحاً.

وفي جميع تلك الجوانب التي مارس فيها محمد عبده التفكير: نقداً وبناء، التزم شيئاً واحداً هو: الثقافة الإسلامية.

فنواة تفكيره في ذلك كله هي الثقافة الإسلامية، وهو يرى أن الانحراف في هذه الثقافة هو سبب فساد المجتمع.

وإعادة هذه الثقافة إلى إيجابيتها، هي السبب في نهضة الأمة كجماعة، وكأفراد، وهي السبب بعد ذلك في دفع الاستعمار، وفي محو الظلم والاهانة البشرية، اللذين تقوم عليهما سلطته المستعمرة في البلاد الإسلامية.

- ولكن ما السبيل إلى إبعاد الانحراف عن هذه الثقافة.

- ما السبيل إلى جعل الثقافة بناءة؟
- ما السبيل إلى إبعاد عوامل الفرقة في الأمة؟
- ما السبيل إلى رد اعتبار الإنسان للإنسان في هذه البلاد؟
- ما السبيل أخيراً إلى أن نسير دائماً، ولا نتخلف أبداً؟

سبيل ذلك في نظره: إصلاح، وإصلاح الأزهر وحده.

فالأزهر، هو كيان الأمة، إن فسد فسدت الأمة، وإن صلح صلحت الأمة، إن فسد فسيحترف رجاله، الدين عن غير فهم صحيح للإسلام، فيطغي الانحراف في توجيه الأمة، وننتشر المذاهب الانفرادية والإباحية، وتزيد الأمة ضعفاً بذلك على ضعف، وبهذا يخف وزن الإسلام وتخف قيمته في نفوس الناس، وبالتالي يقوى النفوذ الاستعماري، ولا يستطيع المسلمون أن يواجهوه في صف واحد كتلة قوية، بإيمانهم في الحياة، وبسيادتهم فيها ــ ولو على أنفسهم على الأقل.

وإن صلح هذا الأزهر فسيشع منه نور الهداية، وسيكون علماؤه قدوة للمواطن المسلم الصالح، قدوة في العمل، والتفكير معاً.

ويجعل الشيخ محمد رشيد رضا رأي الشيخ محمد عبده في قيمة إصلاح الأزهر، فيما يلي.

« ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الأزهر، معتقدا، أن إصلاحه خير إصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية، ولإصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب، وخير صلة بين المدنية القديمة والمدنية الجديدة، لأنه علم أن السبب في التقاطع بين أوربا والمسلمين: هو جهل الأوربيين بحقيقة الإسلام، وعجز المسلمين عن إفهامهم تلك الحقيقة، لأنهم غير

متحققين بها، لا علماً ولا عملاً ولا تحققا، ثم جهل المسلمين بحقيقة أوربا، وبكنه ارتقائهم العلمي والاجتماعي.

« ولو صلح حال التعليم في الأزهر، لهب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة كما هبوا لذلك في أول نشأتهم، فأحيوا ما أماته الزمان من علوم الهند واليونان، فلا يجدون أمامهم إلا أوربا وعلومها الحية، ويفهمونها على أنها خير عون لهم على تكميل مدنيتهم، فيتعارفون، ولا تناكرون، وإذا عارضت السياسة تعارفهم فأنه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التقارب والعلم، ما لا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل »[1].

كان أمل الشيخ محمد عبده في حياته إذن- بعد تفكيره الذي وضح خطوطه: هو إصلاح الأزهر. عادى خديوى مصر (عباس الثاني) من أجل الأزهر، ومن أجل أوقاف المسلمين(وقف الجيزة) على كتاب الله. واتصل بكرومر الحاكم غير الشرعي من أجل الأزهر وأوقاف المسلمين، على كتاب الله ومات أخيراً، وهو صريع الكفاح من أجل الأزهر وكتاب الله.

ودعا الأزهريين إلى فهم كتاب الله.. إلى نبذ التقليد... إلى الرجوع إلى كتب المتقدمين... إلى فهم الحياة الواقعية.. « إلى السير مع السائرين فيها.. إلى عرض الإسلام بعقلية العصر وأسلوب العصر.. إنه يقول:

---

(1) تاريخ الإمام: جـ1:ص543.

«إن العالم المسلم لا يمكنه أن يضم الإسلام، من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر، إلا إذا كان متقناً للغة من لغات العلم الأوربية، تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله، من مدح ونم»[1].

وقد رسم محمد عبده خطة المناهج، لتخريج الدعاة، وتخريج المؤلفين، وتخريج العلماء الباحثين. ونفذ هذه الخطة في دروسه، وتواليفه للخاصة والجمهور، وفي إحيائه للتراث القديم.

ولكن الأزهريين قاوموا الشيخ محمد عبده ... اتهموه في إيمانه، وفي دينه، اعتبر الأزهريون إيمان الشيخ محمد عبده ضعيفاً، واعتبروا دينه رقيقا، وطال الأمد على هذا الظن، حتى تحول الاتجاه عن محمد عبده، وعن إصلاحه وعن خطته، وطريقته في درسه وتأليفه.

ومع ذلك مات الشيخ محمد عبده غير يائس من إصلاح الأزهر [2] ولكنه لم يدر بخلده يوماً ما، أن يتحول الأزهر إلى معهد لتخريج مدرسي اللغة العربية في المرحلة الابتدائية من مراحل التعليم في وزارة التربية والتعليم، وأن لا يستطيع أن يخرج من يفهم الإسلام، فضلاً عن أن يفهمه الناس، فضلاً عن أن يكون هذا التخرج ذا بحث وبناء في رسالة الإسلام.

لم يدر بخلد الشيخ محمد عبده أن يصير الأزهر إلى وضع يؤدي إلى حجب الثقافة الإسلامية عن الأجيال القادمة، وأن يكون حاله الذي صار إليه مساويا في

---

(1) تاريخ الإمام: جـ1:ص927.

(2) هل تحققت أمال المفكرين في إصلاح الأزهر بصدور القانون رقم 103 لسنة 1961 بشأن إعادة الأزهر والهيئات التي يشملها.

النتائج لذلك المشروع الغربي الاستعماري: وهو مشروع كتابة العربية بالحروف اللاتينية، فالأزهر- فيما صار إليه- قد توقف عن تخريج فاهم للإسلام، وبذلك بقيت كتب التراث الإسلامي في عزلة عن حياة المسلمين، إذ الأزهري الفاهم للإسلام كان فيما مضى هو الصلة بين الطرفين وفكرة كتابة العربية بالحروف اللاتينية- لو قيض لهذه الفكرة أن تتم- لكانت نتيجتها ذات النتيجة: وهي قطع حياة المسلمين عن ماضيهم الإسلامي، في ثقافتهم الموروثة.

لم يدر بخلد الشيخ محمد عبده أن مشيخة الأزهر في عهد ما ستتحول إلى مكتب، نشاطه لا يتصل بالتعبئة الروحية في الشعب، ولا يتصل بالدفاع عن الإسلام في وجه هجوم الغرب الصليبي المستعمر، ولا بالعمل على إبراز حيوية الإسلام وسمو تعاليمه في مواجهة الإلحاد المادي، مما يعتب المهمة الأساسية الكبرى للأزهر كجامعة وحيدة في العالم الإسلامي، وكمصدر للقوة الفكرية الإسلامية، ومصدر لا ينازع لزعامة مصر في العالم الإسلامي، ولمنزلة مصر في العالم العربي كذلك.

تقدير المستشرقين للشيخ محمد عبده:

أن الشيخ محمد عبده كان في نهاية القرن الماضي شمعة مضيئة... كان الظلام شديد الحلوكة حوله، ولكن لم يكن قليل الضياء في نفسه- كما يقول ماكس هورتن المستشرق الألماني- بل أن وقته قد تجاهله وحاربه، فلم ير ضوءه على حقيقته؟؟ وماكس هورتن واحد من عديدين من المستشرقين، الذين يحاولون وضع غطاء: على قيمة الشيخ محمد عبده نفسه، وعلى أرائه في صلتها بحقيقة الإسلام.

فذلك المستشرق الفرنسي "b. Mechel"، الذي قام بالاشتراك مع الشيخ مصطفي عبد الرازق بترجمة "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده ـــ يعلق على ـــ رأي الشيخ محمد عبده في الإسلام بقوله:

« كان محمد عبده متفائلا أكثر من الواقع: حيث قال باتحاد العلم مع الدين في كل وضع، في حين أن العلم لا يضع للدين في بعض الأحيان، كما في أوربا، ولعله أتى بهذا الرأي لحمل العلماء من المسلمين على دراسة الدنية الحديثة، ورأي أن هذا هو الطريق لذلك » (1).

ودائرة المعارف الإسلامية ـــ التي أخرجها بعض المستشرقين ـــ تذكر ما يلي في تعليقها على آراء الشيخ محمد عبده فيما يتصل بتقييم الإسلام:

« والإسلام البدائي ـــ (نقصد الإسلام على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته) في نظر الشيخ عبده، ليس هو الإسلام التاريخي (الذي صار إليه الأمر في حياة المسلمين)، وإنما هو إسلام اصطنع مثاليته، وجعله متوقفا على المسيحية في أنه دين معقول، ومتصل بالحياة اتصالاً كثيفاً، متصل بتلك الحياة الواقعية؟

« وعمله (الشيخ محمد عبده)، بالنسبة للإسلام، له طابع الدفاع عن العقيدة، ومساهمته في فكرة الإصلاح الديني هي محاولة لخلق موضع للإسلام في العالم الحديث» (2).

ويتمثل هذا التعليق يحاول المستشرقون أن يصوروا ـــ من طريق غير مباشر ـــ أن الإسلام: في ملاءمته للعلم، وفي سمو مبادئه، وفي صلاحيته للحياة، ليس على

---

(1) ترجمة الرسالة التوحيد: ص 50.

(2) دائرة المعارف الإسلامية ـــ الطبعة المختصرة باللغة الإنجليزية ص 405- 407.

النحو الذي يصوره به الشيخ محمد عبده، وأن الإسلام على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عهد صحابته رضوان الله عليهم، لا يفترق عن الإسلام كما فهمه المسلمون بعد ذلك، وعلى نحو ما تمسكوا به في عهود ضعفهم.

وإذن فالشيخ محمد عبده مجرد متفائل، يحاول الدفاع عن الإسلام، فيطبعه بطابع مثالي، كما يحاول أن يجعل له مكاناً في الحياة الحديثة، مع أنه ليس له مكان فيها.

وهكذا يصاب من المستشرقين كل من يكتب عن الإسلام، بعقيدة المؤمن به، أما في شخصه وطبعه كجمال الدين الأفغاني، أو في تفكيره ورأيه كالشيخ محمد عبده.

محمد عبد ... والسير أحمد خان:

يذكر المرحوم أحمد أمين في تعليقه وترجمته للسير (سيد أحمد خان) في الهند، أنه يشبه الشيخ (محمد عبده) في مصر، من حيث أن كلا منهما كان مصلحا دينياً، وقصد إلى الإصلاح عن طريق التربية، مؤثرا هذا الطريق على طريق الثورة والاحتكاك بالمستعمرين ــ وهو الطريق الذي سلكه جمال الدين الأفغاني ... يقول[1].

«ثم كلاهما كان يرى أن السلطان: في مصر وفي الهند، في يد الإنجليز، ولهم من القوة: المادية من الأسلحة والذخائر في البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية، ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته، قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم، بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم،

---

(1) كتاب زعماء الإصلاح ص 121.

وبحثهم عن منافعهم الشخصية، ولو على حساب الأمة: قالا: إذن، فالأولى مسالمة الإنجليز، والتفاهم معهم، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم».

والأستاذ أحمد أمين يشير بهذه (المسألة) للانجليز ـــ فيما يخص الشيخ محمد عبده ـــ إلى مهادنته للورد كرومر، ولكن مهادنة الشيخ محمد عبده لكرومر إنما كانت لحماية نفسه من اضطهاد الخديوي عباس الثاني إياه، كي يتمكن من إعلان رأيه في إصلاح الأزهر والدفاع عنه، وحتى يستمر في نشاطه الفقهي، وفي أحاديثه التوجيهية والعلمية في مجالسه ودروسه، كانت أيضاً لحماية أوقاف المسلمين الخيرية، التي أخذ هذا الخديوي الشاب في تصفيتها ـــ جشعا منه ـــ بسبب أو بأخر، ويضيفها إلى أملاكه الخاصة.

لقد كانت توجد في مصر سلطتان: سلطة الاحتلال وسلطة أخرى محلية وهي سلطة الخديوي، بينما كانت توجد في الهند سلطة واحدة: هي سلطة الاحتلال الإنجليزي، فهناك نوع من المفارقة بين الهند ومصر، وبالتالي بين موقف الشيخ محمد عبده وموقف السير سيد أحمد خان: فالممالأة للسلطة القائمة هناك كانت واضحة لتحقيق منفعة شخصية أو لتحقيق خدمات للاستعمار، أما التفاهم هنا في مصر مع ممثل السلطة المحتلة فكان للوقاية، وللحيولة دون استمرار تنفيذ الخطة الموضوعة لتصفية أوقاف المسلمين، وتوجيهها وجهة أخرى غير التي وقفت عليها من الخيرين.

ثم إن الشيخ محمد عبده له ماض طويل في الكفاح ضد الاستعمار، سواء وهو بمصر، أو حين كان في باريس، أو في بيروت، أو في شمال أفريقيا، مع أنه لم يعرف للسير (أحمد خان) موقف واحد ضد الاستعمار البريطاني، ولا ضد النفوذ البريطاني في صورة ما في الهند، حتى قبل نقل السلطة من شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى التاج البريطاني سنة 1857م.

ويضاف إلى ذلك، أن الشيخ محمد عبده لم يحاول في (إصلاحه الديني) ـــ كما حاول سير أحمد خان ـــ أن يوقف مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية كمبدأ الجهاد ولا أن يمالئ المسيحيين في الاعتراف بإنجيل من أناجيلهم الأربعة: (إنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وإنجيل مرقس) وهي جميعها تدخل في ما يعرف بـــ (العهد الجديد)- بل كتب كتابه المشهور في عضل الإسلام على المسيحية، وهو: (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) في حين كتب السير أحمد خان كتابه: (تبيان الكلام) يدافع فيه عن صحة المسيحية كرسالة من السماء بوضعها الموجود فيه في الأناجيل الأربعة بين المسحيين.. تلك الأناجيل التي كتبها بعض من الحواريين على حسب رواية كل منهم، وعلى حسب ما تصوره وأدركه شخصيا من تعاليم المسيح.

وقد عاد المرحوم الأستاذ أحمد أمين- بعدما ذكر من وجه الشبه بين السير أحمد خان والشيخ محمد عبده- إلى الحديث عن السير أحمد خان وموقفه من البريطانيين في الهند... فقال:

« ... عندما قام الهنود بحركة عنيفة في ثورتهم على الاستعمار البريطاني سنة 1857م، وهاج الرآى العام الانجليزي هياجا شديداً، كان السير أحمد خان متزنا، مخالفاً للرأي العام، ورأى أن هذه الثورة لا تأتي بنتيجة، وأن أخر أمرها عودة الانجليز إلى السيطرة ثانية، من غير فائدة ألا ضحايا الطرفين، وأن قتل الانجليز وخاصة المدنيين، عمل غير إنساني.. لذلك وضع خطة بذل فيها الجهد مع أصدقائه لحماية الانجليز من القتل، وانجاء من تصل إليه أيديهم منهم، فنجا على يده وأيدي أصدقائه كثير.

وضحى في ذلك بالكثير من ماله، واضطهاد أقاربه حتى لقد طعن بعضهم بالخنجر من الثائرين، وماتت أمه لهول الصدمة من وقع الحوادث الأليمة.

« فلما هدأت الثورة، عرف له الانجليز فضله، وحفظوا له جميله، وكافأوه مادياً وأدبيا.ومن ذلك الحين تأكدت الصلة بينه وبينهم فاستخدمها فيما وضع من خطة الإصلاح »[1].

والآن... ترى: أيعد هذا الصنيع من السير أحمد خان أمارة ولاء للإسلام وللوطن الإسلامي؟ أم هو أمارة على الولاء للمستعمر، وتمكينه من اغتصاب حقوق المسلمين؟.

ووجه الشبه الذي يربط به الأستاذ أحمد أمين بين السير (أحمد خان) والشيخ (محمد عبده)، على نحو ما ذكرنا، قد تأثر فيه بما يصور به المستشرقون حركة السير أحمد خان من أنها حركة إصلاحية، ليكون لها طابع الإصلاح الديني وبذلك تجد قبولاً لدى المسلمين، ومن ثم يسرى هدفها إلى نفوسهم، فالذي ينقل هنا عن موقف السير أحمد خان من الإنجليز هو تيئيس للمسلمين من مقاومة الاستعمار، فما أبعد هذا عن أن يكون غاية لإصلاح ديني إسلامي وسياسي وطني.

والمستشرق بلوم هارت Blum Hardt كتب مقالا في (دائرة المعارف الإسلامي) باللغة الإنجليزية، يحاول فيه أن يطبع حركة السير (أحمد خان) بطابع حركة الشيخ (محمد عبده)، وهو الطابع الإصلاحي، وبنفس الأسلوب الذي كتب

---

(1) زعماء الإصلاح الحديث: ص 122 - 124.

به المرحوم الأستاذ أحمد أمين موازنا بين الشيخ محمد عبده والسير أحمد خان فيما ذكر هنا [1].

والذي أميل إليه: هو أن المرحوم أحمد أمين، في هذا الموضوع، قد حسن ظنه بما يكتبه المستشرقون، على عادة كثير من الكتاب المسلمين في معالجتهم القضايا الإسلامية: فإنهم يقيمون تحت تأثير ما يكتبه المستشرقون في أحكامهم وأهدافهم، دون أن يحتاطوا في التبعية لهم، والتأثر بهم ... وفي كثير من الأحايين يرون ما يكتبه أولئكم جديرا بالاعتبار، لأنه في ظنهم قائم على منطق لا يرد؟.

محمد عبده .. ومحمد بن عبد الوهاب:

كما تتلمذ ابن عبد الوهاب على(كتابات) ابن تيمية، تتلمذ محمد عبده على (شخص) جمال الدين الأفغاني... ولكن مع فارق في التلمذة، وفارق آخر في نتيجة هذه التلمذة:

** (محمد بن عبد الوهاب): حفظ لابن تيمية وأكد ما حفظه، ولكن لم ينمه، و لم يمتحنه.. أبقى عليه كما هو، وأن ركز عنايته في بعض جوانبه دون البعض الأخر، على نحو ما يعرف له من تأكيده الجانب السلبي في تعاليم ابن تيمية دون الجانب الايجابي منه، كاستخدام الاجتهاد مثلاً، واستطاع أن يوفر على العناية بهذه التعاليم، سلطة وحكومة تهتم بها وبصيانتها- على الأقل من الوجهة الرسمية.

** أما (محمد عبده): فقد تلقي على جمال الدين الأفغاني، واستمع إليه، وشاركه الرأي، وعبر عما ينسب إليه من فكر. ومع ذلك لم يبق في حدود ما تركه جمال

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية (المختصرة): ص 25.

الدين، بل امتحنه ونماه، وخلق منه نظاما علمياً وعقليا متعدد الجوانب وان كان موحد المصدر وموحد الغاية.

اختبر محمد عبده ما خلفه جمال الدين، أو ما تركه في نفسه كتلميذ له.. فلم يرقه سبيل أثارة الحماس الشعبي، لأن هذا السبيل مؤقت في تأثيره، كما أنه غير مأمون العاقبة؟ ولذا حاد عنه رويدا رويدا، بعد أن شارك فيه أستاذه، وبعد أن استمر فيه أيضاً بعد أستاذه مشاركاً عرابي ورجاله في ثورتهم المشهورة التي انتهت بالاحتلال البريطاني سنة 1882م [1].

وبعد أن اختبر (محمد عبده) ما عرف لجمال الدين الأفغاني من أراء ومنهج رسم لنفسه طريقاً آخر يؤدي في نظره إلى ذات الغاية، مستعينا في الوصول إلى هذه الغاية بذات المبادئ التي عنى بها جمال الدين... ورسم لنفسه طريق (التربية): تربية الشعب، القادة والموجهين، وهو العلماء.

** تربية الشعب لفهم الحياة، والسير فيها، وإخضاع الحكم لإرادته ورأيه.

** وتربية القادة لتوجيه الشعب في قراه ومدنه، ولتوجيه البحث في أكاديمية البحث: وهى الأزهر.

والأساس المشترك في نوعى التربية عنده هو الإسلام؟

---

(1) هذا الاحتلال كان متوقعا من وقت لأخر بدون هذه الثورة. واقتران الاحتلال بهذه الثورة أمام الرآى العام العالمي، يشبه إلى حد كبير اقتران تمكين إسرائيل في الحرب اليهودية في 15 مايو سنة 1948 من معظم الأراضي الفلسطينية- بمشروع الهدنة الأولى في هذه الحرب... أن كلا من الأمرين كلن مناورة استعمارية، تلمست لها السياسة الغربية شبه مبرر لتنفيذها.

ولكنه ليس إسلام الفرق والمذاهب، ولا إسلام المقلدين، ولا إسلام المبتدعين ولا إسلام(السلبيين) من أرباب الطرق الصوفية.

أنما و إسلام القرآن الذي يحث على الإعداد الإنساني لهذه الحياة، وهو الأعداد القائم على الذاتية وعلى عدم إلغاء الشخصية الفردية...

ولهذا فإن (الاجتهاد) مطلوب للإسلام. أو هو نتيجة من نتائج الإسلام الصحيح.

والغاية الأخيرة التي يقصد إليها الشيخ محمد عبده: هي نهضة المسلمين، وصيانتهم لحقهم في أن يعيشوا متساوين مع غيرهم في الحياة، حريصين على أن لا يستذلوا لأحد أجنبي عنهم.

ويتميز (محمد عبده) أيضاً في علاقته بجمال الدين- عن محمد بن عبد الوهاب في صلته بابن تيمية: بان محمد عبده، فوق أنه اختبر الذي ألقي إليه من جمال الدين وما وجهه به، وأخرج نظاما علمياً يختلف في الصياغة وأن اتحد في الأساس والغاية... لم يبق في حدود(التربية) من الوجهة النظرية، بل ضرب الأمثلة وقدم النماذج.

** على مناهجه العلمية لتربية الشعب، في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية.

** وفي برامجه الإصلاحية للبحث: بين علماء الأزهر.

** وفي تأليفه الشعبي: كتفسيره جزء عم... وتأليفه الأكاديمي: كدروسه في تفسير القرآن الكريم بالرواق العباسي التي كان يؤمها قادة الشعب من الأقباط والمسلمين وكبار علماء الأزهر.

لقد مارس محمد عبده إذن الجانب العملي في تطبيق فكرتي: التربية، والاجتهاد...

بينما وقف محمد بن عبد الوهاب حارسا على تركة ابن تيمية، وأن كان قد أضاف إلى مجهود الحراسة مجهودا أخر: فإنما هو تأكيده الحرب ضد البدع، وفي إبراز التفرقة بين الشيعة المعتدلة من الإمامية والجماعة السنية.

هذا الاختيار الذي أجراه محمد عبده في تراث جمال الدين الأفغاني، والذي أدي به إلى أن يتخير وسيلة أخرى: هي وسيلة (التربية)، دفع بعض الكتاب إلى أن ينظروا إلى الشيخ محمد عبده- كما تقدم- على أنه تربوي، أو مصلح ديني، وليس لعملة صلة بالسياسة أو الحركات السياسية،، ودفع هؤلاء الكتاب بالتالي إلى أن يحكموا على نشاط محمد عبده بأنه في اتجاه يغير تماماً اتجاه جمال الدين الأفغاني...

ولكن إذا قصد بالسياسة: العمل على تخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار الغربي، أو قصد بها مقاومة الاستعمار ... فأن كلا من جمال الدين ومحمد عبده، هدفا إلى مقاومة الاستعمار الغربي، وتخليص البلاد الإسلامية من هذا الاستعمار. فالغاية لم تتخلف عند أحدهما.والأمس التي يجب أن تؤدي إلى ذات الغاية لم تتغير في نظر واحد منهما أيضاً.

كذلك حاول بعض الكتاب، أن يضع فراغا أخر بين جمال الدين ومحمد عبده وراء الوسيلة عند كل منهما، وهو: أن (جمال الدين) إسلامي عالمي يسعي إلى تكتل المسلمين جميعاً نحو حكومة واحدة أو في ظل اتحاد عام، بينما (محمد عبده) وطني مصري قصر نشاطه على وطنه مصر..

ولكن إذا روعي أن الأسس التي أقام عليها (محمد عبده) نظامه التربوي، والتي جعلها مقدمة لتخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار الغربي، أو لرد الاعتداء الغربي المسيحي على الشرق الإسلامي، هي نفس الأسس التي اتخذ منها (جمال الدين) دعامته في مقاومة الاستعمار الغربي وفي كفاحه السياسي، وهي: الرجوع إلى القرآن، وإلغاء التقليد، وأعمال الاجتهاد، ومحاربة البدع والسلبيات... إذا روعي هذا فإن هذه التفرقة بين الاثنين تغدو غير مفهومة، على النحو الذي قصد إلى إبرازه... إلا على اعتبار أن محمد عبده جعل مصر(حقل) تجاربه التربوية.

ثم أنه لم يثبت من جانب أخر أن « جمال الدين » حدد غايته الأخيرة تحديداً واضحاً بإقامة حكومة واحدة تخضع لسلطانها كل البلاد والشعوب الإسلامية، وإنما الذي ثبت في كتاباته في مجلة «العروة الوثقى» أن غايته: هي «الجامعة الإسلامية»: الوحدة الإسلامية.. وقد فهم المعنى الأخر لهذه الكلمة وهو: « الرابطة » أو الترابط... في حين أن كلمة وقد عبر جمال الدين هو نفسه تعبيرا واضحاً صريحاً بأنه لا يريد حكومة إسلامية واحدة، بل يريد تعاونا وترابطا أخويا إسلاميا.

على أن هناك شيئاً آخر يتميز به «محمد عبده» في علاقته بجمال الدين من جانب، عن « محمد بن عبد الوهاب » في صلته بابن تيمية من جانب أخر، وهو: أن جمال الدين ومحمد عبده واجها حلقة من حلقات الاعتداء الغربي المسيحي على الشرق الإسلامي، لم يواجهها ابن تيمية ولا تلميذه محمد بن عبد الوهاب من بعده.. وهي حلقة « الدراسات الإسلامية، التي يقوم بها المستشرقون الغربيون، لا لمصلحة الاستعمار الغربي فحسب، وإنما تنفيسا للعداوة التقليدية التي تخلفت عن الحروب الصليبية قبل كل شيء و لم يستطع بعض الدارسين من علماء المسحيين للتراث الإسلامي أن يخفقوا من حدثها على نفوسهم عند مباشرة هذه الدراسة باسم « العلم

» الذي مفهومه: الوسيلة المحايدة لخدمة الإنسانية، فضلاً عن أن يتخلصوا من هـذه العداوة تماماً.

وهكذا واجه جمال الدين (رينان)- المستشـرق الفرنسـي ومستشـار وزارة الخارجية الفرنسية في شئون شمالي أفريقية الإسلامية، وسمع منه رأيـه في الإسـلام والمسلمين... واضطر كل من: جمال الدين ومحمد عبده أن يشرحا بعـض تعـاليم الإسلام، التي اتخذ منها (رينان) (وهانوتو) مركز الهجوم على الإسلام، كما اضطرا أن يفرقا في غير ليس: بين الإسلام كدين مصدره القرآن والسنة الصحيحة.. وبـين عمل المسلمين وأفهامهم في القرآن والسنة في فترات متتابعة، كصورة تبعد وتقرب عن مصدري الإسلام، ولكنها على كل حال ليست مصدراً للإسـلام كـالقرآن والسنة.

يقول الشيخ محمد عبده في ذلك:

« عند النظر في أي دين، للحكم له أو عليه في قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض أهله، أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من ديـن آخر، فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعـض أصـوله، فيؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين، ومن تلقوه على بساطته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه »[1].

فالحكم إذن بالتفرقة بين «جمال الدين» و «محمد عبده»- فيما عدا الوسـيلة والطريق- يحتاج إلى قليل أو كثير من البحث والاختبار.

---

(1) كتاب الإسلام والنصرانية: ص22.

وربما يقال: أن الشيء الذي واجهه جمال الدين ومحمد عبده عن دراسات علماء الغرب للإسلام، كحلقة من حلقات الاعتداء على الإسلام، وكسبب من أسباب رد الفعل في استمرار الحركات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، متجهة هذا الاتجاه المناوىء للغرب المسيحي... قد واجه ابن تيمية من قبل في وقته، وكان سبباً في أن يؤلف كتابه: « الرد الصحيح على من وجهة نظره الإسلامية».

ولكن واقع الأمر، أن الذي كتبه ابن تيمية هذا ليس ردا على هجوم باسم الدراسات الإسلامية موجه للإسلام... وإنما هو تقدير للمسيحية في أناجيلها الأربعة من وجهة نظره الإسلامية.

وأخيراً...

أن كلا من محمد عبده وجمال الدين نادي بإحياء الكتب القديمة والأخص تلك التي تمثل « الأصالة، والإمامة في الرأي والفهم...

ترى هل كان حدبهما على إحياء هذه الكتب رد فعل لصنيع المدارس التبشيرية والإرساليات الثقافية الغربية المسيحية التي انتشرت في شاطئ الشام (لبنان) على البحر الأبيض المتوسط على أثر الحروب الصليبية. وفي مصر بعد حملة نابليون؟؟ وهي التي حاولت فيما بعد أن تجعل اللغة « العلمية » اللغة الأولى في الكتابة والحديث للبلاد العربية، وبذلك تحول هذه اللغة العامية- بعد انتشارها على مر الزمن- دون تلاوة القرآن وفهمه؟؟.. كما حاولت أيضاً أن تضع حداً فاصلاً بين التراث الماضي

للفكر الإسلامي والجماعة الإسلامية، عن طريق تمجيد الجديد لأنه جديد، والحط من قيمة القديم لأنه قديم؟؟.

وكما أن محمد عبده يتميز عن جمال الدين في التعاليم المشتركة بينهما على النحو السابق، يتميز عنه هنا في جانب إحياء التراث العربي الإسلامي القديم بنفس الطريقة التي تميز بها من قبل... فقد ضرب المثل العملي في هذا الجانب و لم يقف عند حد المطالبة بتحقيقه من الوجهة النظرية، بل أضاف إلى المطالبة بذلك أن أخرج عدة كتب قديمة، كما شرح عدداً أخر منها.

الفصل الثالث

حزب التحرير

1- نبذة عن تأسيس حزب التحرير:

نشأ حزب التحرير في الأردن [1] وأسسه الشيخ تقي الدين النبهاني، أحد خريجي جامعة الأزهر، ثم افتتح له فرع في لبنان في 1378/10/19هـ [2]. على أثر طلب تقدم به مجموعة من أعضائه [3] هناك إلى الحكومة اللبنانية.

2- أهداف الحزب وغاياته:

وغايات الحزب ملخصة في ما يلي:

أ- استئناف الحياة الإسلامية، وهذه الغاية تعنى إقامة الدولة الإسلامية في البلاد العربية [4] أولاً، ثم تستأنف هذه الدولة تطبيق الأحكام والتشريعات الإسلامية في المجتمع العربي، كنقطة انطلاق أولى إلى بقية البلاد الإسلامية لاستئناف الحياة الإسلامية فيها بعد أن تسيطر دولة الحزب على تلك البلاد.

ب- حمل الدعوة الإسلامية:

---

(1) انظر ص 84 من الدعوة الإسلامية للدكتور صادق أمين.

(2) انظر ص 3 من بيان الحزب لعام 1378 هـ.

(3) هؤلاء الأعضاء هم: علي فخر الدين، طلال الباط، مصطفى صالح، مصطفى النحاس، منصور حيدر.

(4) يقول الحزب في مفاهيمه ص 68 (وحزب التحرير يعتبر المجتمع الإسلامي كله مجتمعاً واحداً لأن قضيته واحدة ولكنه يجعل نقطة الابتداء بالدول العربية.

وهذه الغاية تعنى في مفهوم الحزب نقل الدعوة الإسلامية إلى غير الأمة الإسلامية بواسطة الدولة الإسلامية، والتي سبق أن قامت في البلاد الإسلامية، أي من مرحلة هذه الغاية لا تأتى إلا بعد أن يغطى الحزب كامل البلاد الإسلامية بدولته، ويستأنف الحياة الإسلامية فيها [1]

ج - إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة، وبحسب دستور [2] الحزب وهو الدستور الذي يتضمن مائة واثنتين وثمانين مادة.

تعرض الحزب في هذه المواد للأحكام العامة في سياسة دولته ثم نظام الحكم في الدولة حيث قسمه إلى:

1- رئيس.

2- معاونين.

3- ولاة.

4- قضاة.

5- الجهاز الإداري.

6- الجيش.

7- مجلس الشورى.

---

(1) انظر مفاهيم الحزب ص 73.

(2) انظر بيان الحزب لعام 1378 هـ ص 7.

ثم فصل في مهام تلك الأقسام وتوسع في نظام مجلس الشورى وأعضائه وأنهم من الرجال والنساء مسلمين وغير مسلمين، ثم فصل بعد ذلك النظام الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي...الخ.

ثم في السياسة الخارجية، وقد شرح الحزب هذا الدستور شرحاً موسعا [1]، مدللا على كل مادة من مواده من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

3- وسائل الحزب:

فأما وسائل الحزب إلى غاياته الآنفة الذكر، فقد جمعها في المادة الرابعة من نظامه ونصها: (طريق الحرب للوصول إلى هذه الغاية هي تسلم الحكم عن طريق الأمة [2])، ثم فصل في الوسائل الموصلة إلى جعل الأمة تساعده على تسلم الحكم، في المادتين السابعة والثامنة من نظام الحرب الأساسي نلخصها فيما يلي:

أ- عن طريق المجالس النيابية في الأمة، لبيان رأيه في كل ما يتعلق بالدولة والأمة من نافذة رسمية.

ب- نشر الأفكار التي يتبناها الحزب عن طريق الكتب والنشرات والمجلات والصحف والخطب والمناقشات وغير ذلك من وسائل الإعلام، لا يصال أفكار الحزب إلى الأمة.

ج- عقد الاجتماعات العامة، والخاصة لإعلان مبادئ الحزب.

---

(1) طبع بدون تاريخ وتقارب صفحاته 450 .

(2) بيان الحزب لعام 1378 ه ص8 .

د- تقديم المذكرات والكتب وما شاكلها إلى الجهات الرسمية وغيرها لتوضيح أفكار الحزب ومبادئه.

هـ- تأليف الوفود إلى جهات الأمة.

و- الاتصالات الخاصة والعامة بالسياسيين، والحكم وجميع من له علاقة بالحكم.

ز-الاتصالات الخاصة والعامة بكل فئات الأمة من تجار وصناع وزراع وعمال وأصحاب أملاك إلى غير ذلك من فئات الأمة [1].

وفي كتاب صدر أخيرة عن الحزب تحت عنوان نقد الدستور الإيراني بين فيه أن وسيلته إلى الحكم هي الجهاد.

4- مبادئ الحزب وأفكاره:

بعد أن أوجزنا في غايات الحزب ووسائله إليها تختصر أيضاً بعضاً من مبادئه وأفكاره، في الجوانب الحياتية المختلفة.

أ- في الجانب الاعتقادي:

يعتمد الحزب في هذا الجانب على ما أدركه العقل واستساغه الفكر يقول الحزب في كتابه الإيمان:

(وقد بنى الإسلام العقيدة على العقل فيما يدركه. أو عن طريق مصادر ثابتة بالعقل مثل القرآن والحديث المتواتر [2]).

---

(1) انظر بيان الحزب لعام 1378 ص9-10.

(2) كتاب الإيمان ص 68.

ويقول الدكتور صادق أمين نقلاً عن كتاب الحزب (الدوسية [1]).

(أن العقائد لا تؤخذ إلا عن يقين وأنه يحرم أخذ العقيدة بناء على دليل ظـــنى، وإن خبر الواحد ظنى [2]).

وفي نطاق رده على الحزب في هذه النقطة قال: (ولا يزال حزب التحرير يحرم على أعضائه الاعتقاد بعذاب القبر وظهور المسيح الـــدجال،لأن أحاديثهـــا ظنيـــة الدلالة[3].

ب. وفي الجانب العلمي للأحكام الإسلامية.

1- لا يرى الحزب القيام بأي أعمال من دعوة إلى صلاة أو صيام.

الأحكام الإسلامية لأن هذه الأحكام في نظره من خصوصيات الإسلامية بعـــد قيامها.

يقول الحزب في مفاهيمه:

(وأما الفرق بين الدعوة التي يحملها جماعة في أمة إسلامية وبين الـــدعوة الـــتي تحملها دولة إسلامية فهو أن الدعوة التي تحملها الدولة الإسلامية تتمثل فيها الناحية العملية، فهي تطبق الإسلام في الداخل تطبيقاً كاملاً).

---

(1) في كتابه الدعوة الإسلامية ص 113.

(2) كتاب الدرب هو كتاب الذي يلزم الحرب أعضاء بتبني ما فيه من أفكار ونشرها

(3) الدعوة الإسلامية لصادق أمين ص 118.

وأما الدعوة التي تحملها جماعة أو كتلة [1] فهي أعمال تتعلق بالفكر ولا تتعلق بالقيام بأعمال أخرى.

ويقول في موضع آخر: (عندما تعمل الأمة في مجموعها تحت قيادة كتلة الدعوة حتى يصلوا إلى الحكم فيوجدوا الدولة الإسلامية وحينئذ تتخذ تلك الدولة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة قدوة تسير بحسبها في تطبيق الإسلام.

(ولهذا كان لا شأن للكتلة الإسلامية بالنواحي العلمية وتعتبر القيام بأي عمل من الأعمال ملهيا ومحدرا ومعوقا للدعوة [2].

2- ويرى الحزب عدم التعرض للنهي عن الفحشاء والمنكر أو الأمر بالمعروف، لأن ذلك يخالف مرحلة ومهمة الكتلة مستدلاً بأن: رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في مكة إلى الإسلام وهي مملوءة بالفسق والفجور وكانت الأصنام على القول وعلى الناحية الفكرية).

ولهذا لا يجوز للكتلة أن تقوم بأي أعمال أخرى لأن عملها إقامة دولة لحمل دعوة [3] يرتكز الحزب بأفكاره هذه على فهم مغلوط لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[4] ... الآية.

---

(1) يعني بالكتلة حزب التحرير قبل وصوله إلى الحكم.

(2) انظر مفاهيم حزب التحرير من 62 : 65.

(3) انظر مفاهيم حزب التحرير من 75 - 77.

(4) سورة الحج آية 41.

جـ – الجانب الأخلاق والتعليمي:

لا يرى الحزب الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، أو فتح مجالات لرفع مستوى الأمة التعيم والعمي، بل حدد مهمته بقوله: (لذلك يجب أن تكون الكتلة التي تحمل الدعوة الإسلامية كتلة سياسية، ولا يجوز أن تكون كتلة روحية [1]، ولا كتلة أخلاقية، ولا كتلة علمية، ولا كتلة تعليمية، ولا شيئاً من ذلك ولا ما يشبهه، بل يجب أن تكون كتلة سياسية، ومن هنا كان حزب التحرير حزبا سياسياً يشتغل بالسياسة، ويعمل لتثقيف الأمة ثقافة إسلامية تبرز فيها الناحية السياسية [2].

وينتقد الحزب الجمعيات الإسلامية التي جعلت منهجها الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ويقرر أن الأمم لا تنهض بالأخلاق، وإنما تكون بالعقائد التي تعتنقها، وبالأفكار التي تحملها، وبالأنظمة التي تطبقها [3].

د– الجانب الفقهي:

أما في الجانب الفقهي فإن للحزب كتاباً موسعا، فيما يقترب الألف صفحة مطبوعا في ثلاثة أجزاء، تعرض في هذا الكتاب إلى أبواب فقهية كثيرة، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بالخلافة وأحوالها والجهاد وأبوابه، وسياسة الدولة الإسلامية الخارجية، ثم مسائل متفرقة مثل الموالاة للكفار، والهجرة، والرق، وبيع الثمار على

---

(1) مفهوم الروحية عند الحزب هي عبارة عن إدراك عقلي عند الإنسان لصلته بالرب تعالى شأنه ولا شيء غيره انظر كتاب الإيمان ص 18 ومفاهيم الحزب من ص 13 : 19.

(2) مفاهيم حزب التحرير ص 76.

(3) انظر التكتل الحزبي لتقي الدين النبهاني مؤسس الحزب ص 18.

أصولها، والإجارة، والرهن، والحوالة، وقد أخذ الدكتور صادق أمين بعض المسائل على الحزب في هذا الجانب، ألخص منها ما يلي [1].

1- أخذ على الحزب تجويزه تقبيل المرأة الأجنبية عند مصافحتها.

2- وأخذ عليه إباحته بالصور العارية.

3- وأخذ عليه قوله بسقوط الصلاة عن رجل الفضاء المسلم.

4- وأخذ عليه حكمه بالسجن عشر سنوات على من زنا بإحدى محارمه المؤيدة (مثل الأخت والأم) أ هـ.

هـ - في الجانب السياسي.

أما في الجانب السياسي، فله وجهات نظر كثيرة حلول أكثر المسائل السياسية المعاصرة، ضمنها عدة كتب ونشرات صدرت عنه، اطلعت على بعضها وهي:

1- نظرات سياسية لحزب التحرير.

2- مفاهيم حزب التحرير.

3- الفكر الإسلامي.

وهي لا تخرج عن كونها تحليلات سياسية مبنية على التخمين في غالب الأحوال، وله دستوره [2] الذي ضمنه سياسة دولته المستقبلة، وهو في مائة واثنين وثمانين مادة كما أشرنا إلى ذلك ومن أبرزها يؤخذ على الحزب في دستوره:

---

(1) انظر كتاب الدعوة الإسلامية للدكتور صادق أمين ص 104 : 105.

(2) راجع صفحة (302) من نفس البحث.

1- كون الحزب يجعل من الأمة أحزابا وفرقا متعددة في داخل الدولة الإسلامية كما تنص على ذلك المادة (19) من دستور الحزب: (للمسلمين الحق إقامة أحزاب سياسية لمحاسبة الحكام، أو للوصول إلى الحكم عن طريق الأمة).

2- كون الحاكم في نظره صاحب حق سن الدستور والقوانين، تقول الفقرة (و) في المادة (120) من الدستور: (لرئيس الدولة وحده حق تبني الحكام الشرعية فهو الذي يسن الدستور وسائر القوانين).

3- كونه يعطى الحق لغير المسلمين في الأمة الإسلامية في عضوية مجلس الشورى كما تنص على ذلك المادة (22) من الدستور: (ويجوز لغير المسلمين أن يكونوا في مجلس الشورى من أجل الشكوى من ظلم الحكام).

4- كون الحزب يعطى للمرأة حق العضوية في مجلس الشورى كما قررت ذلك المادة (24) من الدستور المذكور: (لكل من يحمل التبعية إذا كان بالغاً عاقلاً في أن يكون عضوا في مجلس الشورى رجلاً كان أو امرأة) [1].

ولأهمية هذه النقاط تنبه إلى الصواب فيها إن شاء الله تعالى:

أولاً: تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية:

أ- عندما تقوم الدولة الإسلامية تصبح الأمة الإسلامية قاطبة حزبا واحداً ووجدا واحداً، ويجب على كل فرد في هذه الأمة أن يعطى ولاءه لهذه الدولة لأنها هي الكيان الوحيد للأمة، ولكل فرد أو جماعة لا يدين لهذه الدولة بالولاء فإنه يعتبر

---

(1) انظر بيان الحزب لعام 1378هـ من ص 16- 18، وكذا كتاب طريق الإيمان ص 83-84.

ببدهيات الدين خارجاً على الدولة الإسلامية، وشاقا لعصا الطاعة فيها، كما قال صلى الله عليه وسلم «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية »[1].

ب- وتعدد الأحزاب في الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية تعني تعدد الولاءات فيها وهذا ممنوع شرعاً، فقد قال تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ....﴾[2] الآية.

قال الطبري: (بعضهم أنصار بعض) [3] فإذا كان كذلك فكيف تجتمع نصرتين، نصرة الحزب، ونصرة الدولة، وعندما يختلف الاثنان ـــ الدولة والحزب؟؟

جـــ- ولا حزب إلا بقيادة ولا قيادة إلا ببيعة وطاعة، وفي الإسلام لا قيادة ولا بيعة إلا لقيادة واحدة وهذه القيادة هي الخلافة ولا طاعة إلا لجهة واحدة هي الدولة.

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾[4]

وقال صلى الله عليه وسلم «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما».. الحديث[1].

---

(1) أخرجه البخاري 9/ 59، مسلم 3/ 1477، وأحمد في مسنده 1/ 70، والدارمي 2/ 241.

(2) الآية 71 من سورة التوبة.

(3) تفسير الطبري بتحقيق أحمد شاكر 14/ 347.

(4) سورة النساء آية 59.

د- وتعدد الأحزاب في الأمة يعني فتح باب التنازع والاختلاف في تلك الأمة وهذا ما نهى الإسلام عنه وحذر منه، قال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

ثانيًا: مهمة الحاكم في الإسلام:

أ- إن مهمة الحاكم في الدولة الإسلامية باختصار تنفيذ ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أن جميع ما تحتاجه البشرية من أحكام موجود في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مفصلة ومبينة، قال تعالى:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[1].

---

(1) تقدم تخرجه في صفحة ( ).

(2) آل عمران آية 103- 105.

(3) الأنفال آية 46.

وقال سبحانه:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ب- وكل ما جد على الأمة من جديد في أثناء حركتها على إمتداد الزمن يرده المجتهدون إلى الأصول المقعدة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يربطونه بها فروعها لتلك الأصول موحدين بين عللها وأحكامها.

جـ- وليس للحاكم أن يسن أو يقنن من عند نفسه في هذا الدين الحنيف أنه كامل من عند الله تعالى الذي أحاط بكل حركة وسكنة يمكن أن تحدث على هذه الأرض ماضيا أو حاضراً أو مستقبلاً.

قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3].

ثالثًا: مجلس الشورى:

أ- مجلس الشورى في الأمة الإسلامية هو المجلس الذي يضم في عضويته عدول الأمة من أهل الحل والعقد أهل العلم والمعرفة، كما عبر عنهم البخاري رحمه الله في

---

(1) الإسراء آية 12.

(2) النحل آية 89.

(3) المائدة آية: 3.

صحيحه (وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم) يستشيرون الأمناء من أهل العلم) (وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولا كانوا أو شبانا) [1].

ب- مجلس الشورى في الأمة هو الذي إذا اجتمعت كلمته على أمر تعتبر معصومة، هذا المجلس الذي يعتبر قمة الأمة وصدرها، لا يحق لكافر أن يدخله أو يجوس خلاله، لأنه لا يعتبر من الأمة التي لا تجتمع على ضلالة، ومجلس الشورى هو الذي يمثل هذا الاجتماع، قال عليه الصلاة والسلام إن أمتي لا تجتمع على ضلالة[2].

جـ- إن مجلس الشورى من أركان الحكم، كما يقرر ذلك الحزب نفسه وإذا كان كذلك فلا يصح أن يتقدم إلى عضويته كافر، حتى لا يحكم كافر مسلماً.

د- إن مجلس الشورى تبحث فيه أهم قرارات الحكومة الإسلامية، فكيف يصح أن تعطي أسرار هذا المجلس لكافر لأنه عضو فيه، حاضر لكل جلساته، ومستمع لكل مناقشاته؟؟

هـ- كيف نسمح لمن قال الله تعالى فيهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[3] الآية.

وقال تعالى:

---

(1) أخرجه البخاري 9/ 138، وهو في الفتح 13/ 339.

(2) انظر تخرجه ص 95 من البحث نفسه.

(3) آل عمران آية 118.

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1] الآية.

أن يكونوا أعضاء في مجلس الشورى.

وـــ إذا كانت العلة الشكوى أو محاولة إصلاح الحاكم، كما علل ذلك دستور الحزب فهناك مجالات واسعة وكثيرة.

منها وسائل الإعلام، ومنها الرسائل الخاصة، ومنها تقديم طالب بالشكوى إلى الدولة مباشرة ومنها اللقاءات المباشرة، إلى غير ذلك من المجالات إذا وضح ذلـــك، فلا يصح أبداً أن نفتح مجلس الشورى وهو رأس الأمة الإسلامية للكافرين ليكونـــوا أعضاء فيه.

رابعًا: من أبرز مهام الرجل والمرأة:

أ. وضح الإسلام كل الوضوح مهمة الرجل والمرأة في هذه الحياة كل بحســـب بنيته وقدراته.

ومن أبرز مهام الرجل أنه صاحب القوامة، قال تعالى:

﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ...**﴾[2] الآية.

فإذا جعلنا المرأة عضواً في مجلس الشورى كان الأمر معكوسا تماماً.

ب ـــ ومجلس الشورى من أبرز صفات أعضائه رجاحة العقل وعمق الفكـــر والمرأة لا تعانقه في ذلك، أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنـــه-

---

(1) آل عمران آية 120.

(2) سورة النساء آية 34.

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت من ناقصات عقل أذهب للب الرجل الحازم من إحدكن... قلن وما نفصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟ قلن بلا قال: فذلك من نفصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلي؟ قلن بلا، قال: ذلك من نقصان دينها..... »[1] الحديث.

د- ومجلس الشورى يعتبر قمة الحكم حيث هو الذي يقر أو لا يقر خطط الحاكم ووسائل التنفيذ، فكيف نجعل المرأة عضواً فيه وقد ذم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما في حديث أبي بكر، لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسري قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » [2].

هـ إن من أبرز صفات المرأة أنها ربة بيت وحاضنة الأجيال في ذلك البيت فلا يصح أبداً أن تخرجها من ذلك البيت إلى غيره لأن خروجها فقط فساد عظيم، فكيف إذا كان خروجاً واختلاطا؟

5- تقويم حزب التحرير:

بعد بيان غاية الحزب ووسيلته وسرد بعض أفكار الحزب المعلنة ومحاولة تنفيذ بعضها مما له علاقة بصلب موضوع الرسالة، مثل الشورى ومهمة الحاكم في الإسلام.

أشرع في تقويم الحزب بإيجاز:ـ

---

(1) أخرجه البخاري 1/ 83، ومسلم 1/ 87، وأبو داود 4/ 219- 220، والترمذي د/10، وابن ماجه 2/ 1326، وأحمد في مسنده 2/ 67.

(2) أخرجه البخاري 9/ 70، والترمذي 4/ 537، والنسائي 8 227.

أولاً: تقويم الحزب من حيث الغاية والوسيلة:-

1- يتفق الحزب مع جماعة أنصار السنة المحمدية، وجماعة التبليغ من حيث الوسائل في الاقتصار على بعض غايات الإسلام، وتوجيهاته، وترك البعض الآخر؟؟

ويزيد الحزب على الجماعتين المذكورتين:ـــ

أ ـــ بالمحدودية في ذات الغاية.

ب ـــ وبقلب ترتيب وسائل الرسول صلى الله عليه وسلم للوصول إلى الحكم أما المحدودية فقد دخلت على غاية الحزب [1] لأن تلك الغاية خاصة بالبلاد العربية والإسلام جاء إلى سكان الكرة الأرضية كلها.

أما قلب الحزب لترتيب وسائل الرسول صلى الله عليه وسلم للوصول إلى الحكم كون وسيلته المباشرة لغايته الجهاد أو تسلم الحكم عن طريق الأمة بنوعيتها سياسياً[2].

بينما ترتيب وسائل الرسول صلى الله عليه وسلم للوصول إلى الحكم كما فصلت ذلك في مكانه [3].

1- إخبار الناس بتعاليم الإسلام.

2- تكوين المستجيبين لدعوته على تعاليم الإسلام وتوجيهاته.

---

(1) انظر صفحة (302) من هذه الرسالة للإطلاع على غاية الحزب من مصادره.

(2) انظر صفحة (304) من هذه الرسالة للإطلاع على وسيلة الحزب من مصادره.

(3) هامش رقم (3) من الصفحة الأولى ـــ انظر المعلم الأول من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص 153 ومعلم التكوين أيضاً ومعلم المواجهة أيضاً ص 174 من هذه الرسالة.

3- المرحلة الأخيرة هي المواجهة المسلحة لمن لم يستجب لدعوتها ووقف في طريقها وعرقل سيرها.

فالأخيرة في وسائل الرسول صلى الله عليه وسلم (الجهاد) للوصول إلى الحكم الإسلامي هي الأولى بل والوحيدة عند حزب التحرير، بل أعرض عليه الصلاة والسلام عن عرض قريش له تسلم الحكم فيها عندما كان في المرحلتين الأوليين لأنه مرحلة سابقة لأوانها.

وإن تعجب فعجب لمجاهد في سبيل شيء لا يعلمه و لم يتكون عليه.

ثانياً ــ تقويم الحزب من حيث الفكر :ــ

الانحراف الفكري عند الحزب والذي سردت جانباً منه نتيجة لانحرافه عن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته.

فيما أن الحزب ليس لديه (مرحلة تكوين) وهي المرحلة التي مكث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقارب الثلاثة عشر سنة من مكة ثم باقي عمره في المدينة المنورة عدم وجود هذه المرحلة في خطة الحزب نتج عنه تلك الأفكار الشاذة عن الإسلام بل عن السنن الكونية والطبائع البشرية.

أ ــ فكون الحزب كتلة سياسية لا أخلاقية شذوذ عن صحيح تعاليم الإسلام.

ب ــ وكون الحزب كتلة سياسية لا عبادية ولا عملية خروج عن صحيح تعاليم الإسلام بل خروج عن ملته.

ج ــ وكون الحزب لا يعتقد إلا بما ثبت في عقول رجاله أمر فيه محق لأكثر أحكام الإسلام.

د ــ كون الحزب يبتعد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفة بأعظم صفة أخذت على بني إسرائيل.

هذه الأمور وغيرها مما سردته في فقرة أفكار الحزب [1] كانت نتيجة، لعدم وجود مرحلة تكوين عند ذلك الحزب، وهي أمور خطيرة يجب على قيادة الحزب تلافيها وتصحيحها ليتفق منهج الحزب مع الإسلام، وليصبح بعد ذلك إسلامياً بحق والله تعالى الهادي.

(1) انظر أفكار الحزب وسادته بصفحة 305 من هذه الرسالة.

الفصل الرابع

جماعة التبليغ

1- نبذة عن تأسيسها ومؤسسها:

تأسست جماعة التبليغ في القارة الهندية بمديرية سهارنفور بعد أن انكشف لمؤسسها طريقة التبليغ التي تتبعها في دعوتها، ومما ألقى في روعه في المنام [1] من تفسير قوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

إن معنى أخرجت عنده أي تخرج للسياحة وتبليغ الناس الدعوة الإسلامية، فمن يومها كانت جماعة التبليغ، وكانت تلك الرؤيا الملقاة في روع مؤسسها خطتها في الدعوة إلى الله تعالى:

فهو محمد إلياس بن الشيخ محمد إسماعيل، الحنفي [2]، الديوبني [3]، الجشتي [4]، الكاندهلوي [5]، ولد رحمه الله تعالى عام 1303 هـ وتوفي عام 1360هـ وكان

---

(1) على حد تعبير محمد أسلم نقلاً عن كتاب ملفوظات محمد إلياس.

(2) الحنفي نسبة إلى المذهب الحنفي في الفقه.

(3) الديوندي نسبة إلى المدرسة الديوبنديه الحنفية بديوبند بالهند.

(4) الجشتي نسبة إلى الطريقة الجشتية.

(5) نسبة إلى بلده.

من أسرة متوغلة في الطريقة الجشتية [1] والصوفية وهي الطريقة المنتشرة في القرى الهندية، وكان والده على سعة في المال والعلم، درس محمد الكتب الابتدائية [2] وحفظ القرآن في قريته، ثم رحل إلى مدرسة ديوبند [3]البيعة [4] من شيخ الطريقة شيخ رشيد أحمد الكنكوهي.

2- بعض أفكار الجماعة ومبادئها:

أ ـــ القول بوجوب التقليد [5] وفرضيته، لأن شروط الاجتهاد التي شرطها السلف مفقودة في العلماء اليوم.

ب ـــ تعتقد الجماعة أن التصوف هو الطريق لإيجاد التعلق بالله وحلاوة الإيمان، وهو المقياس الذي تقيس به الجماعة مدى إلتزام العضو فيها، وهو الفارق بين الجماعة والجماعة [6] أبي الأعلى المودودي من حيث المذهب والسلوك.

ومن لم يفهم هذا الفارق بين الجماعتين فهو مخادع وواقع في الخداع [7].

---

(1) راجع رسالة محمد أسلم ص 13 وهو أخذ قادة الجيش الباكستاني الذين توجهوا لطلب العلم الديني فحضر إلى الجامعة الإسلامية وقبل لكلية الشريعة فيها ثم تخرج منها عام 98- 1399هـ.

(2) هي كما تقدم المدرسة التي تدرس المدرس الحنفي بالهند.

(3) كما هو مبين في رقم (1)

(4) راجع رسالة محمد أسلم ص 13.

(5) ملخص من ص 7 (رسالة محمد أسلم).

(6) هي الجماعة الإسلامية التي تتزعم الدعوة الإسلامية بحق في القارة الهندية والتي أشرنا إلى شيء شيء عنها في ص 410 من نفس البحث.

(7) رسالة محمد أسلم عن الجماعة ص 13.

ج ـــ لا ترى الجماعة النهي عن المنكر بحال من الأحوال، معللـــين ذلـــك أن المرحلة عندهم هي إيجاد الجو الصالح فيمن استجاب بالدخول في جماعتهم، والأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر من المعرقلات لهذه المرحلة.

د ـــ لا يرون الخروج عن الأصول السنة [1] التي حددها لهـــم محمـــد إليـــاس ويعتبرون الخروج عليها خروجاً على خطة الجماعة.

هـــ ـــ يمنون أفرادهم من التوسع في العلم والإطلاع على الفلسفات السائدة في المجتمع من حولهم.

وـــ يفرقون بين الدين والسياسة، فلا يحق لأحد مـــن أفـــرادهم البحـــث في السياسة، أو الخوض في أي أمر يتعلق بالحكم، وعليه فإنهم غير مشتركين في جبهـــة المعارضة الباكستانية [2].

ز- لا يرون أن يدعو الفرد منهم في نفس البلد التي هو منها بل على أهل المدينة الفلانية أن يدعو أهل المدينة الفلانية الأخرى والعكس. معللين ذلك بما يلي:

1-بأن الله تعالى: يقول:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أي إلى خارج بلادها.

---

(1)سيأتي تفصيلها بعد قليل.

(2) التحالف الذي ضم الجماعات الإسلامية في البكاستان لإسقاط على رئيس الحرب الإشتراكي من الحكم في الجمهورية الإسلامية الباكستانية.

2-ولأن الإنسان في بلاده معروف بقصوره غالباً فلا يستجاب له فإذا كان يدعو أنفساً يجهلون عيوبه سيستجيبون له. [1]

جـ- لهم مواقف معادية لأصحاب الدعوات الإسلامية لحفة مثل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنجد والشيخ أبو الأعلى المودودي بباكستان والأستاذ سيد قطب بمصر، وإليك بعض النقول التي تؤيد ذلك.. وأنا عندما أنقل هذه القوال لا أقصد بها عيباً في الجماعة كجماعة لأن ذلك خلاف مقياسي فأنا لا أحكم على الجماعات من خلال تصرفات أفرادها، حتى ولو كان هؤلاء الأفراد يمثلون قيادات في تلك الجماعة كما سأذكر، ولكني أثبت هذه الأقوال كعيب في نفس الأفراد وإن هذا العيب يجب أن لا يكون، لنفس السبب الذي سنناقش بموجبه قول الدكتور الهلالي في أهداف جماعة التبليغ، وذلك السبب هو أن الأمة الإسلامية تعاني من فرقة قاتلة، فيجيب على علماء المسلمين أن لا يزيدوا هذه الفرقة بتتبع العيوب ونشرها، وان عليهم أن يتناصحوا فيما بينهم، وان لا يعلنوا هذه العيوب، حتى لا تتحول إلى تشهير، وجهر بالسوء من القول، والله تعالى لا يحب ذلك، وإليك بعض هذه الأقوال وهي لكبار قادة الجماعة وعلمائها:

1- نقل محمد أسلم عن الشيخ حسين أحمد الحنفي أحد كبار جماعة التبليغ قوله: عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (اعلموا أن محمد بن عبد الوهاب ظهر أمره في أوائل القرن الثالث عشر في نجد، وكانت له عقائد فاسدة ونظريات باطلة).

---

(1) هذه الأفكار أنقلها مشافهة من فضيلة الشيخ عبد الغفار حسن الدرس حالياً بالجامعة الإسلامية وهو من كبار علماء الهند والباكستان وقد عرضت عليه هذه الأفكار بعد كتابتها وأقرها.

وقال: (وكان يستحل نهب أموال أهل السنة وقتلهم، وكان يظن أن في قتلهم ثوابا، وعلى الأخص من ذلك أهل الحجاز، فإنه آذاهم أشد الإيذاء، وكان يسب السلف الصالح ويأتي في شأنهم بغاية سوء الأدب)، (والحاصل أنه ظالم باغ سفاك فاسق، ولذلك أبغضه العرب أشد من اليهود والنصارى) [1] أ هـ.

2- ونقل عن الشيخ محمد يوسف البنوري وهو أيضاً من كبار قيادات الجماعة قوله: في الأستاذ أبي الأعلى المودودي: (أنادي على رؤوس الأشهاد أن الرجل «أبا لاأعلى المودودي » زائغ ضال مضل، في كتبه ورسائله الطامات) [2].

وعن سيد قطب يقول: (إن الرجل جمع بين الشيعية والشيوعية في وقت واحد)[3].

3- ونقل قولاً عن الشيخ غلام غوث الهزاووي: وهو من علماء الجماعة أيضاً قوله: في الأستاذ سيد قطب: (انه يكفي جمال عبد الناصر لدخوله الجنة أنه صلب السيد قطب الباغي الضال) [4].

إن مثل هذه الأقوال ما كان ينبغي أن تقال في عامة المسلمين فكيف تقال في علماء المسلمين وصفوة الأمة؟ إن على أصحاب هذه الأقوال أن يعلنوا رجوعهم

---

(1) راجع رسالة محمد أسلم ص 7.

(2) نفس المراجع السابق ص 30.

(3) نفس المراجع السابق ص 31.

(4) نفس المراجع السابق ص 32.

على رؤوس الأشهاد لإسقاط ما اتهموهم به من أذهان العامة وأن يستغفروا الأحياء منهم الله تعالى.

3- مبادئ جماعة التبليغ الرئيسية:

وأما عن مبادئ الجماعة الرئيسية فقد لخصها الأستاذ محمد أسلم في سنة بنود[1].

1- الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

2- إقامة الصلوات.

3- العلم والذكر.

4- إكرام كل مسلم.

5- الإخلاص.

6- النفر في سبيل الله.

وتناول الدكتور تقي الدين الهلالي، هذه المبادئ بالتبيين [2] والتفسير من وجهة نظره، وذلك في كتابه (السراج المنير) [3]، مبينا أن (لا إله إلا الله) لا تنفع إلا من قالها بلسانه وعرف معناها، واعتقد ذلك المعنى بقلبه وعلمت جوارحه بكل ما تقتضيه هذه الكلمة.

---

(1) راجع رسالة محمد أسلم عن جماعة التبليغ عقيدة ومكرا ص 5.

(2) السراج المنير للدكتور الهلالي ص 12 بتصرف.

(3) مؤلف في شبه جماعة التشيع على أخطائهم.

واستشهد على ذلك بقصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما حارب وقاتل بني حنيفة قتال الكفار، وهم يقولون هذه الكلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ويصومون ويصلون، لأنهم امتنعوا عن أداء الزكاة فقط، فاعتبر أبو بكر رضي الله عنه هذه الفعل منهم خروجاً عن مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ثم عدد الهلالي كثيرًا من مقتضيات هذه الكلمة مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والموالاة في الله سبحانه والمعاداة فيه إلى آخر ما ذكر.. وخرج من هذا السرد في بيان معنى المبدأ الأول للجماعة التبليغ أنعمل الجماعة مخالف لمقتضيات هذا المبدأ[1].

ثم دخل في شرح المبدأ الثاني وهو إقامة الصلاة، معترضا على محمد أسلم بأنه أخطأ في التعبير عن هذه القاعدة (بإقامة الصلوات)، معللا اعتراضه بأن جماعة التبليغ تأمر بالصلاة لا بإقامتها، حيث أن الصلاة المخالفة لصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تعتبر مقامة.

ووجه مخالفة صلاة جماعة التبليغ لصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عنده كونهم لا يقرءون فيها بفاتحة الكتاب، ونقل عنهم أنه يمكن للمصلي أن يقرأ بدلاً من فاتحة الكتاب كلمة (دوسبز) وهي ترجمة لقوله تعالى (مدهامتان) بالفارسية.

ثم رد الدكتور المبدأ الثالث لجماعة التبليغ وهو (العلم والذكر) بأنهما مبهمان حيث العلم علمان نافع وغير نافع، وجعل علم جماعة التبليغ من العلم غير النافع، ورد صورة الذكر عند جماعة التبليغ بقصة ابن مسعود مع القوم الذين جلسوا بمسجد

---

(1) راجع السراج المنير للهلالي 12 - 13.

الكوفة يذكرون الله بالحصى [1].وبعد أن رد الدكتور المبادئ الثلاثة الأولى لجماعة التبليغ رد الثلاثة الأخيرة.

فجعل إكرام كل مسلم وهو المبدأ الرابع عند الجماعة، بأنه خاص بمن وافقهم على بدعتهم على حد تعبيره.

وكذا رد المبدأ الخامس وهو الإخلاص بجعله خاصاً بمن آمن ببدعتهم و لم يورد على دعواه تلك دليل من عمل الجماعة.

وأما المبدأ السادس للجماعة، وهو النفور في سبيل الله تعالى للسياحة

فقد جعله الهلالي من مبادئ (البراهمية [2] والبوذية [1]) إن الدين الإسلامي قد أبدل هذه السياحة بالجهاد [2].

---

(1) والقصة كما سردها لاهلالي هي روى ابن وضاح في كتاب المبدع بسند صحيح إلى عبد الله بن مسعود أنه سمع أن قوماً يجلسون في مسجد الكوفة فيقول أحدهم: سبحوا مائة فيسبحون، وبين أيديهم الحصى يعدون به التسبيح، ثم يقول: هللوا مائة فيهللون، ثم يقول: كبروا مائة فيكبرون، فليس البرنس ـــ وهو كلسوة طويلة تغطي الرأس وتبلع إلى الذراعين، وذهب حتى جلس بينهم ورأى ذلك بعينه فرفع البرنس عن رأسه حتى عرفوه فقال أنا أبو عبد الرحمن هؤلاء والله فقتم أصحاب محمد علماً أو جئتم ببدعة ظلماً فقال أحدهم: يا أبا عبد الرحمن نحن ما فقنا أصحاب محمد علماً ولا جئنا ببدعة ظلماً، وإنما نحن قوم نذكر ربنا، فقال ابن مسعود: بل والذي نفس ابن مسعود بيده، لقد قلتم أصحاب محمد علماً، أو جئتم ببدعة ظلماً، ويحكم أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هذه أوانيه لم تكسر، وثيابه لم تبل، وقد أحدثتم ما أحدثتم في دينه، وأمر بهم فطردوا من المسجد. فخرجوا إلى ظاهر الكوفة فبنوا مسجداً، وأخذوا يفعلون فيه ما كانوا يفعلونه في مسجد الكوفة، فأمر به عبد الله بن مسعود فهدم أ هـ. أنظر السراج المنير ص 37 للدكتور تقي الدين الهلالي والقصة مذكورة في سنن الدارمي 1/ 68 مع اختلاف في اللفظ.

(2) البراهمة: نسبة إلى الديانة السائدة في الهند (عن كتاب الأديان لشيبة الحمد ص 58- 70).

وهو تحامل واضح من الشيخ، ما كان ينبغي له ذلك خاصة والأمة الإسلامية تعيش فرقة قاتلة، باعدت بين شعوبها وأوطانها، بل وبين أسرها وأفرادها، والذي ينبغي سد الثغرات و لم الشمل بأفضل الطرق لا بالتشهير، وتضخم العيوب وغمط الحقوق.

والجماعة على ما فيها من محدودية في أهدافها ووسائلها سنحددها في تقويمنا للجماعة ــ إلا أنها جماعة ناجحة في أسلوبها في تبليغ جانب من الدعوة الإسلامية.

وقد شهد بذلك محمد أسلم وهو يعتبر رمن أهل الجماعة وأهل مكة أدرى بشعابها وهو المصدر الوحيد للدكتور عن الجماعة [3].

وخلاصة شهادته:

أن الدعوة الإسلامية في أقطار العالم الإسلامي تقوم عليها جماعات عديدة من أنشطها جماعة التبليغ التي تواصل ليلها بنهارها في شئون الدعوة، وقد بلغ أمرها إلى حد شهد به أكثر الناس في المعمورة، وأن رجالها قد لعبوا دوراً هاماً في تحقيق أهداف هذه الجماعة، فهي حركة عظيمة قوية منتشرة في العالم كله، وهي كما قال:والسر في نجاح هذه الحركة هو إخلاص رجالها وتفانيهم في أمر الدعوة ومصابرتهم وجهادهم في التبليغ.

---

(1) البوذية: نسبة إلى بوذا وهي ديانة سائدة في الهند وجزر الأرخبيل (نفس المرجع السابق ص 70- 75).

(2) من كتاب السراج المنير في تنبيه جماعة التبليغ على أخطائهم باختصار ص 12- 28.

(3) انظر رسالة محمد أسلم لنيل الشهادة العالمية من 1- 2.

وواصل محمد أسلم شهادته لهذه الجماعة بقوله (إنه لا بد من الإشارة إلى أمر مهم لا ينكره أحد، ألا وهو أن هذه الجماعة قد أصبح لها دور بارز في إصلاح الناس، فكثير من الناس قد تابوا من فسقهم وفجورهم، ورجعوا إلى الخير بجهود هذه الجماعة، وهم الآن من دعاة هذه الجماعة يواصلون ليلهم بنهارهم لإنقاذ البشرية من الضلالة والغواية، ويرشدونهم إلى النور والهداية، ويواصل القائد بالباكستاني محمد أسلم تفريطه للجماعة بأنها الجماعة الوحيدة التي استطاعت تغطية بلاد العالم بالدعوة حتى البلاد الشيوعية وإسرائيل، وهي الجماعة التي أعادت الحياة إلى المساجد التي أغلقت أبوابها من عصور بعيدة فأقامت فيها الصلاة، وجعلت منها مكاناً يذكر فيه اسم الله تعالى ويتلى فيه كتابه، بعد أن هجرت تلك المساجد.

ورغبت أهل تلك البلاد في بناء المساجد، وختم محمد أسلم قوله هذه ولا تكفي هذه العجالة لذكر حسنات هذه الجماعة فإن ذلك يحتاج إلى كتاب مستقل.

وأنقل شهادة إلى جانب شهادة محمد أسلم، وهي لأحد رجالات [1] الهند أيضاً تأخذ الأولوية أيضاً على شهادة الدكتور الهلالي عند علماء الجرح والتعديل، لأنها من أحد رجالات البلدة التي تأسست فيها تلك الجماعة ومنها خرجت إلى العالم كله.

هذه الشهادة تثبت للجماعة قدم نجاحها وانتشارها في أرجاء المعمورة.

يقول الشيخ محمد يوسف في نطاق حديثه عن أحد قيادات الجماعة [2] (لقد بلغت الدعوة في عهده إلى الأقطار العربية وإلى أمريكا وأوربا واليابان وجزر المحيط الهندي) [1].

---

(1) مقدم كتاب حياة الصحابة.

(2) هو الشيخ محمد يوسف مؤلف كتاب حياة الصحابة.

وقد أوردت هاتين الشهادتين للجماعة لأبين أن الدكتور الهلالي.

1- لم يوف الجماعة حقها، وتحامل عليها، وذلك لأنه لم يعايش أفرادها، بل اكتفى بما قرأه في رسالة محمد أسلم وهو لا يكفى.

2- وهو و لم يزد الأمر بكتابة هذا إلا سيرا في الجانب السلبي، والأمة الإسلامية كما قلنا تعيش فرقة قاتلة، شتت جهودها، ومحقت قوتها، والذي ينبغي هو التعاون على تشخيص أهم مشاكل الأمة وحلها.

ولا مانع من إبداء النصيحة وإهداء العيوب، ولكن من طريقها وبأسلوبها الذي علمنا إياه الإسلام، من سرية وحكمة وموعظة حسنة، لا بالتشهير وتضخيم الأخطاء والناس كلهم خطاءون.

إن غمط الدكتور الجماعة حقها وتفسيره لمبادئها على النحو السابق وجعله تلك المبادئ أو هي من بيت العنكبوت- على حد تعبيره- أمر عظيم ليعيد النظر فيما كتبه ويتحرى الصواب، ويسلك طريق الإنصاف، ليحتل كلامه المكان اللائق به، ولو فعل لأسدى خيراً وأفاد.

4- أهم وسائل الجماعة إلى أهدافها:[2]

بعد أن لخصنا مبادئ الجماعة الستة مع ما قيل عن هذه المبادئ نوجز الكتابة عن أهم وسائل الجماعة في دعوتها إلى أهدافها الستة:

أ- وسيلة الوعظ والإرشاد:

---

(1) كتاب حياة الصحابة 6/1.

(2) هذه الكيفية في الوسائل أخذتها مشافهة من فضيلة الشيخ عبد الغفار حسن.

وهي أن يقوم من سبقت له العضوية في هذه الجماعة بإلقاء كلمات في مساجد معينة لهذه الجماعة.

وبعد أن تنتهي كلمته يطلب من الحضور أن يعطوا الجماعة بعضاً من أوقاتهم، ويعينون هذه الأوقات بحسب ظروف المستجيبين لهم، يبدأ التعيين برقم أعلى ستة شهور، ثم ينزل إلى ثلاثة شهور، ثم أربعين يوماً، فعشرين يوماً، فأسبوع، فثلاثة أيام، ثم يسجل اسم المستجيب وأمامه الفترة الزمنية التي حددها بحسب ظروفه.

ب- وسيلة الرحلة أو السياحة:

وتبدأ هذه الوسيلة بحسب ما عندهم من أسماء مسجلة وتعطي الأولوية للأماكن التي لم ترتحل إليها الجماعة من قبل.

وهذه الأولوية تخضع للزمن المقدم من قبل المستجيبين للمرحلة، إن كان يتسع هذا الزمن لبعد المكان أو لا يتسع.

وبعد فرز الأسماء وتعيين الأمكنة المرتحل إليها، يعين على كل مجموعة أمير، وتسمى هذه المجموعة (قافلة التبليغ) ثم يطلب كل أمير من أمراء هذه المجموعات من أفراده أن يأخذ معه ما يكفيه من الفرش والزاد لتلك الرحلة من حسابه الخاص، مع التوجيه بعدم التكلف في هذا الجانب.

ثم تتوجه تلك القوافل إلى المكان المعين لها من قبل أمير المنطقة التي إنظلقت منها، ونقصد القافلة المسجد في ذلك المكان، فإن لم يكن به مسجد تستأجر مكاناً على حساب كافة أعضاء القافلة.

ثم يوزع الأمير على هذه القافلة الأعمال:

1- فمنهم من يتعين عليه الخطابة والوعظ.

2- ومنهم من يتعين عليه نظافة المسجد، أو المكان الذي نزلت فيه القافلة.

3- ومنهم من يتعين عليه الجولة على أهل هذا المكان في بيوتهم وحوانيتهم يطالبون منهم الحضور لسماع الوعظ والإرشاد.

فإذا جاء موعد الخطابة جلس كافة أعضاء الرحلة في الدرس يستمعون ويدعون للخطيب الواعظ بالتوفيق والإخلاص... إلخ... دعواتهم المعينة لهم.

فإذا انتهت فترة الوعظ، تكرر ما كان في الوسيلة الأولى من طلب المساهمة من الحضور ببعض أوقاتهم للدعوة وهكذا دواليك. وتناول هذه الجماعة من حيث الوسائل الدكتور صادق أمين في كتابه الدعوة [1] الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية، وبين أن وسائل الجماعة:

1- مقتصرة على الوعظ والإرشاد، والترغيب، والترهيب، وإثارة العواطف والتأثير الوقتي، وقدر من هذه الوسائل إذا بقيت هي أسلوب جماعة التبليغ مستقبلاً فإنها لا يمكن أن تكسب المعركة مع الجاهلية، بل ولا حتى الوقوف في وجه تلك الجاهلية العاتية، [2] معللا تقديرا ذلك [3] بأن الجماعة ليس لديها الاتصال المنظم

---

(1)راجع الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية للدكتور صادق أمين (84-85).

(2) الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية للدكتور صادق أمين صفحة(75-82)

(3) والأصل لتقديره بأن الجماعة لا يمكن أن تكسب المعركة مع الجاهلية هو أنه جعل لنفسه مقياساً بموجبه يمكن لأي حركة أو جماعة أن تنجح وبدونه لا يمكن أن تنجح، وملخص هذا القياس كتب المؤلف تحت عنوان صفات الحركة الإسلامية المنقذة:

1- أن يكون مرجع تلك الحركة في تصورها للعمل للإسلام من حيث الأهداف والوسائل ومواجهة الظروف والأحداث ووزن الأشخاص والأشياء مستمدا من الكتاب والسنة والسيرة المطهرة.

2- أن تفهم الحركة من لا إله إلا الله. على أن الربوبية والحاكمية والتشريع لله وحده.

3- أن تفهم الحركة من مفهوم لا إله إلا الله السابق من حال البشرية اليوم بكليته مناقضا لكلمة لا إله إلا الله.

4- أن يكون من الزامات تلك الحركة لأفرادها أن يخلموا ولاءهم كلية من ذلك الواقع البشري ومن القائمين عليه.

5- أن يعطي كافة أفراد تلك الحركة ولاءهم التام لقيادتها نظامها.

6- أن تربط أفراد تلك الحركة رابطة الحب في الله والعمل لدينه.

7- أن يكون لدى قيادة تلك الحركة وضوح الرؤية لأبعاد معركتها مع الجاهلية.

8- أن تعني تلك الحركة بجانب التربية لأفرادها، ؟؟ من الواقع الجاهلي، ووصلهم بالله عز وجل.

9- أن تؤثر قيادة تلك الحركة الناحية العملية على النظرية وان تحول بين تحول الإسلام إلى ترف فكرى عند الأفراد.

10- أن يكون لدى تلك الحركة ربط محكم بين مراحل الدعوة بحيث من بلغ يبلغ، ومن كون يكون، وعلى أهداف الحركة في مرحلتها المعينة.

11- أن تسلك الحركة كل السبل الشرعية لإقامة دولة مسلمة تأخذ على علقتها إقامة حكم الله تعالى في الأرض.

12-أن تفهم قيادة تلك الحركة وتفهم أعضائها بطبيعة طريقها. بأنه لا تمكين إلا بعد الإ=بناء، كما أنه لا بإيمان إلا بعد المرور بالفتنة.

13- ولتحقيق كل ما سبق لابد هذه الحركة من الوسائل التالية:

أ- منهاج فكري جهادي يتدارسه أفرادها، مختار من القرآن الكريم والسنة المطهرة وغيرها من العلوم المساعدة، وما يوصل من العلوم إلى إدراك فلسفات الجاهلية ومنعطفاتها.

ب- منهاج منهم في النظام والتعليم يربط الأفراد بعضهم ببعض برباط الأخوة التامة للقيادة.

جـ- خطة جيدة لنعمل وتخطيط مناسب ناتج عن دراسة مستمرة لتواقع.

المستمر مع الأفراد الذين يسمعون من دعاتها، ويتأثرون بهم، ويقرر الدكتور صادق أن هؤلاء الأفراد يحتاجون إلى رعاية كافية حتى ينموا ويترعرعوا.

2- ولأن الجماعة نشأت الهند أغلب سكانها غير مسلمين فهذه البيئة أبعدت الجماعة عن إتخاذ الأساليب والوسائل التي هي أكثر شمولا.

3- ولأن عملهم يكاد يقتصر على المسجد وهذا الإقتصار لا يكفي لإقامة أحكام الإسلام في حياة الناس.

5- موادهم المالية :

د- نظرية صالحة في التنفيذ تأخذ بيد الفرد من طور إلى طور تشبع تطمئنه وتجيب على تساؤلاته، وتجعله يسير فمن خط واضح المعالم.

ووافقه الأستاذ سعيد حوي أن كتابه « جند الله ثقافة وأخلاقا » من 1-72 على هذا المقياس هذا هو المقياس الذي رد بموجبه خطط التبليغ والسلفيين وحزب التحرير وهي الجماعات التي تطرق ما في بحته بالنقد والتقويم ثم جعله جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها الإمام حسن البنا في مصر هي أقرب الجماعات مقياسه، وأنها الجماعة التي يمكن أن تكسب المعركة مع الجاهلية، وهي تقويم من الدكتور صادق أمين معتدل ليس فيه إجحاف كما كان من سابقه الدكتور الهلالي.

وإنني لأهيب بقيادات جماعة التبليغ أن يعيدوا النظر في وسائل دعوتهم والأخذ بما جاء في تقويم الدكتور صادق أمين فإن فيه خيرا وبركة.

انظر الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية للدكتور صادق أمين من صفحة 128- 156.

والله تعالى أعلى وأعلم .....

تعتمد الجماعة في حركتها من الناحية المالية علي نفس الأفراد يستجيبون الدعوة ، فكل واحد من المسجيين بتول الصرف علي نفسه ذهابا وعودة إلي المكان الـــذي تعينة الجماعة له ، وكذا مصاريف مطعمه ومشربه .

هذا من جانب ومن جانب آخر . هناك بعض الأغنياء من أفـــراد الجماعـــة ، هؤلاء يقيمون ببعض التموينات للحفلات الكبيرة في الهند وغيرها ، حيث للجماعة حفلات في كل مكان تقام في الهند وباكستان ، يحضرها المتوغلـــون في عضـــوية الجماعة ، وخاصة في الهند ومن أنحاء العالم ، هذه الحفلات يتولي الإنفـــاق عليهـــا أولئك التجار من أعضاء الجماعة ، ولكن بصفه خاصة وفي حينها ، حيث لا يوجد في الجماعة باب تلقي تبرعات وهذه حسنة تذكر لهم ، وكذا يقوم هؤلاء التجـــار بتموين بعض المرتحلين إلي أماكن بعيدة ، تكون بفقاتها كثيرة ، وأيضاً بصفة خاصة أي بموجب أتفاق بين تاجر ومرتحل بدون واسطة الجماعة .

وعلي ذلك فلا يوجد عندهم جهاز لإدارة أموال الجماعة وضبطها .

6- تقويم الجماعة :

بعد أن أوجزنا الكتابة عن أهم ما ينبغي كتابته عن جماعة التبليغ ، نصـــل إلي تقويم الجماعة من وجهة نظرنا ، وهو يخضع لما قدمنا، إن مقياســـا في ذلـــك هـــو الإسلام، حيث أن دعوة الجماعة الإسلامية والذي سنقيسه تقويمه فيها هو:

أ. أهداف الجماعة.

ب. مبادئ الجماعة.

جـــ. وسائل الجماعة إلى تحقيق تلك الأهداف.

أما أهداف فقد حددها الجماعة بستة أهداف كما تقدم [1] وهي ثابتة عليها لم تتزحزح عنها تأسيسها حتى يومنا هذا، مقيدة بها أفرادها، وملزمة إياها بالسير عليها لا يفهمون غيرها بل ويحاربون سواها، ولا أدري أين وحدت قيادات الجماعة ذلك التحديد في الإسلام، صحيح لكل واحد من هذه الأهداف الستة أدلة تحث عليه في ذاته:

إنما تحديد الدعوة في إطار هذه المبادئ الستة فقط وجعلها كل الدين أمر يصطدم ببدهيات الدين، الذي أنزل ليحكم في كل حركة من حركات هذه البشرية في كل زمان لها ومكان [2].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[4].

فهل تلك الأهداف المحددة من قبل الجماعة هي كل شيء، وهل هي المفصلة تفصيلا في الكتاب والسنة.

إن الجواب البديهي أ هذه السنة جزء من نيف وستين [1] وشعبة في هذا الدين الحنيف، وتحت كل شعبة مئات الأحكام التي يهدف إليها الدين، حتى تسير البشرية على مقتضى أحكامه وتعاليمه.

---

(1) راجع الدعوة الإسلامية الدكتور صادق أمين (75- 82).

(2) انظر صفحة (324) من البحث.

(3) النحل آية: 89.

(4) الإسراء آية: 12.

أما بالنسبة للمبادئ والأفكار التي تنبتها الجماعة فهي تتعارض مع تعاليم الدين تعارضا صريحا.

أ. فإيجاب الجماعة على أفرادها التقليد، أمر يتعارض مع الإتباع.

ب. وتحريم الاجتهاد عليهم أمر يتعارض مع أحكام الشمول في الدين لكل مشاكل البشرية المستقبلية ضمن خطوطه العريضة.

ت. جعل المنهي عن المنكر عن مواصلة طلب العلم والتوسع فيه يتعارض أيضا مع بدهيات الدين، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وطلب التوسع فيه واجب ولو كان آخره في الصين.

ث. تحريم العمل السياسي في خطة الجماعة أمر يتعارض مع أحكام الدين وفرائضه لإقامة الخلافة مثلا من فرائض الدين وهي قضية سياسية، فكيف تحريم ذلك الجماعة؟ الخ، مع ما عندهم من مبادئ وأفكار تتعارض صراحة مع تعاليم الدين الإسلامي، أما بالنسبة لقصور وسيلة الجماعة على الوعظ والإرشاد فقد فصلنا القول فيه تقويمنا لجماعة أنصار السنة المحمدية ولا حاجة لإعادة ذلك هنا [2] .

---

(1) نشير إلى حديث شعب الإيمان ولفظه عند البخاري 1/ 20 عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان" رواه مسلم 1/ 63. وأبو داود 4/ 219 والنسائي 8/ 110.

(2) راجع صفحة (292) من البحث.

والخلاصة:

إن الغايات والأهداف والمبادئ والوسائل إلى الغايات كل ذلك قد تحدد من قبل الشارع الحكيم، وفصل تفصيلا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وأي فرد أو جماعة يحاول النقص أو الزيادة في الغايات أو المبادئ أو الوسائل فأمره مردود عليه وباطل فعله.

لأن الدين قد تم أركانه وأحكامه، فقد قال تعالى:

﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ﴾[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، [2]، الحديث.

ونحن مطالبون بكل تلك الأحكام قولا وفعلا.

ولكن الذي يحق لأي فرد أو جماعة في الأمة الإسلامية هو الإتيان بما يستطيعه من تلك الغايات وبما حدد له الشارع من وسائل إلى تلك الغايات وبالقدر الذي تحدده إمكانيات ذلك الفرد أو تلك الجماعة، وبحسب المرحلة التي يعيشها ذلك الفرد

---

(1) سورة المائدة آية 3.

(2) أخرجه البخاري في صحيحة عن عائشة رضي الله عنها 4/ 297، وهو في مسلم 1343/3، وابن ماجه 7/1، وهو عند أحمد في مسنده 270/6.

أو تلك الجماعة، ولا يحق لأي منهما أن يقول غايتي كذا دون غيرها من غايات الدين، أو وسلتي كذا دون غيرها من وسائل الدين إلى تلك الغايات [1] .

ولنأخذ على ذلك مثالا يوضح ما قلنا:

إن لكل فرد في هذه الأمة إن كانت إمكانياته الصحية لا تمكنه من الإتيان بغرض الصلاة وفي غاية له، إلا عن طريق الجلوس، وهي وسيلة إلى تلك الغاية التي هي الصلاة فله ذلك، فواضح من المثال أن الغاية حددت من قبل الشارع وأن الوسيلة حددت أيضا من قبل الشارع والذي جعل ذلك الفرد يسلك تلك الوسيلة إلى تلك الغاية هي إمكانياته الصحية، أما من ناحية إكتفائه بالصلاة دون غيرها، فلا يحق له بحال من الأحوال كما أن الخليفة الأول أبو بكر الصديق لم يقبل من قبائل العرب الشهادة والصلاة دون الزكاة.

وجماعة التبليغ التي نحن بصده تقويمها، من الجماعات التي اتخذت بعضا من الغايات التي حدها الشارع للجماعات الداعية إلى الإسلام، ورسمت لنفسها وسائل إلى ذلك البعض من الغايات تنسجم مع الميل الإنساني إلى الأقل تكلفه وصعوبة.

وهذه الجماعات بتحديدها لغايات تعالج جانبا من جوانب الدين الإسلامي كإحياء جانب العبادات العينية في الدين دون جانب السياسة، أو الجهاد، أو الاقتصاد، كما تفعل جماعة التبليغ.

أو إحياء الجانب السياسي في هذا الدين، والإحجام عن غيره كما يفعل حزب التحرير.

---

(1) انظر تفصيل هذا الموضوع في مبحث الأحكام الإسلامية من البحث ذاته في صفحة (133-138).

أو الاهتمام بالجانب الثقافي، أو مظاهر الدين الفرعية دون أصوله كما هو واضح من منهج السلفيين متمثلا في جماعة أنصار السنة، وبتحديدها وسائل إلى تلك الغايات دون غيرها من وسائل الدين الإسلامي تخرج نفسها من الجماعة المرشحة لحمل دعوة الإسلام إلى المسلمين من جديد ثم إلى العالمين أجمعين.

إن الجماعات التي جعلت لنفسها غايات ووسائل إليها جزئية من الدين الإسلامي تأخذ حكم تبعيض [1] أحكام الدين الإسلامي وهو المبدأ المحرم في الدين الإسلامي.

منهج تلك الجماعات المبعضة لتعاليم مرفوضة، وعليها أن تصلح ذلك المنهج بحسب شمول الدين واتساع تعاليمه.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [2].

وبقوله تعالى:

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ [3] .

([1]) انظر موضوع تبعيض الأحكام الإسلامية صفحة (133) من البحث.

([2]) سورة البقرة آية 85- 86.

([3]) سورة الأعراف آية 74.

بقوله تعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[1] .

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأخذ الدين كله دون تبعيضه قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾[2] .

ولقد رفض ذلك التبعيض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أشد الحاجة إلى العون والنصرة رفض صلى الله عليه وسلم ذلك التبعيض وهو يعاني أشد لحظات السخرية والاستهزاء ببعض مكة وشوارعها، رفضه في لحظات كان فيها مهددا بالقتل والتشريد من قريش وحلفائها.

رفضه بقولته العظيمة لقبيلة بني شيبان بن ثعلبة عندما كان يعرض نفسه على القبائل في مكة، عندما حاولت تلك القبيلة أخذ الذي لا تكرهه الملوك من هذا الدين فأجابها صلى الله عليه وسلم بقوله من حديث طويل: "ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، لأنه لا يقوم بهذا الدين إلا من أحاطه من جميع جوانبه" [3] .

إن أي تبعيض لهذا الدين مرفوض ولو في أشد حالات الدعوة الإسلامية محنة وابتلاء.

إن هذه الدعوة الإسلامية لا يمكن أن يقوم بها إلا من أحاطها من جميع جوانبها.

([1]) سورة المائدة آية 49.

([2]) سورة البقرة آية 208.

([3]) هذا جزء من حديث طويل ومناقشة طويلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين تلك القبيلة انظر نصه وتخريجه بصفحة 159، من نفس البحث.

إن قولة الرسول صلى الله عليه وسلم لبني شيبان يجب أن تكون من مقاييس الدعاة وهم يختارون الجماعة التي سيعملون تحت لوائها.

إن الجماعات التي تقوم على تبعيض الإسلام يجب أن ترفض عند اختيار الجماعة التي سيتخرط الداعية في صفها، كما رفضها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد حالات الشقاء والعسرة من قومه.

لقد رفض التبعيض وهو في أشد الحاجة إلى من ينصره ويحميه، رفضه في وقت اعتدى عليه قومه ومنعوه تبليغ رسالة ربه.

والجماعة المرشحة في نظري لحمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية، غير تلك الجماعات المجزئة لدين الله ويحسب ما يجب ويكره الحكام، إنها الجماعة التي تحمل الدين كله متحدية به كل الصعاب والمتاعب.

إن الجماعة المرشحة لذلك، والتي يجب على كل مسلم أن يعطيها ولاءه، ونصرته، هي الجماعة ذات الغايات الشاملة لكل غايات الدين الإسلامي، والمتخذة كل الوسائل التي حددها الشارع إلى تلك الغايات، ضمن خطة مرحلية مدرسة وبحسب ما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته عندما قرر أن يعيد هذه البشرية إلى ربها.